العالم المفقود

الطبعة الأولى
١٤٤٦هـ - ٢٠٢٥م

اسم العمل:	العالم المفقود
اسم المؤلف:	آرثر كونان دويل
ترجمة:	رزان بشور
تدقيق لغوي:	ملك محمد جلال
تصميم الغلاف:	وحيد محمد
الإخراج الداخلي:	عمر أسامة
رقم الإيداع:	٢٢٤٨٣ / ٢٠٢٤
الترقيم الدولي:	٩٧٨-٩٧٧-٨٩٩٩-٦٢-٤

مَسَار للنشر و التوزيع

شارع ونس - قسم يوسف بيك - الزقازيق - الشرقية - مصر
01020439639
massar.pub1@gmail.com

جميع الحقوق الخاصة بالتنسيق الداخلي، وتصميم غلاف هذا الكتاب، والترجمة الخاصة بدار مسار محفوظة، ولا يسمح بإعادة استخدامها دون الحصول على تصريح خطي من الناشر.
ملكية حقوق الطبع والنشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

العالم المفقود

آرثر كونان دويل

مَسَا
للنشر و التوزيع

الفصل الأول

هناك بطولات تحيط بنا من كل جانب

كان السيد (هنجيرتون)، والدها، أكثر الناس قلة أدب على وجه الأرض، رجلًا رقيقًا، ريشيًا، غير مرتب، طيب القلب، لكنّه يركز تمامًا على نفسه السخيفة. إذا كان هناك شيء يمكن أن يدفعني بعيدًا عن (جلاديس)، لكان التفكير في مثل هذا الحمو. أنا مقتنع أنّه كان يعتقد حقًا في قلبه أنّني أتيتُ إلى شيستناتس ثلاثة أيام في الأسبوع للتمتع بصحبته، وخاصة لسماع آرائه حول نظام المعدنين، وهو الموضوع الذي خبيرًا به.

لمدة ساعة أو أكثر في ذلك المساء، استمعتُ إلى زقزقته الرتيبة حول الأموال الرديئة التي تطرد الأموال الجيدة، والقيمة الرمزية للفضة، وانخفاض قيمة الروبية، والمعايير الحقيقية للتبادل.

«لنفترض»، صاح بعنفٍ ضعيف، «أنّ جميع الديون في العالم تم تحصيلها في وقتٍ واحد، وتم الإصرار على السداد الفوري، فماذا سيحدث إذًا في ظل ظروفنا الحالية؟».

أجبتُ إجابة واضحة بأنّني سأكون رجلًا مدمرًا. وعندها قفز من كرسيه، ووبخني على طيشي المعتاد؛ الذي جعل من المستحيل عليه مناقشة أي موضوع معقول في حضوري، وخرج من الغرفة ليرتدي ملابسه لحضور اجتماع ماسوني.

أخيرًا، أصبحتُ وحدي مع (جلاديس)، وحانتْ لحظة القدر! لقد شعرتُ طوال ذلك المساء وكأنني الجندي الذي ينتظر الإشارة التي سترسله إلى أمل يائس؛ أمل النصر وخوف الرفض يترددان في ذهنه.

جلستْ بملامحها الفخورة الرقيقة التي رسمتها على الستارة الحمراء. كم كانتْ جميلة! ومع ذلك كم كانتْ منعزلة! كنّا صديقين، صديقين جيدين للغاية؛ لكنني لم أستطع أبدًا أن أتجاوز تلك الرفقة التي ربما أقمتها مع أحد زملائي المراسلين في جازيت،- الصريحة تمامًا، واللطيفة تمامًا، وغير جنسية أبدًا. غرائزي كلها موجهة لامرأة صريحة للغاية ومرتاحة معي. هذه ليستْ مجاملة للرجل. فحيث يبدأ الشعور الجنسي الحقيقي، يكون الخجل وعدم الثقة مرافقين له، إنّه ميراث من الأيام الفاسدة القديمة عندما كان الحب والعنف يسيران جنبًا إلى جنب في كثير من الأحيان. فالرأس المنحني، والعين المحولة نظرها، والصوت المتعثر، والشكل المتجهم- وليستِ النظرة الثابتة والرد الصريح، هي الإشارات الحقيقية للعاطفة. حتى في حياتي القصيرة تعلمتُ الكثير من ذلك- أو ورثته في ذاكرة العرق التي نسميها الغريزة.

كانتْ (جلاديس) مليئة بكل المزايا الأنثوية. لقد حكم عليها البعض بأنّها باردة وقاسية؛ لكن مثل هذه الفكرة كانتْ خيانة. فتلك البشرة البرونزية الرقيقة؛ التي تشبه لون الشرق تقريبًا، وذلك الشعر الأسود، وتلك العينان الكبيرتان، والشفتان الممتلئتان الرائعتان- كلها العلامات المميزة التي تدل على العاطفة لكنني كنتُ مدركًا للأسف أنني لم أعثر حتى الآن على سر إثارة هذه العاطفة. ومع ذلك، مهما حدث، كنتُ لأفعل ما هو أكثر من التشويق وأجعل الأمور تصل إلى ذروتها الليلة. كان بإمكانها فقط أن ترفضني، فمن الأفضل أن تكون عشيقًا منفرًا بدلًا من أن تكون أخًا مقبولًا.

لقد حملتني أفكاري إلى هذا الحد، وكنتُ على وشك كسر الصمت الطويل المضطرب، عندما نظرتْ إليّ عينان داكنتان ناقدتان، وهزتْ رأسي الفخور بتوبيخ مبتسم. «لديّ شعور بأنّك ستتقدم لخطبتي، نيد. أتمنى ألّا تفعل ذلك؛ لأنّ الأمور أجمل بكثير كما هي عليه الآن».

اقتربتْ من مقعدي قليلًا. «حسنًا، كيف عرفتِ أنني سأتقدم لخطبتك؟» سألتُ في دهشة حقيقية.

«ألا تعرف النساء دائمًا؟ هل تظن أنّ أيّ امرأة في العالم قد أُخذتْ على حين غرة؟ ولكن- أوه، نيد، لقد كانتْ صداقتنا جيدة وممتعة للغاية! يا له من أمر مؤسف أن نفسدها! ألا تشعر بمدى روعة أن يتمكن شاب وشابة من التحدث وجهًا لوجه كما تحدثنا؟».

«لا أدري، يا جلاديس. كما ترين، أستطيع التحدث وجهًا لوجه مع رئيس المحطة». لا أستطيع أن أتخيل كيف دخل ذلك المسؤول في الأمر؛ لكنّه هرول، وجعلنا نضحك. «هذا لا يرضيني على الإطلاق. أريد ذراعي حولك، ورأسك على صدري، و- أوه، يا جلاديس، أريد...».

قفزتْ من كرسيها، عندما رأتْ علامات تشير إلى أنني اقترحتُ أن أعرض بعض رغباتي. قالتْ: «لقد أفسدتَ كل شيء، نيد».

«يكون الأمر جميل وطبيعي إلى أن يأتي هذا النوع من الأشياء! إنه لأمر مؤسف! لماذا لا تستطيع التحكم في نفسك؟».

«لم أخترعه»، توسلت. «إنّها الطبيعة، إنّه الحب».

«حسنًا، ربما إذا كان كلانا نحب ذلك لكان الأمر مختلفًا. لم أشعر به قط».

«لكن يجب عليكِ أن تحبي، بجمالك، بروحك! أوه، جلاديس، لقد خُلقتِ من أجل الحب! يجب أن تحبي!».

«يجب على المرء أن ينتظر حتى يأتي الحب».

«ولكن لماذا لا تستطيعين أن تحبيني يا جلاديس؟ هل هذا بسبب مظهري أم ماذا؟».

استرختْ قليلًا. ومدتْ يدهاـ بتلك الطريقة المهذبة المائلةـ ودفعت رأسي إلى الخلف. ثم نظرتْ إلى وجهي المقلوب بابتسامة حزينة للغاية.

«لا، ليس الأمر كذلك»، قالتْ أخيرًا. «أنت لستَ فتى مغرورًا بطبيعتك، لذا يمكنني أن أخبرك بأمان أنّ الأمر ليس كذلك. بل أعمق من ذلك».

«شخصيتي؟».

أومأتْ برأسها بشدة .

«ماذا يمكنني أن أفعل لإصلاح الأمر؟ هل أجلس وأناقش الأمر. لا، حقًا، لن أفعل إذا جلستِ فقط!».

نظرتْ إليّ بارتياب متعجب كان في ذهني أكثر من ثقتها الصادقة. كم يبدو الأمر بدائيًا ووحشيًا عندما تضعه بالأبيض والأسود!ـ وربما يكون هذا بعد كل شيء مجرد شعور خاص بي. على أي حال، جلستْ.

«أخبريني الآن ما الذي ينقصني؟».

«أنا أحب شخصًا آخر»، قالتْ.

لقد حان دوري للقفز من مقعدي.

«إنه ليس شخصًا معينًا»، أوضحتْ وهي تضحك من تعبير وجهي: «إنّه مجرد مثال. فأنا لم أقابل أبدًا نوع الرجل الذي أعنيه» .

«أخبريني عنه. كيف يبدو؟».

«أوه، قد يبدو يشبهك كثيرًا».

«كم هو لطيف منك أن تقولي ذلك! حسنًا، ما الذي يفعله هو وأنا لا أفعله؟ فقط قولي الكلمة التالية: ممتنع عن الشرب، نباتي، رائد فضاء، صوفي، سوبرمان. سأحاول يا جلاديس، لو تعطيني فكرة عما قد يرضيك».

ضحكتْ من مرونة شخصيتي. «حسنًا، في المقام الأول، لا أعتقد أنّ مثالي سيتحدث بهذه الطريقة»، قالتْ. «إنّه رجل أكثر قسوة وصرامة، وليس مستعدًا للتكيف مع نزوة فتاة سخيفة. ولكن، قبل كل شيء، يجب أن يكون رجلاً قادرًا على الفعل، والتصرف، والتحديق في وجه الموت وعدم الخوف منه، رجلًا له أعمال عظيمة وتجارب غريبة. لن يكون أبدًا رجلًا يجب أن أحبه، بل أحب دائمًا الأمجاد التي فاز بها؛ لأنّها ستنعكس عليّ. فكر في ريتشارد بيرتون! عندما قرأتُ حياة زوجته عنه، أدركتُ مدى حبها له! والسيدة ستانلي! هل قرأتَ الفصل الأخير الرائع من ذلك الكتاب عن زوجها؟ هؤلاء هم نوع الرجال الذين يمكن للمرأة أن تعبدهم بكل روحها، ومع ذلك تكون أعظم، وليس أقل، بسبب حبها، ويكرمهم العالم كله باعتبارهم ملهمين للأعمال النبيلة».

لقد بدتْ جميلة للغاية في حماسها لدرجة أنني كدتُ أنزل مستوى المقابلة بالكامل. تمالكتُ نفسي بقوة، وواصلتُ المناقشة. «لا يمكننا جميعًا أن نكون مثل ستانلي وبيرتون»، قلتُ، «بالإضافة إلى أنّه لا تتاح لنا الفرصة، على الأقل، لم تتح لي الفرصة أبدًا. إذا أتيحتْ لي الفرصة، يجب أن أحاول اغتنامها».

«لكن الفرص موجودة في كل مكان حولك. إنّها علامة على نوع الرجل الذي أعنيه والذي يصنع فرصه بنفسه. لا يمكنك منعه. أنا لم أقابله قط، ومع ذلك يبدو أنني أعرفه جيدًا. هناك بطولات في كل مكان حولنا تنتظر القيام بها. إنّه لمن واجب الرجال القيام بها،

ومن واجب النساء أن يحتفظن بحبهن كمكافأة لمثل هؤلاء الرجال. انظر إلى ذلك الشاب الفرنسي الذي صعد الأسبوع الماضي في منطاد. كانتْ تهب عاصفة من الرياح؛ ولكن لأنّه تم الإعلان عن انطلاقه أصر على الانطلاق. حملته الرياح لمسافة ألف وخمسمائة ميل في أربع وعشرين ساعة، وسقط في وسط روسيا. كان هذا هو نوع الرجال الذي أعنيه. فكر في المرأة التي أحبها، وكيف حسدتها النساء الأخريات! هذا ما أود أن أكون عليه، أن أُحسد على رجلي».

«كنتُ لأفعل ذلك لإرضائك».

«ولكن لا ينبغي لك أن تفعل ذلك لمجرد إرضائي. بل ينبغي لك أن تفعل ذلك لأنّك لا تستطيع منع نفسك، ولأنّ هذا أمر طبيعي بالنسبة لك، ولأنّ الرجل في داخلك يصرخ طالبًا التعبير عن نفسه بشجاعة. والآن، عندما وصفت انفجار الفحم في ويجان الشهر الماضي، ألم يكن بوسعك أن تذهب إلى هناك وتساعد هؤلاء الناس، على الرغم من الاختناق؟».

«لقد فعلتُ ذلك».

«إنّك لم تقل ذلك أبدًا».

«لم يكن هناك ما يستحق».

«لم أكن أعلم». نظرتْ إلي باهتمام أكبر. «لقد كان ذلك شجاعة منك».

«كان عليّ أن أفعل ذلك. إذا كنتَ تريد كتابة نص جيد، فيجب أن تكون حيث توجد الأشياء».

«يا له من دافع عادي! يبدو أنّه ينزع كل الرومانسية منه. ولكن، مهما كان دافعك، فأنا

سعيدة لأنّك نزلتَ إلى هذا المنجم». أعطتني يدها بمثل هذه الرقة والوقار الذي لم أستطع إلا أن أنحني وأقبلها. »أجرؤ على القول إنني مجرد امرأة حمقاء لديها خيال فتاة صغيرة. ومع ذلك، فإنّه حقيقيّ جدًا بالنسبة لي، وجزء من ذاتي بالكامل، بحيث لا يمكنني إلا أن أتصرف بناءً عليه. إذا تزوجتُ، فأنا أريد الزواج من رجل مشهور!».

«لِمَ لا؟» صرخت. «إنّ النساء مثلك هن من يشجعن الرجال. امنحيني فرصة، وانظري إن كنتُ سأستغلها! فضلًا عن ذلك، وكما تقولين، ينبغي للرجال أن يصنعوا فرصهم بأنفسهم، ولا ينتظروا حتى تتاح لهم. انظري إلى كلايف- مجرد كاتب، وقد غزا الهند! يا إلهي! سأفعل شيئًا في العالم!».

ضحكتْ من حماسي الأيرلندي المفاجئ .«لِمَ لا؟» قالتْ. «لديك كل ما يمكن أن يمتلكه الرجل- الشباب، والصحة، والقوة، والتعليم، والطاقة. لقد حزنتُ لأنّك تحدثت. والآن أنا سعيدة-سعيدة للغاية- إذا أيقظ ذلك فيك هذه الأفكار».

«وإذا فعلت ذلك...».

استقرتْ يدها مثل المخمل الدافئ على شفتي. «لا كلمة أخرى، سيدي! كان عليك أن تكون في المكتب لأداء واجبك المسائي قبل نصف ساعة؛ لكنني لم أجد الشجاعة لتذكيرك. ربما في يوم ما، عندما تفوز بمكانك في العالم، سنناقش الأمر مرة أخرى».

وهكذا وجدتُ نفسي في ذلك المساء الضبابي من شهر نوفمبر أطارد ترام كامبرويل وقلبي يتوهج في داخلي، عازمًا ألا يمر يوم آخر قبل أن أجد عملًا يستحق سيدتي. ولكن من- من في هذا العالم الواسع كان ليتخيل الشكل المذهل الذي كان سيتخذه هذا العمل، أو الخطوات الغريبة التي قادتني إلى القيام به؟

وبعد كل شيء، قد يبدو للقارئ أنّ هذا الفصل الافتتاحي لا علاقة له بقصتي؛ ومع ذلك، ما كان ليكون هناك قصة بدونه؛ لأنّه فقط عندما يخرج الرجل إلى العالم مع فكرة أنّ هناك بطولات من حوله، وبرغبة حيّة في قلبه ليلاحق أي بطولة قد تقترب منه، بحيث ينفصل كما فعلتُ عن الحياة التي يعرفها، ويغامر بالخروج إلى أرض الشفق الغامضة الرائعة حيث تكمن المغامرات العظيمة والمكافآت العظيمة. انظر إليّ، إذن، في مكتب الجريدة اليومية، التي كنتُ أحدًا تافهًا للغاية في طاقمها، مع التصميم الثابت في تلك الليلة بالذات، إذا أمكن، على العثور على المهمة التي تستحق (جلاديس)! هل كان ذلك قسوة، أم أنانية، أن تطلب مني المخاطرة بحياتي من أجل تمجيدها؟ قد تأتي مثل هذه الأفكار للمتوسطين في العمر؛ لكنّها لا تأتي أبدًا لمتحمس في الثالثة والعشرين من العمر في حمى حبه الأول.

الفصل الثاني

جرب حظك مع البروفسور تشالنجر

لقد أحببتُ دائمًا (مكاردل)، محرر الأخبار العجوز ذو الظهر المدور والشعر الأحمر، وكنتُ أتمنى أن يحبني. بالطبع، كان (بومونت) هو الرئيس الحقيقي؛ لكنه كان يعيش في جو روحاني في جبل أولمبوس، حيث لم يكن بوسعه أن يميز بين أي شيء أصغر من أزمة دولية أو انقسام في مجلس الوزراء. كنا نراه أحيانًا يمر بجلال وحيد إلى قدس أقداسه، وعيناه تحدقان بشكل غامض وعقله يحوم فوق البلقان أو الخليج العربي. لقد كان يسبقنا. لكن (مكاردل) كان ملازمه الأول، وكان هو من عرفناه. أومأ الرجل العجوز برأسه عندما دخلتِ الغرفة، ودفع نظارته بعيدًا فوق جبهته الصلعاء.

«حسنًا، السيد مالون، مما أسمعه، يبدو أنك بخير جدًا»، قال بلهجته الاسكتلندية اللطيفة.

شكرته.

«كان انفجار المنجم عظيمًا. وكذلك كان حريق ساوثوورك. لديك لمسة حقيقية من التكتم. ما الذي أردتَ أن تراني بشأنه؟».

«لطلب معروف».

بدا منزعجًا، وتجنبتْ عيناه ناظري. «توت، توت! ما الأمر؟».

«هل تعتقد يا سيدي أنه من الممكن أن ترسلني في مهمة ما لصالح الصحيفة؟ سأبذل قصارى جهدي لإنجازها والحصول لك على نسخة جيدة».

«ما نوع المهمة التي كانتْ في ذهنك يا سيد مالون؟».

«حسنًا يا سيدي، أي شيء ينطوي على المغامرة والخطر. سأبذل قصارى جهدي حقًا. كلما كان الأمر أكثر صعوبة، كان ذلك أفضل بالنسبة لي».

«يبدو أنك حريص جدًا على فقدان حياتك».

«لتبرير حياتي يا سيدي».

«يا عزيزي سيد مالون، هذا أمر سام جدًا. أخشى أن يكون يوم هذه الأشياء قد ولّى. إنّ تكاليف عمل (المهمة الخاصة) لا تبرر النتيجة، وبالطبع، في كل الأحوال، لن يحصل على مثل هذا الأمر إلا رجل متمرس واسمه يحظى بثقة الجمهور. إنّ المساحات الفارغة الكبيرة في الخريطة يتم ملؤها بالكامل، ولا يوجد مجال للرومانسية في أي مكان. انتظر قليلًا، رغم ذلك!» أضاف بابتسامة مفاجئة على وجهه. «الحديث عن المساحات الفارغة في الخريطة يمنحني فكرة. ماذا عن كشف احتيال- مونشهاوزن الحديث- وجعله مضحكًا؟ يمكنك إظهاره على أنّه كاذب! آه، يا رجل، سيكون الأمر جيدًا. كيف تجد ذلك؟».

«أي شيء- في أي مكان- لا يهمني شيء».

انغمس (ماكاردل) في التفكير لبضع دقائق .

«أتساءل عما إذا كان بوسعك إقامة علاقات ودية- أو على الأقل التحدث مع الرجل»، قال أخيرًا. «يبدو أنك تمتلك نوعًا من العبقرية في إقامة علاقات مع الناس- التعاطف، على ما أعتقد، أو الجاذبية الحيوانية، أو الحيوية الشبابية، أو شيء من هذا القبيل. أنا أدرك ذلك بنفسي».

«أنت جيد جدًا، يا سيدي».

«إذن لماذا لا تجرب حظك مع البروفسور تشالنجر، من إنمور بارك؟».

أجرؤ على القول إنني بدتُ مرتبكًا بعض الشيء.

«تشالنجر!» صرختُ. «البروفيسور تشالنجر، عالم الحيوان الشهير! أليس هو الرجل الذي كسر جمجمة بلونديل، من صحيفة التلغراف؟».

ابتسم محرر الأخبار بحزن.

«هل تمانع؟ ألم تقل أنك كنتَ تسعى إلى مغامرات؟».

«كل الأمر في طريقة العمل، يا سيدي» أجبتُ.

«بالضبط. لا أعتقد أنّه يمكن أن يكون عنيفًا إلى هذا الحد دائمًا. أعتقد أنّ بلونديل قبض عليه في الوقت الخطأ، ربما، أو بالطريقة الخطأ. ربما يكون حظك أفضل، أو تكون أكثر لباقة في التعامل معه. هناك شيء في خططك هنا، أنا متأكد، ويجب على جازيت أن تعالج ذلك».

«حقًا لا أعرف شيئًا عنه» قلتُ، «أنا لا اتذكر سوى اسمه فيما يتعلق بإجراءات محكمة الشرطة، لضرب بلونديل».

«لدي بعض الملاحظات لتوجيهك، يا سيد مالون. لقد كنتُ أراقب البروفسور لبعض الوقت». أخرج ورقة من أحد الأدراج». «هذا ملخص لسجله. أقدمه لك بإيجاز».

نشالنجر، جورج إدوارد. مواليد: لارجز، ن. ب، ١٨٦٣. التعليم: أكاديمية لارجز؛ جامعة إدنبرة. مساعد المتحف البريطاني، ١٨٩٢. مساعد أمين قسم الأنثروبولوجيا

المقارنة، ١٨٩٣. استقال بعد مراسلات حادة في نفس العام. حائز على ميدالية كريستون للأبحاث الحيوانية. عضو أجنبي في- حسنًا، الكثير من الأشياء، حوالي بوصتين من الحروف الصغيرة - «الجمعية البلجيكية، الأكاديمية الأمريكية للعلوم، لا بلاتا، إلخ، إلخ. رئيس سابق للجمعية الباليونتولوجي. القسم ح، الجمعية البريطانية»- وهلم جرا، وهلم جرا!- المنشورات: «بعض الملاحظات على سلسلة من جماجم كالموك»؛ «خطوط عريضة لتطور الفقاريات»؛ والعديد من الأوراق، بما في ذلك «الخطأ الأساسي في وايزمانية»، والتي تسببت في نقاش حاد في مؤتمر علم الحيوان في فيينا. الترفيه: المشي، تسلق جبال الألب. العنوان: إنمور بارك، كينسينجتون، دبليو.

«خذها معك. ليس لدي المزيد لأقدمه لك الليلة».

وضعتُ الورقة في جيبي.

قلتُ: «لحظة يا سيدي»، عندما أدركتُ أنّ ما أمامي كان رأسًا أصلعًا وردي اللون، وليس وجهًا أحمر. «لم يتضح لي بعد سبب إجراء مقابلة مع هذا الرجل. ماذا فعل؟».

عاد الوجه إلى الظهور مرة أخرى.

«ذهب إلى أمريكا الجنوبية في رحلة استكشافية منفردة منذ عامين. عاد العام الماضي. لقد ذهب بلا شك إلى أمريكا الجنوبية، لكنه رفض تحديد المكان بالضبط. بدأ يروي مغامراته بطريقة غامضة، لكن شخصًا ما بدأ في البحث عن ثغرات، فأغلق فمه كالمحار. حدث شيء رائع- أو أن الرجل بطل في الكذب، وهو الافتراض الأكثر ترجيحًا. كان لديه بعض الصور التالفة، التي قيل أنها مزيفة. أصبح سريع الغضب للغاية لدرجة أنه اعتدى على أي شخص يسأل أسئلة، ودفع المراسلين إلى أسفل الدرج. في رأيي أنه مجرد قاتل مصاب بجنون العظمة لديه ميل إلى العلم. هذا هو الرجل المناسب لك، السيد

مالون. الآن، انطلق، وانظر ماذا يمكنك أن تفعل به. أنت كبير بما يكفي لرعاية نفسك. على أي حال، أنتم جميعًا في أمان. قانون مسؤولية أصحاب العمل، كما تعلم».

تحول وجه أحمر مبتسم مرة أخرى إلى بيضاوي وردي، محاط بزغب أحمر؛ انتهتِ المقابلة.

مشيتُ عبر نادي سافاج، ولكن بدلًا من الدخول إليه، اتكأتُ على سياج شرفة أديلفي وحدقتُ لفترة طويلة في النهر البني الزيتي. يمكنني دائمًا التفكير بشكل أكثر عقلانية ووضوحًا في الهواء الطلق. أخرجتُ قائمة مآثر البروفيسور تشالنجر، وقرأتها تحت المصباح الكهربائي .ثم حصلتُ على ما يمكنني اعتباره إلهامًا فقط. بصفتي صحفيًا، شعرتُ بالثقة مما قيل لي أنني لا أستطيع أبدًا أن أتمنى الاتصال بهذا البروفيسور المشاكس. لكن هذه الاتهامات، المذكورة مرتين في سيرته الذاتية الهيكلية، لا يمكن أن تعني سوى أنه كان متعصبًا في العلوم. ألم يكن هناك هامش مكشوف هناك يمكن الوصول إليه من خلاله؟ سأحاول.

دخلتُ النادي. كانتِ الساعة قد تجاوزتِ الحادية عشرة بقليل، وكانتِ القاعة الكبيرة ممتلئة إلى حد ما، رغم أنّ الزحام لم يكن قد بدأ بعد. لاحظتُ رجلًا طويل القامة، نحيفًا، جالسًا منزويًا على كرسي بجوار المدفأة. استدار وأنا أسحب كرسيّي نحوه. كان رجلًا من بين كل الرجال ينبغي لي أن أختاره- تارب هنري، من طاقم الطبيعة، مخلوق نحيف، جاف، كان مليئًا بالإنسانية الطيبة، لمن عرفوه.فبدأتُ على الفور في موضوعي.

«ماذا تعرف عن البروفيسور تشالنجر؟».

«تشالنجر؟» رفع حاجبيه في استنكار علمي. «تشالنجر هو الرجل الذي جاء بقصة لا تصدق من أمريكا الجنوبية».

«أي قصة؟».

«أوه، لقد كانتْ هراءً تامًا عن بعض الحيوانات الغريبة التي اكتشفها. أعتقد أنه تراجع منذ ذلك الحين. على أي حال، لقد كتم كل شيء. لقد أجرى مقابلة مع رويترز، وكان هناك صراخ شديد لدرجة أنه رأى أن الأمر لن ينفع. لقد كان عملًا مشينًا. كان هناك شخص أو اثنان يميلان إلى أخذه على محمل الجد، لكنه سرعان ما خنقهما».

«كيف؟».

«حسنًا، بسبب وقاحته التي لا تطاق وسلوكه المستحيل. كان هناك وادلي المسكين، من معهد علم الحيوان. أرسل وادلي رسالة: «يقدم رئيس معهد علم الحيوان تحياته إلى البروفيسور تشالنجر، وسيعتبر ذلك خدمة شخصية إذا منحهم شرف الحضور إلى اجتماعهم التالي». كانتِ الإجابة غير قابلة للطباعة». «لم تقل ذلك؟».

«حسنًا، ستكون النسخة المنقَّحة منها: يقدم البروفيسور تشالنجر تحياته إلى رئيس معهد علم الحيوان، وسيعتبر ذلك خدمة شخصية إذا منحهم شرف الذهاب إلى الشيطان».

«يا إلهي!».

«نعم، أعتقد أن هذا ما قاله وادلي المسكين. أتذكر صراخه في الاجتماع، الذي بدأ: (في خمسين عامًا من الخبرة في العلاقات العلمية...)، لقد حطم ذلك الرجل العجوز تمامًا».

«هل هناك المزيد عن تشالنجر؟».

«حسنًا، أنا عالم بكتيريا، كما تعلم. أعيش في مجهر قطره تسعمائة. لا أستطيع أن أزعم أنني أهتم بشكل جدي بأي شيء أستطيع رؤيته بعيني المجردة. أنا رجل حدود من أقصى

حد للمعرفة، وأشعر بأنني في غير مكاني عندما أترك مكتبي وأتواصل معكم جميعًا أيّها المخلوقات الضخمة والقاسية. أنا بعيد جدًا عن التحدث عن الفضيحة، ومع ذلك فقد سمعتُ في المحادثات العلمية شيئًا عن تشالنجر، لأنّه أحد هؤلاء الرجال الذين لا يمكن لأحد تجاهلهم. إنّه ذكي للغاية- بطارية مشحونة بالكامل من القوة والحيوية، لكنّه متمرد مشاكس، وغير مهذب، وعديم الضمير. لقد ذهب إلى حد تزوير بعض الصور في الأعمال التجارية في أميركا الجنوبية».

«أنت تقول إنّه متمرد. ما هي بدعته الخاصة؟».

«لديه ألف نسخة، لكن آخرها كانتْ عن فايسمان والتطور. لقد أدار مشادة كلامية مروّعة حول هذا الموضوع في فيينا، على حد اعتقادي».

«هل يمكنك أن تخبرني بالموضوع؟».

«ليس في الوقت الحالي، لكن هناك ترجمة للإجراءات. لقد قمنا بحفظها في المكتب. هل تود أن تأتي؟».

«هذا ما أريده تمامًا. عليّ إجراء مقابلة مع الرجل، وأحتاج إلى بعض المعلومات التي قد تساعدني في الوصول إليه. إنّه لأمر طيب للغاية منك أن تساعدني. سأذهب معك الآن، إن لم يفت الأوان».

بعد نصف ساعة، كنتُ جالسًا في مكتب الصحيفة وأمامي كتاب ضخم، تم فتحه على المقال «فايزمان ضد داروين»، مع العنوان الفرعي «احتجاج حماسي في فيينا. إجراءات حيوية». نظرًا لإهمال معرفتي العلمية إلى حد ما، لم أتمكن من متابعة الحجة بأكملها، لكن كان من الواضح أنّ الأستاذ الإنجليزي قد تعامل مع موضوعه بطريقة عدوانية للغاية،

وأزعج زملاءَه الأوروبيين تمامًا. كانتِ «الاحتجاجات» و«الضجة» و«الاستئناف العام إلى الرئيس» ثلاثة من الأقواس الأولى التي لفتتِ انتباهي. ربما كان معظم الموضوع مكتوبًا باللغة الصينية لأي معنى محدد يصل إلى ذهني.

«أتمنى أن تتمكن من ترجمته لي إلى الإنجليزية» قلتُ لرفيقي المساعد بحزن.

«حسنًا، إنّها ترجمة».

«إذًا، من الأفضل أن أجرب حظي مع النص الأصلي».

«من المؤكد أنّه عميق إلى حد ما بالنسبة للشخص العادي».

«لو استطعتُ أن أفهم جملة واحدة جيدة واضحة تبدو وكأنها تنقل فكرة إنسانية محددة، لكان ذلك مفيدًا لي. آه، نعم، هذه الجملة ستفي بالغرض. بطريقة غامضة يبدو أنني أفهمها تقريبًا. سأقوم بنسخها. ستكون هذه هي صلتي بالأستاذ الرهيب».

«لا يوجد شيء آخر يمكنني فعله؟».

«حسنًا، نعم؛ أقترح أن أكتب إليه. إذا تمكنتُ من وضع الرسالة هنا، واستخدام عنوانك، فسيضفي ذلك جوًا».

«سنجعل الرجل الموجود هنا يثير ضجة ويحطم الأثاث».

«لا، لا؛ سترى الرسالة- لا شيء مثير للجدال، أؤكد لك».

«حسنًا، هذا كرسيي ومكتبي. ستجد ورقًا هناك. أود أن أضعه تحت الرقابة قبل إرساله».

لقد استغرق الأمر بعض الوقت، ولكنني أفتخر بنفسي لأنني لم أقم بعمل سيئ عندما

انتهيتُ منه. قرأته بصوت عالٍ لعالم البكتيريا الناقد مع بعض الفخر بعملي اليدوي.

«عزيزي البروفسور تشالنجر، هكذا جاء في الرسالة، بصفتي تلميذًا متواضعًا في الطبيعة، كنتُ دائمًا مهتمًا للغاية بتكهناتك حول الاختلافات بين داروين وفايزمان. وقد سنحت لي الفرصة مؤخرًا لتحديث ذاكرتي بإعادة قراءة...».

«أيها الكاذب اللعين!» تمتم (تارب هنري).

– «بإعادة قراءة خطابك الرائع في فيينا». يبدو أنّ هذا البيان الواضح والمثير للإعجاب هو الكلمة الأخيرة في هذا الأمر. ومع ذلك، هناك جملة واحدة فيه– وهي: «أعترض بشدة على التأكيد غير المحتمل والمتشدد تمامًا على أنّ كل هوية منفصلة هي عالم صغير يمتلك بنية تاريخية تطورت ببطء عبر سلسلة من الأجيال». ألا ترغب، في ضوء البحث اللاحق، في تعديل هذا البيان؟ ألا تعتقد أنّه مبالغ فيه؟ بإذنك، أود أن أطلب مقابلة، حيث أشعر بقوة تجاه هذا الموضوع، ولدي بعض الاقتراحات التي لا يمكنني شرحها إلّا في محادثة شخصية. بموافقتك، أثق في أن يكون لي شرف الاتصال في الساعة الحادية عشرة من صباح الغد (الأربعاء).

«أظل، يا سيدي، مع تأكيدات على الاحترام العميق، المخلص، إدوارد د. مالون».

«كيف ذلك؟» سألتُ منتصرًا.

«حسنًا، إذا كان ضميرك يتحمل ذلك».

«لم يخيّب ظني قط».

«ولكن ماذا تنوي أن تفعل؟».

»للوصول إلى هناك. بمجرد أن أكون في غرفته، قد أرى بعض الفتحات. قد أذهب

حتى إلى حد الاعتراف العلني. إذا كان رياضيًا، فسوف يتدغدغ».

«لقد دغدغته بالفعل! ومن المرجح أن يقوم بالدغدغة. سترغب في ارتداء سلسلة بريدية أو بدلة كرة قدم أمريكية. حسنًا، وداعًا. سأجيبك هنا صباح الأربعاء، إذا تكرم بالرد عليك. إنّه شخصية عنيفة وخطيرة ومشاكسة، يكرهه كل من يقابله، ويثير غضب الطلاب، إذا تجرأوا على الإساءة إليه. ربما يكون من الأفضل لك ألا تسمع عنه على الإطلاق».

الفصل الثالث

إنّه شخص مستحيل تمامًا

لم يكن من المقدر أن يتحقق خوف صديقي أو أمله. عندما زرتُ يوم الأربعاء، وجدتُ رسالة عليها ختم بريد ويست كنسينجتون، وكان اسمي مكتوبًا بخط اليد على المغلف الذي بدا وكأنّه سياج من الأسلاك الشائكة. وكان المحتوى على النحو التالي:

«إنمور بارك، دبليو

سيدي، لقد تلقيتُ رسالتك، التي تزعم فيها أنّك تؤيد آرائي، رغم أنني لستُ مدركًا أنّها تعتمد على تأييد منك أو من أي شخص آخر. لقد تجرأتُ على استخدام كلمة (التكهنات) فيما يتعلق ببياني حول موضوع الداروينية، وأود أن ألفتَ انتباهك إلى حقيقة مفادها أنّ مثل هذه الكلمة في مثل هذا السياق مسيئة إلى حد ما. ومع ذلك، فإن السياق يقنعني بأنك أخطأتَ بسبب الجهل وعدم اللباقة وليس بسبب الحقد، لذلك أنا راضٍ عن تجاوز الأمر. لقد اقتبستُ جملة معزولة من محاضرتي، ويبدو أنّك واجهتُ بعض الصعوبة في فهمها. لقد كنتُ أعتقد أنّ ذكاءً دون البشر فقط هو الذي قد يفشل في فهم هذه النقطة، ولكن إذا كانتْ هناك حاجة إلى التوسع فيها حقًا، فسأوافق على مقابلتك في الوقت المحدد، على الرغم من أنّ الزيارات والزوار من كل نوع أمر غير مستساغ بالنسبة لي. أما فيما يتعلق باقتراحك بأن أعدل رأيي، فأود أن تعلم أنه ليس من عادتي أن أفعل ذلك بعد التعبير المتعمد عن آرائي الناضجة. يرجى إظهار مظروف هذه الرسالة لرجلي، أوستن، عندما تتصل، لأنّه يجب أن يتخذ كل الاحتياطات لحمايتي من الأوغاد المتطفلين الذين يطلقون على أنفسهم «الصحفيين». «مع خالص التقدير»، جورج إدوارد

تشالنجر».

كانتْ هذه هي الرسالة التي قرأتها بصوت عالٍ لـ (تارب هنري)، الذي جاء مبكرًا لسماع نتيجة مغامرتي. كانتْ ملاحظته الوحيدة هي، «هناك بعض الأشياء الجديدة، كوتيكورا أو شيء من هذا القبيل، وهي أفضل من أرنيكا». لدى بعض الناس مثل هذه المفاهيم غير العادية للفكاهة.

كانتِ الساعة تقترب من العاشرة والنصف قبل أن أتلقى رسالتي، لكن سيارة أجرة أقلتني في الوقت المناسب إلى موعدي. كان المنزل الذي توقفنا عنده عبارة عن رواق مهيب، وكانتِ النوافذ ذات الستائر الثقيلة تشير إلى ثراء هذا البروفسور الكبير. فتح الباب شخص غريب، أسمر البشرة، جاف الجسم، لا يعرف عمره، يرتدي سترة طيار داكنة وغطاء للساقين من الجلد البني. اكتشفتُ بعد ذلك أنّه كان السائق؛ الذي ملأ الفجوات التي خلّفها سلسلة من الخدم الهاربين. نظر إليّ من أعلى إلى أسفل بعين زرقاء فاتحة فاحصة.

«متوقع؟» سأل.

«موعد».

«هل معك رسالتك؟».

أخرجتُ المغلف.

«صحيح!». بدا أنّه شخص قليل الكلام. أثناء متابعتي له في الممر قاطعتني فجأة امرأة صغيرة الحجم، خرجتْ مما تبين أنّه باب غرفة الطعام. كانتْ سيدة مشرقة، نشيطة، ذات عيون داكنة، فرنسية أكثر من كونها إنجليزية في سماتها.

«لحظة واحدة»، قالتْ. «يمكنك الانتظار، أوستن. تفضل بالدخول، يا سيدي. هل يمكنني أن أسألك إذا كنتَ قد قابلتَ زوجي من قبل؟».

«لا، سيدتي، لم يكن لي الشرف».

«إذن، أعتذر لك مقدمًا. يجب أن أخبرك أنّه شخص مستحيل تمامًا- مستحيل تمامًا. إذا تم تحذيرك مسبقًا، فستكون أكثر استعدادًا لالتماس الأعذار».

«ذلك مراعاة للغاية منك، يا سيدتي».

«اخرج بسرعة من الغرفة إذا بدا أنّه يميل إلى العنف. لا تنتظر حتى تجادله. لقد أصيب العديد من الأشخاص بالأذى بسبب ذلك. بعد ذلك، تحدث فضيحة عامة وتنعكس عليّ وعلى جميعنا. لا أعتقد أنّ الأمر الذي أردتَ رؤيته من أجله يتعلق بأميركا الجنوبية».

لم يكن بوسعي الكذب على سيدة.

«يا إلهي! هذا هو موضوعه الأكثر خطورة. لن تصدق كلمة واحدة مما يقوله- أنا متأكدة ولا أتعجب. لكن لا تخبره بذلك؛ لأنّ ذلك يجعله عنيفًا للغاية. تظاهر بأنّك تصدقه، وقد تنجح. تذكر أنّه هو نفسه يصدق ذلك. يمكنك التأكد من ذلك. لم يعش رجل أكثر صدقًا من هذا. لا تنتظر أكثر من ذلك وإلا فقد يشك. إذا وجدته خطيرًا- خطيرًا حقًا- دق الجرس وأوقفه حتى أعود. فحتى في أسوأ حالاته يمكنني عادةً السيطرة عليه».

بهذه الكلمات المشجعة سلّمتني السيدة إلى (أوستن) الصامت، الذي انتظر كتمثال برونزي أثناء مقابلتنا القصيرة، وتم اصطحابي إلى نهاية الممر. كان هناك نقر على الباب، وزئير ثور من الداخل، وكنتُ وجهًا لوجه مع البروفسور.

جلس على كرسي دوار خلف طاولة عريضة، كانتْ مغطاة بالكتب والخرائط والرسوم البيانية. عندما دخلتُ، استدار مقعده ليواجهني. جعلني مظهره ألهث. لقد كنت مستعدًا لشيء غريب، ولكن ليس لشخصية طاغية كهذه. كان حجمه هو ما خطف أنفاسي- حجمه وحضوره المهيب. كان رأسه ضخمًا، وهو الأكبر الذي رأيته على الإطلاق على إنسان. أنا متأكد من أنّ قبعته العالية، لو تجرأتُ على ارتدائها، كانتْ لتنزلق فوقي تمامًا وتستقر على كتفي. كان وجهه ولحيته يشبهان الثور الآشوري؛ الأول مبهرج، والثاني أسود للغاية حتى أنه يكاد يكون مائلًا إلى الزرقة، على شكل مجرفة ويمتد فوق صدره. كان شعره غريبًا، ملتصقًا في الأمام في خصلة طويلة منحنية فوق جبهته الضخمة. كانتْ عيناه زرقاء رمادية تحت خصلات سوداء كبيرة، واضحة للغاية، وناقدة للغاية، ومتسلطة للغاية. كانتْ أكتافه الضخمة وصدره يشبه البرميل هي الأجزاء الأخرى من جسده التي ظهرتْ فوق الطاولة، باستثناء يدين ضخمتين يغطيهما بشعر أسود طويل. كان هذا الصوت، إلى جانب صوت هادر وزئير، هو أول انطباع لي عن البروفيسور (تشالنجر) سيئ السمعة.

قال بنظرة وقحة للغاية: «حسنًا، ماذا الآن؟».

لا بُد أن أستمر في خداعي لفترة أطول قليلًا على الأقل، وإلّا فمن الواضح أنّ المقابلة قد انتهتْ.

«لقد كنتُ طيبًا بما يكفي لتقابلني يا سيدي»، قلتُ بتواضع، وأخرجتُ مظروفه.

أخذ رسالتي من مكتبه ووضعها أمامه.

«أوه، أنت الشاب الذي لا يفهم اللغة الإنجليزية البسيطة، أليس كذلك؟ أنت طيب بما يكفي للموافقة على استنتاجاتي العامة، كما أفهمها؟».

«بالكامل، يا سيدي- بالكامل!» كنتُ حازمًا للغاية.

«يا إلهي! هذا يعزز موقفي كثيرًا، أليس كذلك؟ إنّ عمرك ومظهرك يجعلان دعمك ذا قيمة مضاعفة. حسنًا، على الأقل أنت أفضل من قطيع الخنازير في فيينا، الذي لا يعد هديره الجماعي أكثر إزعاجًا من الجهد المنعزل للخنازير البريطانية». حدق فيّ باعتباري الممثل الحالي للوحش.

«يبدو أنّهم تصرفوا بشكلٍ بغيض»، أنا قلتُ.

«أؤكد لك أنّني أستطيع خوض معاركي بنفسي، وأنّني لستُ بحاجة إلى تعاطفك. دعني وشأني، يا سيدي، وظهري إلى الحائط. سأكون في أسعد حال إذن. حسنًا، سيدي، دعنا نفعل ما بوسعنا لتقليص هذه الزيارة، التي بالكاد مقبولة بالنسبة لك، ومزعجة بشكل لا يوصف بالنسبة لي. لقد كان لديك، كما أُقنعت، بعض التعليقات التي تود تقديمها على الاقتراح الذي قدمته في أطروحتي».

كانتْ هناك صراحة قاسية في أساليبه جعلتِ التهرب صعبًا. لا يزال يتعين عليّ أن ألعب وأنتظر مدخل أفضل. بدا الأمر بسيطًا بما فيه الكفاية عن بُعد. أوه، ذكائي الأيرلندي، هل يمكنه مساعدتي الآن، عندما أكون بحاجة ماسة إلى المساعدة؟ لقد شلّني بعينين حادتين فولاذيتين. «تعال، تعال» !دمدم.

«أنا، بالطبع، مجرد تلميذ»، قلتُ بابتسامة ساخرة، «لا أستطيع أن أقول أكثر من مجرد باحث جاد. وفي الوقت نفسه، بدا لي أنّك كنتَ قاسيًا بعض الشيء مع فايسمان في هذه المسألة. ألم يكن الدليل العام منذ ذلك التاريخ يميل إلى- حسنًا، إلى تعزيز موقفه؟».

«أي دليل؟» تحدث بهدوء مهدد.

«حسنًا، بالطبع، أنا أدرك أنّه لا يوجد ما قد تسميه دليلًا قاطعًا. لقد أشرتَ فقط إلى اتجاه الفكر الحديث ووجهة النظر العلمية العامة، إذا جاز لي التعبير عن ذلك».

انحنى إلى الأمام بجدية كبيرة.

«أعتقد أنّك تدرك»، قال، وهو يفحص النقاط على أصابعه، «أن مؤشر الجمجمة هو عامل ثابت؟».

«بشكل بيعي»، قلتُ.

«وأنّ التلغونية لا تزال أمام القضاء؟».

«بدون شك».

«وأنّ البلازما الجرثومية مختلفة عن البيضة العذرية التوالد؟».

«لماذا، بالتأكيد!» صرختُ، وفخرتُ بجرأتي.

«ولكن ماذا يثبت هذا؟» سأل بصوت لطيف ومقنع.

«آه، ماذا حقًا؟» همستُ. «ماذا يثبتُ هذا؟».

«هل يجب أن أخبرك؟» همس.

«أرجوك».

«لقد أثبتُّ ذلك»، صاح في انفجار مفاجئ من الغضب، «أنّك أكثر المحتالين لعنة في لندن- صحفي حقير زاحف، لا يملك من العلم أكثر مما يملك من اللياقة في كتاباته!».

لقد قفز على قدميه وقد امتلأتْ عيناه بالغضب الشديد. وحتى في تلك اللحظة من

التوتر، وجدتُ الوقت للدهشة من اكتشافي أنّه رجل قصير القامة، لا يزيد ارتفاع رأسه عن كتفي- هرقل قزم، الذي امتصتْ حيويته الهائلة كل عمقه وعرضه وعقله.

«هراء!» صاح، وهو يميل إلى الأمام، وأصابعه على الطاولة ووجهه بارز. «هذا ما كنتُ أتحدث به إليك يا سيدي- هراء علمي! هل كنتَ تعتقد أنّك تستطيع أن تنافسني في الدهاء- أنت بعقلك الصغير؟ هل تعتقد أنّك قادر على كل شيء، أيها الكاتب الشيطاني، أليس كذلك؟ وأنّ مديحك يمكن أن يصنع رجلًا وأنّ لومك يمكن أن يحطمه؟ يجب أن ننحني لك جميعًا، ونحاول الحصول على كلمة طيبة، أليس كذلك؟ هذا الرجل سيتميز عن الآخرين، وهذا الرجل سيتعرض للتوبيخ! أيها الحثالة، أنا أعرفك! لقد خرجت من مكانك. كان الوقت عندما كانتْ أذناك مقطوعتين. لقد فقدتَ حس التناسب لديك. أكياس غاز منتفخة! سأبقيك في مكانك المناسب. نعم يا سيدي، لم تتغلب على جي إي سي. هناك رجل واحد لا يزال سيدك. لقد حذرك، ولكن إذا أتيتَ، فالله يفعل ذلك على مسؤوليتك الخاصة. أطالب بالتعويض، سيدي العزيز مالون، لقد لعبتَ لعبة خطيرة إلى حد ما، ويبدو لي أنّك خسرت».

«انظر هنا، سيدي»، قلتُ وأنا أتراجع إلى الباب وأفتحه؛ «يمكنك أن تكون مسيئًا كما يحلو لك. ولكن هناك حد. لا يجوز لك مهاجمتي».

«ألا ينبغي لي أن أفعل ذلك؟» كان يتقدم ببطء بطريقة مخيفة بشكل غريب، لكنه توقف الآن ووضع يديه الكبيرتين في الجيوب الجانبية لسترة قصيرة صبيانية كان يرتديها.«لقد طردتُ العديد منكم من المنزل. وستكون الرابع أو الخامس. ثلاثة جنيهات وخمسة عشر جنيهًا إسترلينيًا لكل واحد- هذا هو متوسط المبلغ. إنّه باهظ، لكنه ضروري للغاية. الآن، سيدي، لماذا لا تتبع إخوانك؟ أعتقد أنّك يجب أن تفعل ذلك». استأنف تقدمه غير

السار والمتخفي، مشيرًا بأصابع قدميه أثناء سيره، كمعلم رقص.

كان بإمكاني أن أركض مسرعًا نحو باب القاعة، لكن ذلك كان ليكون مخزيًا للغاية. علاوة على ذلك، كان توهج صغير من الغضب الصالح ينشأ في داخلي. لقد كنتُ مخطئًا بشكل ميؤوس منه من قبل، لكن تهديدات هذا الرجل كانتْ تجعلني على حق.

«سأزعجك حتى تبتعد عني، يا سيدي. لن أتحمل ذلك».

«يا إلهي!» ارتفع شاربه الأسود وظهرتْ نابته البيضاء في سخرية. «لن تتحمل ذلك، أليس كذلك؟».

«لا تكن أحمقًا، يا بروفسور!» صرختُ. «ماذا يمكنك أن تأمل؟ أنا أزن خمسة عشر ستون، صلب كالمسامير، وألعب في مركز الوسط كل يوم سبت لفريق لندن آيريش. أنا لستُ الرجل المناسب...».

في تلك اللحظة اندفع نحوي. لقد كان من حسن حظي أنّني فتحتُ الباب، وإلا كان علينا أن نمر من خلاله. قمنا بحركة عجلة كاثرين معًا في الممر. بطريقة ما، جمعنا كرسيًا في طريقنا، وقفزنا به نحو الشارع. كان فمي مليئًا بلحيته، وكانتْ أذرعنا متشابكة، وجسدانا متشابكَين، وكان ذلك الكرسي الجهنمي يشع بأرجله حولنا. فتح (أوستن) اليقظ باب القاعة. نزلنا بقفزة خلفية على الدرج الأمامي. لقد رأيتُ ماكين يحاولان القيام بشيء ما في القاعات، لكن يبدو أنّ الأمر يتطلب بعض التدريب للقيام به دون أن يؤذي المرء نفسه. لقد تحول الكرسي إلى خشب ثقاب في الأسفل، وتدحرجنا بعيدًا في الميزاب. قفز على قدميه، ولوح بقبضتيه وأصدر صوتًا يشبه صوت مريض الربو.

«هل نلتَ ما يكفيك؟» قال وهو يلهث.

«أيها البلطجي الشيطاني!» صرختُ وأنا أستجمع شتات نفسي. كان علينا أن نجرب الأمر في تلك اللحظة بالذات، لأنّه كان يغلي من شدة القتال، ولكن لحسن الحظ تم إنقاذي من موقف بغيض. كان هناك شرطي بجانبنا، ودفتر ملاحظاته في يده.

«ما كل هذا؟ يجب أن تخجل من نفسك» قال الشرطي. كانتْ هذه الملاحظة الأكثر منطقية التي سمعتها في إنمور بارك .«حسنًا»، أصر وهو يستدير نحوي، «ما الأمر إذن؟».

قلتُ: «هذا الرجل هاجمني».

«هل هاجمته؟» سأل الشرطي.

تنفس البروفسور بصعوبة ولم يقل شيئًا.

«هذه ليستِ المرة الأولى أيضًا»، قال الشرطي، وهو يهز رأسه بشدة. «لقد أثرتَ مشكلة في الشهر الماضي لنفس الأمر. لقد سوّدتَ عين هذا الشاب. هل توكل إليه المسؤولية، يا سيدي؟».

استسلمتُ، وقلتُ «لا»، «لا أعرف».

«ما هذا؟» قال الشرطي. »أنا المسؤول عن ذلك. لقد اقتحمتُ عليه. لقد أعطاني تحذيرًا عادلًا». أمسك الشرطي بدفتر ملاحظاته.

«لا تدعنا نخوض مثل هذه الأحداث مرة أخرى»، قال. «حسنًا، إذن! تحركوا، تحركوا!» قال ذلك لصبي الجزار، وخادمة، وواحد أو اثنين من المتسكعين الذين اجتمعا. سار بخطوات ثقيلة في الشارع، وهو يقود هذا القطيع الصغير أمامه. نظر إلي البروفسور، وكان هناك شيء مضحك في مؤخرة عينيه.

«ادخل!» قال. «لم أنتهِ منك بعد».

كان لكلامه صوت شرير، لكنني تبعته رغم ذلك إلى المنزل. أغلق الخادم، (أوستن)، الباب خلفنا مثل صورة خشبية.

الفصل الرابع

إنّه أعظم شيء في العالم

لم يكد يغلق الباب حتى خرجتِ السيدة (تشالنجر) من غرفة الطعام. كانتِ المرأة الصغيرة في مزاج غاضب. لقد سدتِ الطريق أمام زوجها مثل دجاجة غاضبة أمام كلب بولدوغ. كان من الواضح أنّها رأتْ خروجي، لكنها لم تلحظ عودتي.

صرختْ قائلة: «يا لك من وحش جورج! لقد آذيتَ ذلك الشاب اللطيف».

اندفع إلى الخلف بإبهامه.

«ها هو، سالمًا وسليمًا خلفي».

كانتْ مرتبكة، لكن ليس بشكل مبالغ فيه.

«أنا آسفة جدًا، لم أرك».

«أؤكد لك، سيدتي، أنّ كل شيء على ما يرام».

«لقد ترك أثرًا على وجهك المسكين! أوه، جورج، يا لك من وحشي! لا شيء سوى الفضائح من بداية الأسبوع إلى نهايته. الجميع يكرهونك ويسخرون منك. لقد أنهيتُ صبري. هذه هي النهاية».

«كتان متسخ»، قال بصوت خافت.

«إنّه ليس سرًا»، صرخت. «هل تظن أنّ الشارع بأكمله- لندن بأكملها، في هذا الصدد- ابتعد يا أوستن، فنحن لا نريدك هنا. هل تظن أنّهم لا يتحدثون عنك جميعًا؟

أين كرامتك؟ أنت، الرجل الذي كان ينبغي أن يكون بروفسورًا ملكيًا في جامعة عظيمة بها ألف طالب يحترمك جميعًا. أين كرامتك يا جورج؟».

«ماذا عن كرامتك يا عزيزتي؟».

«لقد أجهدتني كثيرًا. لقد أصبحتُ همجيًا- همجي مشاجر عادي».

«كوني طيبة يا جيسي».

«بلطجي هائج يزأر!».

«هذا ما فعلها! كرسي التوبة!» قال.

ولدهشتي انحنى ورفعها ووضعها جالسة على قاعدة عالية من الرخام الأسود في زاوية القاعة. كان ارتفاعها سبعة أقدام على الأقل، وكانتْ رقيقة للغاية لدرجة أنّها بالكاد تستطيع أن تتوازن عليها. كان هناك شيء أكثر عبثية مما قدمته تكوّم هناك ووجهها يرتجف من الغضب، وقدميها تتدليان، وجسدها متصلب خوفًا من الانزلاج، لم أستطع أن أتخيله.

«أنزلني!» صرختْ.

«قولي من فضلك».

«أيها الوحش، جورج! أنزلني الآن!».

«تعال إلى المكتب، يا سيد مالون».

«حقًا، يا سيدي..!» قلتُ، وأنا أنظر إلى السيدة.

«ها هو السيد مالون يتوسل من أجلك يا جيسي. قولي من فضلك وسأنزلك».

«أوه، أيها الوحش! من فضلك! من فضلك!».

فأنزلها كما لو كانتْ كنارا.

«يجب أن تتصرفي بشكل لائق يا عزيزتي. فالسيد مالون يعمل في الصحافة. سوف يتناول كل شيء في جريدته غدًا، وسوف يقنع دزينة إضافية من جيراننا. (قصة غريبة عن حياة راقية)- لقد شعرتُ أنّك في قمة رقيّك، أليس كذلك؟ ثم عنوان فرعي، (لمحة عن عائلة فريدة). إنّه شخص كريه الرائحة، السيد مالون، آكل جيف، مثل جميع أمثاله- خنزير من قطيع الشيطان. هذا كل شيء، مالون- ماذا؟».

«أنت حقًا لا تطاق!» قلتْ، بلهفة.

صرخ ضاحكًا.

«سوف نعقد ائتلافًا قريبًا»، صاح وهو ينظر من زوجته إليّ وينفخ صدره الضخم. ثم غيّر نبرته فجأة، «اعذرني على هذه المزاحة العائلية التافهة، يا سيد مالون. لقد استدعيتُك ثانيةً لسبب أكثر جدية من إزعاجك بمجاملاتنا المنزلية الصغيرة. اذهبي أيتها المرأة الصغيرة، ولا تقلقي». وضع يدًا ضخمة على كتفيها. «كل ما تقولينه صحيح تمامًا. سأكون رجلًا أفضل إذا فعلتُ ما نصحتِ به، لكنني لن أكون جورج إدوارد تشالنجر تمامًا. هناك الكثير من الرجال الأفضل، يا عزيزتي، لكن هناك جورج إدوارد تشالنجر واحد فقط. لذا استفيدي منه لأقصى حد» فجأة أعطاها قبلة مدوية، أحرجتني أكثر مما أحرجني عنفه. «حسنًا، سيد مالون»، تابع، بوقار كبير، «من هنا، إذا سمحت».

عدنا إلى الغرفة التي غادرناها بصخب شديد قبل عشر دقائق. أغلق البروفسور الباب بعناية خلفنا، وأشار لي بالجلوس على كرسي بذراعين، ودفع علبة سيجار تحت أنفي.

«سان خوان كولورادو الحقيقي»، قال. «الأشخاص المثيرون مثلك هم الأفضل في المخدرات. يا إلهي! لا تعضها! اقطعها- واقطعها بوقار! الآن استرخِ واستمع باهتمام إلى أي شيء قد أرغب في قوله لك. إذا خطرتْ لك أي ملاحظة، يمكنك الاحتفاظ بها للوقت المناسب».

«أولًا وقبل كل شيء، فيما يتعلق بعودتك إلى منزلي بعد طردك المبرر»- أخرج لحيته وحدق فيّ كشخص يتحدى ويدعو إلى التناقض- «بعد، كما قلت، طردك المستحق. كان السبب يكمن في إجابتك لذلك الشرطي الأكثر غطرسة، والتي بدوت أنني أستشعر فيها وميضًا من المشاعر الطيبة من جانبك- أكثر، على أي حال، مما اعتدتْ على ربطه بمهنتك. لقد اعترفتَ بأنّ الخطأ في الحادث كان خطأك، وقدمتَ بعض الأدلة على انفصالك الذهني واتساع نطاق وجهة نظرك، وهو ما جذب انتباهي. إنّ الأنواع الفرعية من الجنس البشري الذي تنتمي إليه للأسف كانتْ دائمًا تحت أفق تفكيري. لقد جلبتك كلماتك فجأة إلى الأعلى. لقد طُفتَ إلى انتباهي الجاد. ولهذا السبب طلبتُ منك العودة معي، حيث كنتُ أرغب في التعرف عليك بشكل أكبر. ستضع رمادك بلطف في الصينية اليابانية الصغيرة على الطاولة المصنوعة من الخيزران الموجودة عند مرفقك الأيسر».

لقد تحدث بكل هذا بصوت عالٍ مثل أستاذ يخاطب صفه. لقد دار حول كرسيه الدوار حتى يواجهني، وجلس منتفخًا مثل ضفدع ضخم، ورأسه مائل للخلف وعيناه نصف مغطيتين بجفون متغطرسة. ثم استدار فجأة إلى الجانب، وكل ما استطعتُ رؤيته منه هو شعر متشابك وأذن حمراء بارزة. كان يخدش بين أوراق مكتبه. واجهني على الفور بما يشبه دفتر رسم ممزق للغاية في يده.

«سأتحدث إليك عن أمريكا الجنوبية»، قال. «لا تعليق إذا سمحت. أولًا وقبل كل

شيء، أود منك أن تفهم أنّه لا يجوز تكرار أي شيء أقوله لك الآن بأي طريقة علنية ما لم تحصل على إذن صريح مني. لن يُمنح هذا الإذن، في كل الاحتمالات البشرية، أبدًا. هل هذا واضح؟».

«إنّه أمر صعب للغاية»، قلت. «بالتأكيد حساب حكيم...».

أعاد دفتر الملاحظات إلى الطاولة.

«هذا ينهي الأمر»، قال. «أتمنى لك صباح جيد».

«لا، لا!» صرختُ. «سأخضع لأي شروط. فبقدر ما أرى، ليس لدي خيار».

«لا يوجد خيار في العالم»، قال.

«حسنًا، إذن، أعدك».

«كلمة شرف؟».

«كلمة شرف».

نظر إليّ بشك في عينيه الوقحتين.

«بعد كل شيء، ماذا أعرف عن شرفك؟» قال.

«أقسم بالله، سيدي»، صرختُ بغضب، «أنت تأخذ حريات كبيرة جدًا! لم أتعرض لإهانة كهذه في حياتي من قبل».

بدا مهتمًا أكثر من كوّنه منزعجًا من تفجر غضبي.

«رأس مستدير»، تمتم. «قصير الرأس، ذو عيون رمادية، وشعر أسود، مع إيحاءات

بالزنجي. سلتي، على ما أظن؟».

«أنا أيرلندي، سيدي».

«أيرلندي أيرلندي؟».

«نعم يا سيدي».

«هذا بالطبع يفسر الأمر. دعني أرى؛ لقد وعدتني بأن ثقتي ستُحترم؟ يمكنني أن أقول إن هذه الثقة لن تكون كاملة. لكنني مستعد لإعطائك بعض المؤشرات التي ستكون ذات فائدة. في المقام الأول، ربما تكون على علم بأنني قمتُ قبل عامين برحلة إلى أمريكا الجنوبية- وهي رحلة ستكون كلاسيكية في التاريخ العلمي للعالم؟ كان هدف رحلتي هو التحقق من بعض استنتاجات والاس وبيتس، وهو ما لم يكن من الممكن القيام به إلا من خلال ملاحظة الحقائق التي أبلغوا عنها في نفس الظروف التي سجلوها فيها بأنفسهم. لو لم تسفر رحلتي عن نتائج أخرى، لكانتْ لا تزال جديرة بالملاحظة، لكن حادثة غريبة حدثتْ لي أثناء وجودي هناك والتي فتحتْ خطًا جديدًا تمامًا للتحقيق».

- أنت تعلم- أو ربما، في هذا العصر نصف المتعلم، لا تعلم- أنّ البلاد المحيطة ببعض أجزاء الأمازون لا تزال مستكشفة جزئيًا فقط، وأنّ عددًا كبيرًا من الروافد، بعضها غير مرسوم على الخرائط تمامًا، تصب في النهر الرئيسي. كان من واجبي أن أزور هذه المنطقة النائية غير المعروفة وأن أفحص حيواناتها، وهو ما زودني بالمواد اللازمة لعدة فصول من ذلك العمل العظيم الضخم في علم الحيوان والذي سيكون مبررًا لحياتي. كنتُ عائدًا وقد أنجزتُ عملي، عندما سنحتْ لي الفرصة لقضاء ليلة في قرية هندية صغيرة عند نقطة ينبع منها رافد معين- لم أذكر اسمه وموقعه- على النهر الرئيسي. كان السكان الأصليون من هنود كوكاما، وهم عرق لطيف ولكنه منحط، يتمتعون بقوى عقلية لا تكاد تتفوق على

سكان لندن العاديين .لقد أجريتُ بعض العلاجات بينهم أثناء صعودي النهر، وأعجبت بشخصيتي بشكل كبير، لذلك لم أتفاجأ عندما وجدتُ نفسي منتظرًا بفارغ الصبر عند عودتي. استنتجتُ من علاماتهم أنّ شخصًا ما كان في حاجة ماسة إلى خدماتي الطبية، وتبعتُ الزعيم إلى أحد أكواخه. عندما دخلتُ وجدتُ أنّ المريض الذي استدعيتُ لمساعدته قد توفي في تلك اللحظة. لقد كان، لدهشتي، ليس هنديًا، بل رجل أبيض؛ في الواقع، أستطيع أن أقول أنّه كان رجلًا أبيض البشرة للغاية، لأنّه كان أشقر الشعر ولديه بعض خصائص الألباني كان يرتدي ثيابًا بالية، وكان نحيلًا للغاية، وكان يحمل كل آثار المشقة الطويلة. وبقدر ما أستطيع أن أفهم رواية السكان الأصليين السبعة والعشرين، كان غريبًا تمامًا بالنسبة لهم، وقد وصل إلى قريتهم عبر الغابة بمفرده وفي المرحلة الأخيرة من الإرهاق.

كانتْ حقيبة الرجل موضوعة بجانب الأريكة، ففحصتُ محتوياتها. كان اسمه مكتوبًا على شريط بداخلها- مابل وايت، ليك أفينيو، ديترويت، ميشيغان. إنه اسم أرفع له قبعتي دائمًا. ليس من المبالغة أن أقول أنّه سيحتل نفس مرتبة اسمي عندما يتم توزيع الفضل النهائي لهذه المهمة.

من محتويات الحقيبة، كان من الواضح أنّ هذا الرجل كان فنانًا وشاعرًا يبحث عن انطباع. كانتْ هناك قصاصات من الشعر. لا أدعي أنني خبير في مثل هذه الأشياء، لكنها بدتْ لي تفتقر إلى الجدارة بشكل خاص. كانتْ هناك أيضًا بعض الصور العادية لمناظر النهر، وعلبة طلاء، وعلبة طباشير ملونة، وبعض الفراشي، والعظم المقوس الذي يقع على حامل الحبر الخاص بي، ومجلد من كتاب «العث والفراشات» لباكستر، ومسدس رخيص، وعدد قليل من الخراطيش. كان لا يملك أي معدات شخصية أو أنّه فقدها أثناء رحلته. كانتْ هذه هي الممتلكات الكلية لهذا البوهيمي الأمريكي الغريب.

كنتُ أبتعد عنه عندما لاحظتُ شيئًا يبرز من مقدمة سترته الممزقة. كان هذا دفتر الرسم، الذي كان مهلهل آنذاك كما هو الآن. في الواقع، أستطيع أن أؤكد لك أنّ أول مجلد لشكسبير لا يمكن التعامل معه باحترام أكبر من هذا الأثر منذ أن أصبح في حوزتي. أسلمه إليك الآن، وأطلب منك أن تأخذه صفحة تلو الأخرى وتفحص محتوياته».

أخذ سيجار وانحنى إلى الوراء بزوج من العيون الناقدة بشراسة، ملاحظًا الانطباع الذي سيحدثه هذا المستند.

فتحتُ المجلد متوقعًا أن يكشف شيئًا، على الرغم من أنني لم أستطع تخيل طبيعته. ومع ذلك، كانتِ الصفحة الأولى مخيبة للآمال، حيث لم تحتوي على شيء سوى صورة رجل سمين للغاية يرتدي سترة بحار، مع عنوان «جيمي كولفر على متن قارب البريد» مكتوب أسفلها. ثم تلا ذلك عدة صفحات مليئة برسومات صغيرة للهنود وأساليب حياتهم. ثم جاءتْ صورة لرجل دين مرح وبدين يرتدي قبعة صغيرة، ويجلس مقابل أوروبي نحيف للغاية، ونقش: «غداء مع الأخ كريستوفيرو في روزاريو». وملأتْ دراسات النساء والأطفال عدة صفحات أخرى، ثم كانتْ هناك سلسلة متواصلة من رسومات الحيوانات مع تفسيرات مثل «خروف البحر على الرمال»، و «السلاحف وبيوضها»، و «أجوتي أسود تحت نخلة ميريتي»- المادة التي تكشف عن نوع من الحيوانات التي تشبه الخنزير؛ وأخيرًا جاءتْ صفحة مزدوجة من دراسات عن الديناصورات ذات الأنف الطويل وغير السارة. لم أستطع فهم أي شيء من ذلك، وقلت ذلك للبروفسور.

«من المؤكد أنّ هذه مجرد تماسيح؟».

«تماسيح أميركية! لا يوجد شيء اسمه تمساح حقيقي في أمريكا الجنوبية. الفرق بينهما هو...».

«أعني أنني لم أستطع أن أرى شيئًا غير عاديًا.. لا شيء يبرر ما قلته».

ابتسم بهدوء. «جرب الصفحة التالية»، قال.

ما زلتُ غير قادر على التعاطف. كان عبارة عن رسم تخطيطي لصفحة كاملة لمناظر طبيعية ملونة- نوع الرسم الذي يرسمه فنان في الهواء الطلق كدليل لجهد مستقبلي أكثر تفصيلًا. كانتْ هناك مقدمة خضراء شاحبة من النباتات الريشية، والتي تنحدر إلى أعلى وتنتهي بخط من جرف منحدرات صخرية ذات لون أحمر داكن، ومضلعة بشكل غريب مثل بعض التكوينات البازلتية التي رأيتها .امتدتْ في جدار غير منكسر عبر الخلفية. في نقطة ما كانتْ هناك صخرة هرمية منعزلة، تتوجها شجرة كبيرة، والتي بدتْ وكأنّها منفصلة عن الصخرة الرئيسية بشق. خلف كل ذلك، كانتْ هناك سماء استوائية زرقاء. وخط أخضر رفيع من النباتات يحيط بقمة الجرف الأحمر.

«حسنًا؟» سأل.

«لا شك أنّه تشكيل غريب»، قلتُ، «لكنني لستُ جيولوجيًا بما يكفي لأقول إنّه رائع».

«رائع!» كرر. «إنّه فريد من نوعه. إنّه أمر لا يصدق. لم يحلم أحد على وجه الأرض بمثل هذا الاحتمال. الآن التالية».

قلبتُ الصفحة وصرختُ بدهشة. كانتْ هناك صورة على صفحة كاملة لأكثر مخلوق غير عادي رأيته على الإطلاق. كان حلمًا جامحًا لمدخن أفيون، رؤية الهذيان. كان الرأس مثل رأس دجاجة، والجسم مثل جسم سحلية منتفخة، وكان الذيل المتدلي مزودًا بأشواك متجهة لأعلى، وكان الظهر المنحني محاطًا بحافة مسننة عالية، والتي بدتْ وكأنّها عشرات

من أذرع الديوك الموضوعة خلف بعضها البعض. كان أمام هذا المخلوق قزم أو دمية سخيفة في هيئة بشرية، وكان يقف وينظر إليه.

«حسنًا، ما رأيك في هذا؟» صاح البروفسور وهو يفرك يديه في مظهر من مظاهر الانتصار.

«إنه متوحش- غريب الأطوار».

«ولكن ما الذي دفعه إلى رسم مثل هذا الحيوان؟».

«أعتقد أنّه حرفة الجن».

«أوه، هذا هو أفضل تفسير يمكنك تقديمه، أليس كذلك؟».

«حسنًا يا سيدي، ما هو تفسيرك؟».

«التفسير الواضح هو أنّ المخلوق موجود. هذا في الواقع مرسوم من الحياة».

كان ينبغي لي أن أضحك فقط لأنّني رأيتُ في رؤيتي أننا نقوم بجولة أخرى على غرار جولة كاثرين في الممر.

«لا شك»، قلتُ «لا شك» كما يداعب المرء أحمقًا. «أعترف، مع ذلك»، أضفتُ، «أنّ هذا الشكل البشري الصغير يُحيّرني. لو كان هنديًا، لكنّا قد وضعناه كدليل على وجود عرق قزم في أمريكا، لكن يبدو أنّه أوروبي يرتدي قبعة شمسية».

زفر الأستاذ مثل جاموس غاضب. «لقد تجاوزتَ الحد حقًا»، قال. «لقد وسعتَ نطاق رؤيتي للممكن. شلل دماغي! جمود عقلي! رائع!».

كان سخيفًا للغاية لدرجة أنّه لم يجعلني أغضب. لقد كان هذا إهدارًا للطاقة؛ لأنّك إذا كنتَ ستغضب من هذا الرجل، فستغضب طوال الوقت. لقد اكتفيتُ بالابتسام بتعب. «لقد صدمتني حقيقة أنّ الرجل كان صغيرًا»، قلتُ.

«انظر هنا!» صاح، وهو يميل إلى الأمام ويمسح إصبعًا كبيرًا من الشعر على الصورة. «هل ترى هذا النبات خلف الحيوان؟ أعتقد أنّك ظننتَ أنّه نبات الهندباء أو براعم بروكسل- ماذا؟ حسنًا، إنّه نخلة نباتية عاجية، ويبلغ ارتفاعها حوالي خمسين أو ستين قدمًا. ألا ترى أنّ الرجل قد وضعها لغرض ما؟ لم يكن بإمكانه حقًا أن يقف أمام هذا الوحش ويعيش ليرسمه. لقد رسم نفسه ليعطي مقياسًا للارتفاعات. يمكننا أن نقول أنّه كان طوله أكثر من خمسة أقدام. الشجرة أكبر بعشر مرات، وهذا ما يتوقعه المرء».

«يا إلهي!» صرختُ. «إذن تعتقد أنّ الوحش كان... حسنًا، محطة تشيرينغ كروس لا يمكن أن تكون بيتًا لمثل هذا الوحش!».

«بصرف النظر عن المبالغة، فهو بالتأكيد عينة نمتْ جيدًا»، قال البروفسور راضيًا.

«لكن»، أنا صرختُ، «من المؤكد أنّ تجربة الجنس البشري بأكملها لا يمكن تجاهلها بسبب رسم تخطيطي واحد»- لقد قلبتُ الصفحات وتأكدتُ من أنه لا يوجد شيء آخر في الكتاب- «رسم تخطيطي واحد لفنان أمريكي متجول ربما رسمه تحت تأثير الحشيش، أو في هذيان الحمى، أو ببساطة لإرضاء خيال غريب. لا يمكنك، كرجل علم، الدفاع عن مثل هذا الموقف».

للإجابة، أخرج الأستاذ كتابًا من أحد الرفوف.

«هذه دراسة ممتازة لصديقي الموهوب، راي لانكستر» قال. «هناك رسم توضيحي هنا

قد يثير اهتمامك. آه، نعم، ها هو! النص الموجود أسفله يقول: (ظهور محتمل لديناصور جوراسي ستيجوسورس في الحياة. يبلغ طول الرجل الخلفية وحدها ضعف طول رجل ناضج). حسنًا، ماذا تعتقد بشأن ذلك؟».

سلمني الكتاب المفتوح. صعقتُ وأنا أنظر إلى الصورة. في هذا الحيوان المعاد بناؤه من عالم ميت كان هناك بالتأكيد تشابه كبير جدًا مع رسم الفنان المجهول.

«هذا رائع بالتأكيد»، أنا قلتُ.

«لكنك لن تعترف بأنّه نهائي؟».

«من المؤكد أنّه قد يكون مصادفة، أو ربما رأى هذا الأمريكي صورة من هذا النوع واحتفظ بها في ذاكرته. من المرجح أن تعاود ذهن رجل في حالة هذيان».

«جيد»، قال البروفسور بلهجة متسامحة؛ «سنترك الأمر عند هذا الحد. سأطلب منك الآن أن تنظر إلى هذه العظمة». ثم سلّمني العظمة التي وصفها بالفعل بأنّها جزء من ممتلكات الرجل الميت. كانتْ طولها حوالي ست بوصات، وأكثر سمكًا من إبهامي، مع بعض الدلائل على وجود غضروف جاف في أحد طرفيها.

«لأي مخلوق معروف تنتمي هذه العظمة؟» سأل البروفسور.

فحصتها بعناية وحاولتُ أن أتذكر بعض المعلومات التي نسيتها.

«ربما تكون عظمة ترقوة بشرية سميكة جدًا»، أنا قلتُ.

لوّح رفيقي بيده باستخفاف.

«عظمة الترقوة البشرية منحنية. هذه مستقيمة. يوجد أخدود على سطحها يُظهر أنّ

وترًا كبيرًا كان يمر عبرها، وهو ما لا يمكن أن يكون الحال مع الترقوة».

«يجب أن أعترف إذن أنني لا أعرف ما هي».

«لا داعي لأن تخجل من كشف جهلك، لأنّني لا أعتقد أنّ أحدًا من موظفي جنوب كنسينغتون يمكنهم إعطاء اسم لها».

أخرج عظمة صغيرة بحجم حبة الفاصوليا من علبة حبوب. «بقدر خبرتي، فإن هذه العظمة البشرية هي نظيرة للعظمة التي تحملها في يدك. سيعطيك هذا فكرة عن حجم المخلوق. ستلاحظ من الغضروف أنّ هذه ليست عينة أحفورية، بل حديثة. ماذا تقول عن ذلك؟».

«بالتأكيد في فيل...».

جفل كما لو كان يتألم.

«لا تفعل! لا تتحدث عن الأفيال في أمريكا الجنوبية. حتى في أيام المدارس الداخلية هذه...».

«حسنًا»، قاطعته، «أيّ حيوان كبير في أمريكا الجنوبية... التابير، على سبيل المثال».

«يمكنك أن تفترض، أيها الشاب، أنني على دراية بعناصر عملي. هذه ليستْ عظمة يمكن تصورها لا لحيوان التابير أو لأي مخلوق آخر معروف في علم الحيوان. إنّها تنتمي إلى حيوان كبير جدًا وقوي جدًا، وبكل تشبيه، حيوان شرس جدًا موجود على وجه الأرض، ولكن لم يتم اكتشافه بعد من قبل العلم».

«ما زلتَ غير مقتنع؟».

«إذن، قضيتك ليستْ ميؤوسًا منها. أشعر أنّ هناك سببًا كامنًا فيك في مكان ما، لذا سنبحث عنه بصبر. سنترك الآن الأمريكي الميت ونواصل سرد قصتي. يمكنك أن تتخيل أنني لم أستطع مغادرة الأمازون دون أن أتعمق أكثر في الأمر. كانتْ هناك دلائل تشير إلى الاتجاه الذي جاء منه المسافر الميت. كانتِ الأساطير الهندية وحدها هي دليلي، لأنّني وجدتُ أنّ شائعات عن أرض غريبة كانتْ شائعة بين جميع القبائل النهرية. هل سمعتَ، بلا شك، عن كوروبوري؟».

«أبدًا».

«كوروبوري هو شبح الغابة، شيء فظيع، شيء خبيث، شيء يجب تجنبه. لا أحد يستطيع وصف شكله أو طبيعته، لكنّها كلمة مرعبة على طول الأمازون. الآن تتفق جميع القبائل على الاتجاه الذي يعيش فيه كوروبوري. كان نفس الاتجاه الذي جاء منه الأمريكي. كان هناك شيء فظيع يكمن هناك. كان من واجبي معرفة ما هو».

«ماذا فعلتَ؟» اختفى كل تهكمي. لقد استحوذ هذا الرجل الضخم على انتباه واحترام الناس.

«لقد تغلبتُ على التردد الشديد الذي أبداه السكان الأصليون- وهو التردد الذي يمتد حتى إلى الحديث عن هذا الموضوع- وبفضل الإقناع الحكيم والهدايا، وبمساعدة بعض التهديدات بالإكراه، تمكنتُ من إقناع اثنين منهم بالعمل كمرشدين. وبعد العديد من المغامرات التي لا داعي لوصفها، وبعد السفر لمسافة لن أذكرها، في اتجاه لن أذكره، وصلنا أخيرًا إلى منطقة من البلاد لم يسبق وصفها، ولا حتى زيارتها، إلا من قبل سلفي السيئ الحظ. هل يمكنك أن تتفضل بإلقاء نظرة على هذه؟».

لقد سلّمني صورة فوتوغرافية- بحجم نصف اللوحة.

«إنّ المظهر غير المرضي يرجع إلى حقيقة أنّه عند نزول النهر انقلب القارب وانكسر الصندوق الذي يحتوي على الأفلام الثلاثة والثلاثين غير المطورة، وكانتِ النتائج كارثية. لقد دُمر كل الأفلام تقريبًا بالكامل- وهي خسارة لا يمكن تعويضها. هذا هو أحد الأفلام القليلة التي نجتْ جزئيًا. سوف تقبل هذا التفسير بالخلل والشذوذ. كان هناك حديث عن التزوير. لستُ في مزاج يسمح لي بالجدال في مثل هذه النقطة».

كانتِ الصورة بالتأكيد غير متناسقة الألوان. كان من السهل على أي ناقد غير لطيف أن يسيء تفسير هذا السطح الخافت. كان منظرًا رماديًا باهتًا، وبينما كنتُ أفك رموز تفاصيله تدريجيًا، أدركتُ أنّه يمثل خطًا طويلًا ومرتفعًا للغاية من المنحدرات تمامًا مثل شلال هائل يُرى عن بعد، مع سهل منحدر مغطى بالأشجار في المقدمة.

«أعتقد أنّه نفس المكان الموجود في الصورة المرسومة»، أنا قلتُ.

«إنّه نفس المكان»، أجاب البروفسور. «لقد وجدتُ آثارًا لمعسكر الرجل. انظر الآن إلى هذه».

كانتْ صورة أقرب لنفس المشهد، على الرغم من أنّ الصورة كان فيها عيوب كثيرة. كان بإمكاني أن أرى بوضوح قمة الصخرة المنعزلة المتوجة بالأشجار والتي كانتْ منفصلة عن الجرف.

«ليس لديّ أيّ شك في ذلك على الإطلاق»، أنا قلتُ.

«حسنًا، هذا شيء مكتسب»، قال. «نحن نتقدم، أليس كذلك؟ الآن، هل يمكنك أن تنظر إلى قمة تلك القمة الصخرية؟ هل لاحظتَ شيئًا هناك؟».

«شجرة ضخمة».

«ولكن على الشجرة؟».

«طائر كبير»، قلتُ.

«ناولني عدسة».

«نعم»، قلتُ وأنا أنظر من خلالها، «طائر كبير يقف على الشجرة. يبدو أنّ له منقارًا كبيرًا. أستطيع أن أقول أنّه طائر بجع».

«لا أستطيع أن أهنئك على بصرك»، قال الأستاذ. «إنّه ليس بجعًا، ولا هو طائر بالفعل. قد يهمك أن تعرف أنّني نجحتُ في إطلاق النار على تلك العينة بالذات. لقد كان الدليل المطلق الوحيد على تجاربي التي تمكنتُ من إحضارها معي».

«هل هو معك إذن؟» كان هنا، أخيرًا هناك تأكيد ملموس.

«لقد كان لدي. لكنني فقدته للأسف مع الكثير من الأشياء الأخرى في نفس حادث القارب الذي أفسد صوري. لقد تمسكتُ به بينما كان يختفي في دوامة منحدرات النهر، وبقي جزء من جناحه في يدي. لقد فقدتُ الوعي عندما جرفتني الأمواج إلى الشاطئ، لكن البقايا البائسة من العينة الرائعة التي أملكها كانتْ لا تزال سليمة؛ أضعها الآن أمامك».

أخرج من أحد الأدراج ما بدا لي أنّه الجزء العلوي من جناح خفاش كبير. كان طوله قدمين على الأقل، وعظمة منحنية، مع حجاب غشائي تحته.

«خفاش هائل!» اقترحتُ.

«لا شيء من هذا القبيل»، قال البروفسور بصرامة. «بما أنني أعيش في بيئة علمية مثقفة، فلم يكن بوسعي أن أتصور أنّ المبادئ الأولى لعلم الحيوان كانتْ معروفة قليلًا إلى

هذا الحد. هل من الممكن أنّك لا تعرف الحقيقة الأولية في علم التشريح المقارن، وهي أنّ جناح الطائر هو في الحقيقة الساعد، بينما يتكون جناح الخفاش من ثلاثة أصابع ممدودة بينها أغشية؟ في هذه الحالة، العظم ليس الساعد بالتأكيد، ويمكنك أن ترى بنفسك أنّ هذا غشاء واحد معلق على عظمة واحدة، وبالتالي لا يمكن أن ينتمي إلى خفاش. ولكن إذا لم يكن طائرًا ولا خفاشًا، فما هو؟».

لقد استنفد مخزوني الضئيل من المعرفة.

«أنا حقًا لا أعرف»، قلتْ.

فتح العمل القياسي الذي أشار إليّ به بالفعل.

قال وهو يشير إلى صورة وحش طائر غير عادي: «هذه نسخة طبق الأصل ممتازة من الدايمورفودون، أو البترودكتيل، وهو زاحف طائر من العصر الجوراسي. وفي الصفحة التالية رسم تخطيطي لآلية جناحه. أرجو أن تقارنه بالعينة الموجودة في يدك».

لقد انتابني شعور بالدهشة وأنا أنظر. لقد اقتنعتُ؛ لم يكن هناك مفر من ذلك. لقد كان الدليل التراكمي ساحقًا.

الرسم التخطيطي، والصور، والسرد، والآن العينة الفعلية- لقد كان الدليل كاملًا. لقد قلتُ ذلك- لقد قلتُ ذلك بحرارة؛ لأنّني شعرتُ بأنّ البروفسور رجل سيئ المعاملة. لقد استند إلى ظهر كرسيه بجفون منسدلة وابتسامة متسامحة، مستمتعًا بهذا الوميض المفاجئ من أشعة الشمس.

«إنّه مجرد أكبر شيء سمعتُ به» أنا قلتُ، على الرغم من أنّه كان حماسي العملي وليس حماسي العلمي الذي أثار. «إنّه أمر هائل. أنت كولومبوس للعلوم اكتشفتَ عالمًا ضائعًا.

أنا آسف للغاية إذا بدا لي أن أشك فيك. إنّه شيء لا يمكن تصوره. لكنني أفهم الأدلة عندما أراها، وينبغي أن يكون هذا جيدًا بما يكفي لأي شخص».

خرخر البروفيسور برضى.

«ثم ماذا فعلتَ بعد ذلك يا سيدي؟».

«لقد كان موسم الأمطار، يا سيد مالون، وقد نفدتْ مخزوناتي. استكشفتُ جزءًا من هذا الجرف الضخم، لكنني لم أتمكن من إيجاد أي طريقة لتسلقه. كانتِ الصخرة الهرمية التي رأيتُ عليها الزاحف المجنح وأطلقتُ النار عليه أسهل في الوصول إليها. ولأنني من هواة تسلق الصخور، فقد تمكنتُ من الوصول إلى منتصف الطريق إلى قمة ذلك الجرف. ومن ذلك الارتفاع، كانتْ لدي فكرة أفضل عن الهضبة أعلى الصخور. بدتْ كبيرة جدًا؛ لم أستطع أن أرى نهاية للمناظر الخلابة للجرف الصخري الأخضر لا من الشرق ولا من الغرب. وفي الأسفل، توجد منطقة مستنقعية مليئة بالثعابين والحشرات والحمى. إنّها حماية طبيعية لهذه البلاد الفريدة».

«هل رأيتَ أي أثرًا آخرًا للحياة؟».

«لا يا سيدي، لم أر؛ لكن خلال الأسبوع الذي خيمنا فيه عند قاعدة الجرف سمعنا بعض الأصوات الغريبة جدًا من الأعلى».

«لكن المخلوق الذي رسمه الأمريكي؟ كيف تفسر ذلك؟».

«لا نستطيع إلا أن نفترض أنّه لا بُد وأن يكون قد شق طريقه إلى القمة ورآها هناك. لذا فإنّنا نعلم أنّ هناك طريقًا للصعود. ونعلم أيضًا أنّه لا بُد وأن يكون طريقًا صعبًا للغاية، وإلا لكانتِ المخلوقات قد نزلتْ واجتاحتِ البلاد المحيطة. من المؤكد أنّ هذا

واضح؟».

«ولكن كيف وصلوا إلى هناك؟».

«لا أعتقد أنّ المشكلة غامضة جدًا»، قال البروفسور «لا يمكن أن يكون هناك سوى تفسير واحد. أمريكا الجنوبية هي، كما قد تكون سمعتَ، قارة جرانيتية. في هذه النقطة الوحيدة في الداخل، كان هناك، في بعض العصور البعيدة، ثوران بركاني كبير ومفاجئ. أود أن أشير إلى أنّ هذه الجروف الصخرية هي من البازلت، وبالتالي فهي من الصخور الجوفية. لقد ارتفعتِ منطقة، ربما بحجم ساسكس، كتلة واحدة مع كل محتوياتها الحية، وانقطعتِ بمنحدرات عمودية من صلابة تتحدى التآكل من بقية القارة. ما هي النتيجة؟ لماذا؟ لقد تم تعليق القوانين العادية للطبيعة. تم تحييد أو تغيير جميع الضوابط المختلفة التي تؤثر على الصراع من أجل البقاء في العالم بأسره. بقيتِ المخلوقات التي كانتْ لتختفي لولا ذلك. ستلاحظ أنّ كل من البترودكتيل وستيجوسورس من العصر الجوراسي، وبالتالي من عمر كبير في نظام الحياة. لقد تم الحفاظ عليهما بشكل مصطنع من خلال تلك الظروف العرضية الغريبة».

«لكن من المؤكد أنّ شهادتك قاطعة. ما عليك إلّا أن تعرضها على السلطات المختصة».

«لقد تخيلتَ ذلك في بساطتي»، قال البروفسور بمرارة. «لا أستطيع إلا أن أخبرك أنّ الأمر لم يكن كذلك، فقد قوبلتُ في كل منعطف بعدم التصديق، الذي ولد جزئيًا من الغباء وجزئيًا من الغيرة. ليس من طبيعتي، سيدي، أن أتراجع أمام أي رجل، أو أسعى لإثبات حقيقة إذا شكك أحد في كلامي. بعد المرة الأولى لم أتنازل لإظهار مثل هذه الأدلة الداعمة التي أملكها. أصبح الموضوع مكروهًا بالنسبة لي- لن أتحدث عنه. عندما جاء

رجال مثلك، الذين يمثلون فضول الجمهور الأحمق، لإزعاج خصوصيتي، لم أتمكن من مقابلتهم بحذر كريم. أعترف أنّ طبيعتي نارية إلى حد ما، وتحت الاستفزاز أميل إلى العنف. أخشى أن تكون قد لاحظتِ ذلك».

مسحتُ عيني وصمتُّ.

«لقد احتجتْ زوجتي معي مرارًا وتكرارًا بشأن هذا الموضوع، ومع ذلك أتصور أنّ أي رجل شريف قد يشعر بنفس الشعور. ومع ذلك، أقترح الليلة أن أعطي مثالًا متطرفًا للسيطرة على الإرادة لا على العواطف. أدعوك للحضور في المعرض». سلمني بطاقة من مكتبه. «ستلاحظ أنّ السيد بيرسيفال والدرون، عالم الطبيعة ذو السمعة الشعبية، قد أعلن أن يلقي محاضرة في الساعة الثامنة والنصف في قاعة معهد علم الحيوان حول (سجل العصور). لقد دُعيتُ خصيصًا للحضور على المنصة، ولإلقاء كلمة شكر للمحاضر. وفي أثناء ذلك، سأحرص على إلقاء بعض الملاحظات التي قد تثير اهتمام الحضور وتدفع بعضهم إلى الرغبة في الخوض في الموضوع بعمق أكبر. لا شيء مثير للجدال، كما تعلم، ولكنها مجرد إشارة إلى وجود أعماق أعظم وراء ذلك. سأمسك بنفسي بقوة، وأرى ما إذا كان هذا الضبط الذاتي من شأنه أن يحقق نتيجة ملاءمة أكثر».

«وهل يمكنني الحضور؟» سألتُ بلهفة.

«حسنًا، بالتأكيد»، أجاب بود. كان يتمتع بأسلوب ودود هائل، وكان طاغيًا تقريبًا مثل عنفه. كانتِ ابتسامته الطيبة شيئًا رائعًا، عندما يتجمع خديه فجأة في تفاحتين حمراوين، بين عينيه نصف المغلقتين ولحيته السوداء الضخمة. «بكل تأكيد، تعال. سيكون من دواعي سروري أن أعرف أنّ لدي حليفًا واحدًا في القاعة، مهما كان غير كفء وجاهلًا بالموضوع. أتخيل أنّ الجمهور سيكون كبيرًا، لأنّ والدون، على الرغم من

كونه محتالًا جدًا، فإن لديه أتباعًا شعبيين كثيرين. الآن، يا سيد مالون، لقد أعطيتك وقتًا أطول مما كنتُ أقصد. لا ينبغي للفرد أن يحتكر ما هو مخصص للعالم. سأكون سعيدًا برؤيتك في المحاضرة الليلة. في هذه الأثناء، ستفهم أنّه لا يجوز استخدام أي من المواد التي أعطيتك إياها علنًا».

«لكن السيد ماكاردل- محرر الأخبار الخاص بي، كما تعلم- سيرغب في معرفة ما فعلته».

«أخبره بما تريد. يمكنك أن تقول، من بين أمور أخرى، أنّه إذا أرسل أي شخص آخر للتطفل عليّ فسأستدعيه بسوط. لكنني أترك لك أنّ لا شيء من كل هذا يظهر في المطبوعات. جيد جدًا. ثم قاعة معهد علم الحيوان في الثامنة والنصف الليلة». كان لديّ انطباع أخير عن الخدين المحمرين واللحية الزرقاء المتموجة والعينين المتعصبتين، عندما أشار لي بالخروج من الغرفة.

الفصل الخامس

سؤال

بسبب الصدمات الجسدية التي لحقتْ بي أثناء مقابلتي الأولى مع البروفيسور (تشالنجر) والصدمات النفسية التي رافقتِ المقابلة الثانية، فقد شعرتُ بالإحباط بعض الشيء عندما وجدتُ نفسي في إنمور بارك مرة أخرى. وفي رأسي المؤلم كانتِ الفكرة تنبض بأنّ قصة هذا الرجل حقيقية حقًا، وأنّها ذات أهمية هائلة، وأنّها سوف تتحول إلى نسخة لا يمكن تخيلها للجريدة الرسمية عندما أحصل على إذن لاستخدامها. كانتْ هناك سيارة أجرة تنتظرني في نهاية الطريق، لذا ذهبتُ إليها وتوجهتُ إلى المكتب. كان (ماكاردل) في مكتبه كالمعتاد.

«حسنًا»، صاح منتظرًا، «إلى أين قد تتجه؟ أنا أفكر أيّها الشاب أنّك كنت في الحرب. لا تخبرني أنّه اعتدى عليك».

«لقد كان بيننا اختلاف بسيط في البداية».

«يا له من رجل! ماذا فعلت؟».

«حسنًا، أصبح أكثر عقلانية وتبادلنا أطراف الحديث. لكنني لم أحصل على أي شيء منه- أي شيء للنشر».

«لستُ متأكدًا من ذلك. لقد أُصبتَ بكدمة في عينك، وهذا للنشر. لا يمكننا أن نسمح لهذا الحكم الإرهابي يا سيد مالون. يجب أن نعيد الرجل إلى مكانه. سأقوم بنشر مقالة لاذعة عنه غدًا. أعطني المادة فقط وسأتعهد بوصم الرجل إلى الأبد. بروفسور مونشهاوزن- ما

رأيك في هذا العنوان؟ السير جون ماندیفيلي ريديفيفوس- كاجليوسترو- كل المحتالين والمتنمرين في التاريخ. سأكشف احتياله».

«لن أفعل ذلك يا سيدي».

«لِمَ لا؟».

«لأنّه ليس محتالًا على الإطلاق».

«ماذا!» زأر (ماكاردل). «ألا تقصد أنك تؤمن حقًا بهذه الأشياء التي يقولها عن الماموث والماستودون والثعابين البحرية الضخمة؟».

«حسنًا، لا أعرف شيئًا عن هذا الأمر. لا أعتقد أنّه يزعم أي شيء من هذا القبيل. ولكنني أعتقد أنّه توصل إلى شيء جديد».

«إذن، من أجل الله، يا رجل، اكتب ذلك!».

«أشتاق إلى ذلك، ولكن كل ما أعرفه أنّ ما أعطاني إياه سرًا وشرَط ألا أفعل ذلك». لقد اختصرتُ رواية البروفيسور في بضع جمل. «هكذا هو الحال».

بدا (ماكاردل) في حالة من عدم التصديق العميق.

«حسنًا، سيد مالون»، قال أخيرًا، «عن هذا الاجتماع العلمي الليلة؛ لا يمكن أن يكون هناك خصوصية بشأن ذلك، على أي حال. لا أعتقد أنّ أي صحيفة تريد الإبلاغ عنه، لأنّ والدرون تم الإبلاغ عنه بالفعل عشرات المرات، ولا أحد يعلم أنّ تشالنجر سيتحدث. قد نحصل على سبق صحفي، إذا كنّا محظوظين. ستكون هناك على أيّ حال، لذا ستقدم لنا تقريرًا كاملًا إلى حد ما. سأحتفظ بالمساحة حتى منتصف الليل».

كان يومي حافلًا بالأحداث، وتناولتُ عشاءً مبكرًا في نادي سافاج مع (تارب هنري)، الذي رويتُ له بعض مغامراتي. استمع بابتسامة متشككة على وجهه الشاحب، وضحك بصوت عالٍ عندما سمع أنّ البروفسور أقنعني.

«يا صديقي العزيز، لا تحدث الأشياء بهذه الطريقة في الحياة الواقعية. لا يتعثر الناس في اكتشافات هائلة ثم يفقدون أدلتهم. دع هذا الأمر للروائيين. الرجل مليء بالحيل مثل بيت القرد في حديقة الحيوان. كل شيء هراء».

«ولكن الشاعر الأمريكي؟».

«ليس له أي وجود أبدًا».

«رأيتُ دفتر الرسم الخاص به».

«دفتر رسم تشالنجر».

«هل تعتقد أنّه رسم هذا الحيوان؟».

«بالطبع فعل. من غيره؟».

«حسنًا، والصور؟».

«لم يكن هناك شيء في الصور. باعترافك الشخصي، لم تر سوى طائر».

«طائر مجنح».

«هذا ما قاله. لقد زرع طائر مجنح في رأسك».

«حسنًا، إذن والعظام؟».

«الأولى من الحساء الأيرلندي. والثانية منقحة خصيصًا لهذه المناسبة. إذا كنتَ ذكيًا وتعرف عملك جيدًا، فيمكنك تزييف العظام بسهولة كما يمكنك تزييف الصورة».

بدأتُ أشعر بعدم الارتياح. ربما، بعد كل شيء، كنتُ متسرعًا في موافقتي .ثم خطرتْ لي فجأة فكرة سعيدة.

«هل ستحضر الاجتماع؟» سألته.

بدا (تارب هنري) متأملًا.

«إنّه ليس شخصًا محبوبًا، تشالنجر اللطيف»، قال. «الكثير من الناس لديهم حسابات لتسويتها معه. يجب أن أقول أنّه أكثر رجل مكروه في لندن. إذا خرج طلاب الطب، فلن يكون هناك نهاية للفوضى. لا أريد أن أدخل حديقة الدببة».

«ربما يكون من العدل أن تسمعه يروي قضيته بنفسه على الأقل».

«حسنًا، ربما يكون هذا عادلًا. حسنًا. أنا رجلك في المساء».

عندما وصلنا إلى القاعة وجدنا جمهورًا أكبر بكثير مما كنتُ أتوقع .صف من العربات الكهربائية كانتْ تفرغ حمولتها الصغيرة من الأساتذة ذوي اللحى البيضاء، بينما أظهر التيار المظلم من المشاة الأكثر تواضعًا، الذين تزاحموا عند المدخل المقوس، أنّ الجمهور سيكون شعبيًا وعلميًا. والواقع أنّه أصبح من الواضح لنا بمجرد أن جلسنا على مقاعدنا أنّ روحًا شابة وحتى صبيانية كانتْ في الخارج في المعرض والأجزاء الخلفية من القاعة. بالنظر خلفي، كان بإمكاني أن أرى صفوفًا من الوجوه من نوع طلاب الطب المألوفين .يبدو أنّ المستشفيات الكبرى قد أرسلتْ كل منها فريقها. كان سلوك الجمهور في الوقت الحالي مرحًا، لكنه شقي .وقد تم ترديد مقاطع من الأغاني الشعبية بحماس، وهو ما كان

بمثابة مقدمة غريبة لمحاضرة علمية، وكان هناك بالفعل ميل إلى التفاهات الشخصية التي وعدتْ بأمسية مرحة للآخرين، مهما كانتْ محرجة لمتلقي كل هذا التكريم المشكوك فيه.

وهكذا، عندما ظهر الدكتور (ميلدروم) العجوز، بقبعته الأوبرا الشهيرة ذات الحواف المجعدة، على المنصة، كان هناك سؤال عام «من أين حصلتَ على هذه القبعة؟»، لدرجة أنّه خلعها على عجل وأخفاها خلسة تحت كرسيه. وعندما نزل البروفيسور (وادلي) المصاب بالنقرس إلى مقعده، كانتْ هناك استفسارات عامة محببة من جميع أنحاء القاعة حول الحالة الدقيقة لإصبع قدمه المسكين، مما تسبب له في إحراج واضح. ومع ذلك، كانتِ المظاهرة الكبرى لدى دخول صديقي الجديد، البروفيسور (تشالنجر)، عندما مر ليأخذ مكانه في الطرف الأقصى من الصف الأمامي من المنصة. انطلقتْ صيحة ترحيب عندما برزتْ لحيته السوداء لأول مرة حول الزاوية، لدرجة أنني بدأتُ أشك في أنّ (تارب هنري) كان محقًا في تخمينه، وأنّ هذا التجمع لم يكن هناك لمجرد المحاضرة، ولكن لأنّه كانتْ هناك شائعات في الخارج بأنّ البروفيسور الشهير سيشارك في الإجراءات.

كان هناك بعض الضحك المتعاطف عند دخوله بين المقاعد الأمامية للمتفرجين الذين كانوا يرتدون ملابس أنيقة، وكأنّ مظاهرة الطلاب في هذه الحالة لم تكن غير مرغوب فيها بالنسبة لهم. كانتْ تلك التحية، في الواقع، انفجارًا مخيفًا للصوت، ضجيج قفص آكلات اللحوم عندما يُسمع صوت خطوات الحارس الذي يحمل الدلو من بعد. ربما كانتْ هناك نبرة مسيئة في ذلك، ومع ذلك فقد بدتْ لي في الأساس مجرد صرخة صاخبة، استقبال صاخب لشخص يسليهم ويهتم بهم، وليس شخصًا يكرهونه أو يحتقرونه. ابتسم (تشالنجر) بازدراء متعب ومتسامح، كما يفعل الرجل الطيب مع نباح مجموعة من الجراء. جلس ببطء، ونفخ صدره، ومرر يده بلطف على لحيته، ونظر بجفون منسدلة وعيون متغطرسة إلى القاعة المزدحمة أمامه. لم تختف ضجة قدومه بعد عندما شق

البروفسور (رونالد موراي)، رئيس الجلسة، والسيد (والدرون)، المحاضر، طريقهما إلى المقدمة، وبدأتِ الإجراءات.

أنا متأكد من أنّ الأستاذ (موراي) سيعذرني إذا قلتُ أنّه يعاني من خطأ مشترك بين معظم الإنجليز وهو أنّه غير مسموع. لماذا لا يبذل الأشخاص الذين لديهم شيء يستحق الاستماع إليه القليل من الجهد لتعلم كيفية جعله مسموعًا؟ هذا هو أحد الألغاز الغريبة في الحياة الحديثة.

إنّ أساليبهم معقولة إلى حد محاولة سكب بعض المواد الثمينة من النبع إلى الخزان من خلال أنبوب غير موصل، والذي يمكن فتحه بجهد بسيط. ألقى البروفيسور (موراي) عدة ملاحظات عميقة على ربطة عنقه البيضاء وإبريق الماء على الطاولة، مع طرفة عين هزلية جانبية للشمعدان الفضي على يمينه. ثم جلس، وقام السيد (والدرون)، المحاضر الشعبي الشهير، وسط همهمة عامة من التصفيق. كان رجلًا صارمًا نحيفًا، بصوت أجش، وطريقة عدوانية، لكنّه كان يتمتع بميزة معرفة كيفية استيعاب أفكار الناس الآخرين، ونقلها بطريقة مفهومة وحتى مثيرة للاهتمام لعامة الناس، مع براعة في أن يكون مضحكًا بشأن أكثر الأشياء بغضًا، بحيث أصبح الاعتدال الربيعي أو بنية الفقاريات عملية فكاهية للغاية كما تعامل معها.

لقد كان مشهدًا للخلق من أعلى السماء كما فسره العلم، وقد عرضه علينا بلغة واضحة دومًا وخلابة في بعض الأحيان. لقد أخبرنا عن الكرة الأرضية، وهي كتلة ضخمة من الغاز المشتعل، تتوهج في السماء. ثم صور التصلب، والتبريد، والتجعد الذي شكل الجبال، والبخار الذي تحول إلى ماء، والإعداد البطيء للمسرح الذي سوف تُعرض عليه الدراما الغامضة للحياة. أما عن أصل الحياة فقد كان غامضًا إلى حد ما. وأعلن أنّ

جراثيم الحياة لم تكن لتنجو من التحميص الأصلي. وبالتالي فقد جاءتِ الحياة في وقت لاحق. فهل بنَتْ نفسها من العناصر غير العضوية المبردة للكرة الأرضية؟ هذا محتمل للغاية. وهل وصلتْ جراثيم الحياة من الخارج على نيزك؟ هذا أمر لا يمكن تصوره. وعلى العموم فإنّ أكثر الناس حكمة هو الأقل تعصبًا في هذه النقطة. فنحن لا نستطيع- أو على الأقل لم ننجح حتى الآن في صنع حياة عضوية في مختبراتنا من مواد غير عضوية. إنّ الفجوة بين الموتى والأحياء لم تكن قادرة على سدها كيمياؤُنا بعد. ولكن هناك كيمياء أعلى وأكثر دقة للطبيعة، والتي تعمل بقوى عظيمة على مدى عصور طويلة، قد تنتج نتائج مستحيلة بالنسبة لنا. وهنا يجب ترك الأمر.

وهذا قاد المحاضر إلى سلم الحياة الحيوانية العظيم، بدءًا من الرخويات والكائنات البحرية الضعيفة، صعودًا درجة تلو الأخرى عبر الزواحف والأسماك، حتى وصلنا أخيرًا إلى فأر الكنغر، وهو مخلوق يلد صغاره أحياء، وهو السلف المباشر لجميع الثدييات، بالتالي لجميع الحاضرين. («لا، لا» من طالب متشكك في الصف الخلفي). إذا كان الشاب ذو الربطة الحمراء الذي صاح «لا، لا»، والذي يُفترض أنّه فقس من بيضة، سينتظره بعد المحاضرة، فسوف يسعد برؤية مثل هذا الفضول. (ضحك) كان من الغريب أن نتصور أنّ ذروة كل عملية الطبيعة التي استمرتْ قرونًا كانتْ خلق ذلك الرجل الذي يرتدي ربطة عنق حمراء. ولكن هل توقفتِ العملية؟ هل نعتبر هذا الرجل النموذج النهائي- كل شيء في التطور؟ كان يأمل ألا يجرح مشاعر الرجل الذي يرتدي ربطة عنق حمراء إذا ما زعم أنّ العمليات الهائلة التي يشهدها الكون، مهما كانتِ الفضائل التي قد يتمتع بها ذلك الرجل في حياته الخاصة، لا يمكن تبريرها بالكامل إذا ما انتهتْ إلى إنتاجه بالكامل. إنّ التطور ليس قوة مستنفدة، بل قوة لا تزال تعمل، وهناك إنجازات أعظم تنتظرنا.

بعد أن لعب المحاضر على نحو جميل مع مقاطعه، وسط ضحكة عامة، عاد إلى وصف الماضي، جفاف البحار، وظهور الرمال، والحياة البطيئة اللزجة التي كانتْ تطفو على هوامشها، والبحيرات المكتظة، وميل الكائنات البحرية إلى اللجوء إلى السهول الطينية، ووفرة الطعام التي تنتظرها، ونموها الهائل الناتج عن ذلك. وأضاف: «ومن هنا، أيها السيدات والسادة، تلك السلالة المخيفة من الديناصورات التي لا تزال تخيف أعيننا عندما نراها في ويلدن أو في صخور سولينهوفن، ولكنها انقرضتْ لحسن الحظ قبل وقت طويل من ظهور البشر لأول مرة على هذا الكوكب».

«سؤال!» دوى صوت من المنصة.

كان السيد (والدرون) منضبطًا صارمًا يتمتع بموهبة الفكاهة اللاذعة، التي تجلتْ في الرجل الذي يرتدي ربطة عنق حمراء، مما جعل مقاطعته أمرًا محفوفًا بالمخاطر .ولكن هذه المداخلة بدتْ له سخيفة إلى الحد الذي جعله يعجز عن التعامل معها .هكذا يبدو (شكسبير) الذي يواجهه (بيكوني) فاسد، أو عالم الفلك الذي يهاجمه متعصب يؤمن بأنّ الأرض مسطحة. توقف للحظة، ثم رفع صوته، وكرر ببطء الكلمات: «والتي انقرضتْ قبل مجيء الإنسان».

«سؤال!» صاح الصوت مرة أخرى.

نظر (والدرون) بدهشة على طول صف الأساتذة على المنصة حتى وقعتْ عيناه على شخصية (تشالنجر)، الذي استند إلى الوراء في كرسيه بعينين مغمضتين وتعبير مسلٍ، وكأنّه يبتسم في نومه.

«أرى!» قال (والدرون)، وهو يهز كتفيه. «إنّه صديقي الأستاذ تشالنجر»، ووسط الضحك جدد محاضرته وكأنّ هذا كان شرحًا نهائيًا ولا حاجة لقول المزيد.

لكن الحادثة كانت بعيدة عن الانتهاء. فأيًا كان المسار الذي سلكه المحاضر وسط براري الماضي بدا أنّه يقوده دائمًا إلى بعض التأكيدات حول الحياة المنقرضة أو ما قبل التاريخ والتي جلبتْ على الفور نفس زئير الثيران من البروفسور. بدأ الجمهور في توقع ذلك والزئير بسرور عندما جاء. فالمقاعد المزدحمة بالطلاب، وفي كل مرة تفتح لحية (تشالنجر) قبل أن يخرج أي صوت، كانتْ هناك صرخة «سؤال!» من مائة صوت، وصرخة مضادة «نظام!» و«عار!» من العديد من الأصوات الأخرى. ورغم أنّ (والدرون) كان محاضرًا متمرسًا ورجلًا قويًا، فقد شعر بالانزعاج. تردد وتلعثم وكرر ما قاله، ثم زأر في جملة طويلة، ثم استدار في النهاية بغضب إلى سبب مشاكله.

«هذا أمر لا يطاق حقًا!» صاح وهو يحدق عبر المنصة. «يجب أن أطلب منك، أستاذ تشالنجر، أن تكف عن هذه المقاطعات الجاهلة وغير المهذبة».

ساد الصمت القاعة، وتصلب الطلاب من شدة البهجة لرؤية الآلهة العليا على جبل أوليمبوس يتشاجرون فيما بينهم. رفع (تشالنجر) جسده الضخم ببطء من مقعده.

«يجب أن أطلب منك بدوري، سيد والدرون، أن تكف عن الإدلاء بتصريحات لا تتفق تمامًا مع الحقائق العلمية».

أطلقتِ الكلمات عاصفة. «عار! عار!»، «استمعوا إليه!»، «أخرجوه!»، «ادفعوه عن المنصة!»، «مسرحية جميلة!» خرجتْ من هدير عام من المرح أو اللعن. كان الرئيس واقفًا على قدميه يلوح بكلتا يديه ويصيح بحماس .«البروفيسور تشالنجر- وجهات نظر شخصية- لاحقًا»، كانتِ القمم الصلبة فوق سحب الهمهمات غير المسموعة .انحنى المقاطِع وابتسم ومسح لحيته وعاد إلى كرسيه. واصل (والدرون) ملاحظاته، وهو محمر الوجه ومحاربًا. بين الحين والآخر، بينما كان يؤكد على شيء ما، كان يوجه نظرة سامة إلى

خصمه، الذي بدا وكأنه نائم بعمق، بنفس الابتسامة العريضة السعيدة على وجهه.

أخيرًا، انتهتِ المحاضرة- وأنا أميل إلى الاعتقاد بأنّها كانتْ محاضرة سابقة لأوانها، لأنّ الخطاب كان متسرعًا وغير مترابط. فقد انقطع خيط المناقشة فجأة، وكان الحضور قلقين ومترقبين. جلس (والدرون)، وبعد صرخة من رئيس الجلسة، نهض البروفيسور تشالنجر وتقدم إلى حافة المنصة. ومن أجل مصلحة بحثي، كتبتُ خطابه حرفيًا.

«سيداتي وسادتي»، بدأ، وسط مقاطعة مستمرة من الخلف. «أرجو المعذرة- سيداتي وسادتي وأطفالي- يجب أن أعتذر، لقد أغفلتُ عن غير قصد قسمًا كبيرًا من هذا الجمهور». (الضجيج، الذي وقف خلاله الأستاذ بيده مرفوعة ورأسه الضخم يهز بتعاطف، وكأنّه يمنح نعمة بابوية للحشد)، «لقد تم اختياري لتقديم تصويت الشكر للسيد والدرون على الخطاب الخلاب والخيالي الذي استمعنا إليه للتو. هناك نقاط فيه لا أتفق معها، وكان من واجبي الإشارة إليها عند ظهورها، ولكن، على الرغم من ذلك، حقق السيد والدرون هدفه جيدًا، وهو تقديم سرد بسيط ومثير للاهتمام لما يعتقد أنّه كان تاريخ كوكبنا. من الأسهل الاستماع إلى المحاضرات الشعبية، لكن السيد والدرون» (هنا أشرق وجهه وأومأ برأسه للمحاضر) «سيعذرني عندما أقول إنها سطحية ومضللة بالضرورة؛ حيث يجب تصنيفها وفقًا لمستوى (فهم جمهور جاهل)». (هتاف ساخرًا). «المحاضرون الشعبيون طفيليون بطبيعتهم». (لفتة احتجاج غاضبة من السيد والدرون). «إنّهم يستغلون من أجل الشهرة أو المال العمل الذي قام به إخوانهم الفقراء والمجهولين. إنّ أصغر حقيقة جديدة يتم الحصول عليها في المختبر، أو لبنة واحدة مبنية في معبد العلم، تفوق بكثير أي عرض مستعمل يمر بساعة فراغ، لكنّه لا يمكن أن يترك وراءه نتيجة مفيدة. أطرح هذا التأمل الواضح، ليس من باب الرغبة في التقليل من شأن السيد والدرون على وجه الخصوص، ولكن حتى لا تفقد حس التناسب وتخطئ بين مساعد الكاهن ورئيس

الكهنة». (عند هذه النقطة همس السيد والدرون للرئيس، الذي نهض قليلًا وقال شيئًا قاسيًا للساقي الخاص به). «لكن كفى من هذا! دعوني أنتقل إلى موضوع أكثر أهمية. ما هي النقطة المحددة التي تحديتُ فيها، بصفتي باحثًا أصليًا، دقة محاضرنا؟ إنّها تتعلق باستمرار أنواع معينة من الحياة الحيوانية على الأرض. أنا لا أتحدث عن هذا الموضوع كهاوٍ، ولا يمكنني أن أضيف، كمحاضر شعبي، ولكنني أتحدث كشخص يفرض عليه ضميره العلمي الالتزام الوثيق بالحقائق، عندما أقول أنّ السيد والدرون مخطئ تمامًا في افتراضه لأنّه لم ير قط حيوانًا من ما قبل التاريخ، فإن هذه المخلوقات لم تعد موجودة. إنّهم بالفعل، كما قال، أسلافنا، لكنهم، إذا جاز لي استخدام التعبير، أسلافنا المعاصرون، الذين لا يزال من الممكن العثور عليهم بكل خصائصهم البشعة والهائلة إذا كان لدى المرء الطاقة والشجاعة للبحث عن ملاجئهم. المخلوقات التي كان من المفترض أن تكون من العصر الجوراسي، الوحوش التي كانت تصطاد وتلتهم أكبر الثدييات وأكثرها ضراوة، لا تزال موجودة». (صيحات «بوش!»، «أثبت ذلك!»، «كيف عرفت؟»، «سؤال!»). «كيف عرفت، تسألني؟ أعرف لأنني زرتُ أماكنهم السرية. أعرف لأنني رأيتُ بعضهم». (تصفيق، ضجة، وصوت «كاذب!»). «هل أنا كاذب؟». (موافقة عامة قوية وصاخبة). «هل سمعتُ شخصًا يقول إنني كاذب؟ هل يتفضل الشخص الذي وصفني بالكاذب بالوقوف حتى أتمكن من التعرف عليه؟». (صوت «ها هو، سيدي!» وشخص صغير غير مؤذٍ يرتدي نظارة، يكافح بعنف، تم رفعه بين مجموعة من الطلاب). «هل تجرأت على وصفي بالكاذب؟». («لا، سيدي، لا!» صاح المتهم، واختفى مثل لعبة جاك في الصندوق). «إذا تجرأ أي شخص في هذه القاعة على الشك في صدقي، فسأكون سعيدًا بتبادل بضع كلمات معه بعد المحاضرة». («كاذب!»). «من قال ذلك؟». (مرة أخرى، سقط الشخص غير المؤذي في حالة من اليأس، ثم ارتفع عاليًا في الهواء). «إذا نزلت

بينكم...». (عاصفة تصفيق عامة من «تعال يا حبيبي، تعال!» والتي قاطعتِ الإجراءات لبعض الوقت، بينما كان الرئيس، واقفًا ويلوح بذراعيه، يبدو وكأنّه يقود الموسيقى. كان البروفسور، بوجهه المحمر، ومنخريه المتوسعين، ولحيته المنتصبة، في مزاج جنوني). «لقد قوبل كل مكتشف عظيم بنفس عدم التصديق- العلامة التجارية المؤكدة لجيل من الحمقى. عندما تُعرض عليك الحقائق العظيمة، فلن يكون لديك الحدس والخيال الذي سيساعدك على فهمها. لا يمكنك إلا أن ترمي الطين على الرجال الذين خاطروا بحياتهم لفتح مجالات جديدة للعلم. أنت تضطهد الأنبياء! جاليليو! داروين، وأنا...» (هتاف مطول ومقاطعة كاملة).

كل هذا من ملاحظاتي المتعجلة التي دونتها في ذلك الوقت، والتي لا تعطي فكرة كبيرة عن الفوضى المطلقة التي انحدر إليها التجمع بحلول هذا الوقت. كان الصخب هائلًا لدرجة أنّ العديد من السيدات قد تراجعن على عجل بالفعل. بدا أنّ كبار السن المهذبين والموقرين قد تأثروا بالروح السائدة بشدة مثل الطلاب، ورأيت رجالًا ذوي لحى بيضاء يقفون ويلوحون بقبضاتهم في وجه البروفسور العنيد. كان الجمهور الكبير بأكمله يغلي ويغلي مثل قدر يغلي. اتخذ البروفسور خطوة إلى الأمام ورفع كلتا يديه. كان هناك شيء كبير ومثير ورجولي في الرجل لدرجة أنّ الضجيج والصراخ تلاشى تدريجيًا أمام لفتته الآمرة وعينيه الماهرتين. بدا وكأنّه يحمل رسالة محددة. سكتوا لسماعها.

«لن أحتجزكم»، قال. «الأمر لا يستحق ذلك». «إنّ الحقيقة هي الحقيقة، ولا يمكن لضجيج عدد من الشباب الأغبياء- وأخشى أن أضيف أنّ ضجيج كبار السن الأغبياء أيضًا- أن يؤثر على الأمر. أزعم أنني فتحتُ مجالًا جديدًا من العلوم. وأنتم تجادلونه». (هتافات). «إذن سأضعكم تحت الاختبار ..هل ستعتمدون واحدًا أو أكثر من أفراد مجموعتكم ليخرجوا كممثلين لكم ويختبروا بياني باسمكم؟».

وقف السيد (سمرلي)، البروفسور المخضرم في علم التشريح المقارن، بين الحضور، إنّه رجل طويل ونحيف ومرير، ذو مظهر ذابل لرجل دين. وقال أنّه يرغب في سؤال البروفسور (تشالنجر) عمّا إذا كانتِ النتائج التي أشار إليها في ملاحظاته قد تم الحصول عليها أثناء رحلة إلى منابع الأمازون قام بها قبل عامين.

أجاب البروفيسور (تشالنجر) أنّها قد تم الحصول عليها.

أراد السيد (سمرلي) أن يعرف كيف ادعى البروفيسور (تشالنجر) أنّه حقق اكتشافات في تلك المناطق التي تجاهلها والاس وبيتس وغيرهما من المستكشفين السابقين ذوي السمعة العلمية الراسخة.

أجاب البروفيسور (تشالنجر) أنّ السيد (سمرلي) بدا وكأنّه يخلط بين الأمازون ونهر التيمز؛ وأنّه في الواقع نهر أكبر إلى حد ما؛ وأنّ السيد (سمرلي) قد يكون مهتمًا بمعرفة أنّه مع نهر أورينوكو، الذي أبلغ عنه، فإن حوالي خمسين ألف ميلًا من الأراضي تم اكتشافها. وفي مثل هذه المساحة الشاسعة لم يكن من المستحيل على شخص أن يجد ما فاته شخص آخر.

أعلن السيد (سمرلي)، بابتسامة لاذعة، أنّه يدرك تمامًا الفرق بين نهر التيمز والأمازون، والذي يكمن في حقيقة أنّ أي تأكيد بشأن الأول يمكن اختباره، بينما لا يمكن اختبار الثاني. سيكون ممتنًا إذا قدم البروفسور (تشالنجر) خط العرض وخط الطول للبلد الذي توجد فيه حيوانات ما قبل التاريخ.

أجاب الأستاذ (تشالنجر) أنّه يحتفظ بمثل هذه المعلومات لأسباب وجيهة خاصة به، لكنّه مستعد لتقديمها مع الاحتياطات المناسبة للجنة مختارة من الجمهور. فهل يقدم السيد (سمرلي) مثل هذه اللجنة ويختبر قصته شخصيًا؟

أجاب السيد (سمرلي): «نعم، سأفعل». (هتاف كبير).

البروفسور (تشالنجر): «أضمن لك أنني سأضع بين يديك المواد التي ستمكنك من إيجاد طريقك. ومع ذلك، فمن الصواب، بما أنّ السيد سمرلي سيتحقق من بياني، أن يكون معي شخص أو أكثر يمكنه التحقق من بيانه. لن أخفي عنك أنّ هناك صعوبات ومخاطر. سيحتاج السيد (سمرلي) إلى زميل أصغر سنًا. هل يمكنني أن أطلب متطوعين؟».

وهكذا تظهر الأزمة الكبرى في حياة الرجل. هل كنتُ لأتخيل عندما دخلتُ تلك القاعة أنني على وشك أن أتعهد بنفسي بمغامرة أكثر جرأة مما حدث لي في أحلامي؟ لكن (جلاديس)- أليستْ هذه هي الفرصة التي تحدثتْ عنها؟ كانتْ (جلاديس) لتخبرني بالذهاب. لقد قفزتُ على قدمي. كنتُ أتحدث، ومع ذلك لم أستعد لأيّ كلمات. كان رفيقي (تارب هنري) ينزع ذيل سترتي، وسمعته يهمس: «اجلس يا مالون! لا تجعل من نفسك أضحوكة أمام الناس». وفي الوقت نفسه، أدركتُ أنّ رجلًا طويل القامة ونحيفًا، بشعر أحمر داكن، كان يجلس أمامي ببضعة مقاعد، وكان واقفًا أيضًا. حدق فيّ بنظرات غاضبة قاسية، لكنني رفضتُ الاستسلام.

«سأذهب يا سيدي الرئيس»، ظللتُ أردد مرارًا وتكرارًا.

«اسم! اسم! » صاح الجمهور.

«اسمي إدوارد دان مالون. أنا مراسل جريدة ديلي جازيت. وأزعم أنني شاهد غير متحيز على الإطلاق».

«ما اسمك يا سيدي؟» سأل الرئيس منافسي الطويل.

«أنا اللورد جون روكستون. لقد سافرتُ بالفعل إلى الأمازون، وأعرف كل الأرض،

ولدي مؤهلات خاصة لهذا التحقيق».

«سمعة اللورد جون روكستون كرجل رياضي ومسافر، بالطبع، مشهورة عالميًا»، قال الرئيس؛ »في نفس الوقت سيكون من الأفضل بالتأكيد أن يكون هناك عضو من الصحافة في مثل هذه الرحلة الاستكشافية».

«ثم أقترح»، قال البروفسور (تشالنجر)، «أن يتم انتخاب هذين السيدين، كممثلين لهذا الاجتماع، لمرافقة البروفسور سمرلي في رحلته للتحقيق والإبلاغ عن حقيقة تصريحاتي».

وهكذا، وسط الصراخ والهتاف، تقرر مصيرنا، ووجدتُ نفسي محمولًا بعيدًا في التيار البشري الذي كان يدور نحو الباب، وعقلي مذهول إلى حد ما من المشروع الجديد الضخم الذي ارتفع فجأة أمامه .وعندما خرجتُ من القاعة، كنتُ واعيًا للحظة بتدفق الطلاب الضاحكين- على الرصيف، وذراع تحمل مظلة ثقيلة، ارتفعتُ وهبطتُ في وسطهم. ثم، وسط مزيج من الآهات والهتافات، انزلقتْ عربة البروفسور (تشالنجر) الكهربائية من الرصيف، ووجدتُ نفسي أسير تحت الأضواء الفضية لشارع ريجنت، مليئًا بأفكار (جلاديس) والعجب بشأن مستقبلي.

وفجأة، كانتْ هناك لمسة عند مرفقي. استدرتُ، ووجدتُ نفسي أنظر إلى العيون المرحة والماهرة للرجل الطويل النحيف الذي تطوع ليكون رفيقي في هذه المهمة الغريبة.

«السيد مالون، أفهم ذلك»، قال. «سنكون رفقاء، غرفتي تقع على الطريق مباشرة، في ألباني. ربما يكون من اللطيف أن تمنحني نصف ساعة، لأنّ هناك شيئًا أو اثنين أريد أن أقولهما لك بشدة».

الفصل السادس

كنت سوط الرب

انعطفتُ أنا واللورد (جون روكستون) معًا في شارع فيجو، وعبرنا البوابات القذرة لمغدفة الطيور الأرستقراطية الشهيرة. وفي نهاية ممر طويل كئيب، دفع صديقي الجديد بابًا مفتوحًا وشغل مفتاحًا كهربائيًا. كانتْ مجموعة من المصابيح تتلألأ من خلال ظلال ملونة تغمر الغرفة الكبيرة أمامنا بإشعاع أحمر. عندما وقفتُ في المدخل وألقيتُ نظرة حولي، كان لدي انطباع عام بالراحة والأناقة غير العادية الممزوجة بجو من الرجولة الذكورية. في كل مكان كانتْ تختلط رفاهية الرجل الثري ذي الذوق الرفيع وعدم الاهتمام بالترتيب لدى عازب. كانتِ الفراء الفاخرة والحصائر الغريبة قزحية اللون من أحد البازارات الشرقية متناثرة على الأرض. كانتِ الصور والمطبوعات التي يمكن حتى لعيني غير المتمرسة التعرف عليها على أنّها ذات قيمة كبيرة ونادرة معلقة بكثافة على الجدران. كانتْ هناك رسومات للملاكمين وراقصات الباليه وخيول السباق تتخللها رسومات لـ (فراجونارد) الحسي و (جيراردیه) العسكري و (ترنر) الحالم. ولكن وسط هذه الزخارف المتنوعة كانتْ هناك جوائز متناثرة أعادتْ إلى ذاكرتي بقوة حقيقة مفادها أنّ اللورد (جون روكستون) كان أحد أعظم الرياضيين في عصره. كان المجداف الأزرق الداكن المتقاطع مع مجداف وردي كرزي فوق رف الموقد يتحدث عن الرجل العجوز من أوكسفورد ولياندر، في حين كانتِ الرقائق والقفازات الملاكمة فوقها وتحتها أدوات رجل فاز بالسيادة مع كل منهما. مثل دادو حول الغرفة كان هناك صف بارز من رؤوس الصيد الثقيلة الرائعة، الأفضل من نوعها من كل أنحاء العالم، مع وحيد القرن الأبيض النادر

من منطقة لادو إنكلاف يتدلى شفته المتعجرفة فوقهم جميعًا.

في وسط السجادة الحمراء الفاخرة كانتْ هناك طاولة لويس كوينز سوداء وذهبية، وهي طاولة أثرية جميلة، وقد تم تدنيسها الآن بعلامات النظارات وندوب أعواد السيجار. كانتْ هناك صينية فضية للسجائر وحامل كحول مصقول، ومن خلال سيفون مجاور، بدأ مضيفي الصامت يعبئ كأسين مرتفعين. بعد أن أشار لي إلى كرسي بذراعين ووضع مرطباتي بالقرب منه، ناولني هافانا طويلة وناعمة. ثم جلس قبالتي، ونظر إليّ طويلًا وثابتًا بعينيه الغريبتين المتلألئتين المتهورتين- عينان بلون أزرق فاتح بارد، بلون بحيرة جليدية.

قد لاحظتُ من خلال الضباب الخفيف الناتج عن دخان سيجاري تفاصيل وجه كان مألوفًا بالنسبة لي بالفعل من العديد من الصور الفوتوغرافية- الأنف المنحني بقوة، والخدين الغائرين المتعبين، والشعر الداكن المحمر، الرقيق في الأعلى، والشاربين المقرمشين، والخصلة الصغيرة العدوانية على ذقنه البارز. كان هناك شيء من نابليون الثالث، شيء من دون كيخوت، ومرة أخرى شيء كان جوهر الرجل الريفي الإنجليزي، المحب المتنبه للكلاب والخيول في الهواء الطلق. كان جلده أحمرًا غنيًا مثل أصيص الزهور بسبب الشمس والرياح. كانتْ حواجبه منتصبة ومتدلية، مما أعطى تلك العيون الباردة بطبيعتها مظهرًا شرسًا تقريبًا، وهو الانطباع الذي زاد من قوته حاجبيه القويين المجعدين. كان نحيفًا في شكله، لكنه قوي البنية للغاية- في الواقع، لقد أثبت مرارًا وتكرارًا أنّ هناك عددًا قليلًا من الرجال في إنجلترا قادرين على مثل هذه الجهود المستمرة. كان طوله يزيد قليلًا عن ستة أقدام، لكنّه بدا أقصر بسبب انحناءة غريبة في كتفيه. هكذا كان اللورد (جون روكستون) الشهير وهو يجلس أمامي، يعض بقوة على سيجاره ويراقبني بثبات في صمت طويل ومحرج.

«حسنًا»، قال أخيرًا، «لقد ذهبنا وفعلناها، يا أيها الفلاح الصغير». (نطق هذه العبارة الغريبة وكأنها كلمة واحدة- «يا أيها الفلاح الصغير، يا أيها الفلاح الصغير»). «نعم، لقد قفزنا، أنت وأنا. أعتقد الآن، عندما دخلت تلك الغرفة لم يكن هناك مثل هذه الفكرة في رأسك- ماذا؟».

«لم أفكر في ذلك».

«وأنا أيضًا لم أفكر في الأمر. وها نحن هنا، غارقين حتى أعناقنا. لماذا، لقد عدتُ منذ ثلاثة أسابيع فقط من أوغندا، وحصلتُ على مكان في اسكتلندا، ووقعتُ على عقد الإيجار وكل شيء. الأمر جميل- ماذا؟ كيف يؤثر ذلك عليك؟».

«حسنًا، كل هذا في صلب عملي. أنا صحفي في جازيت».

«بالطبع- لقد قلتَ ذلك عندما توليتَ المهمة. بالمناسبة، لديّ وظيفة صغيرة لك، إذا ساعدتني».

«بكل سرور».

«لا تمانع في المخاطرة، أليس كذلك؟».

«ما هي المخاطرة؟».

«حسنًا، إنّه بالينجر- إنّه المخاطرة. هل سمعتَ عنه؟».

«لا».

«لماذا، أيها الشاب، أين كنتَ تعيش؟ السير (جون بالينجر) هو أفضل فارس نبيل في شمال البلاد. أستطيع أن أجعله يتقن فن ركوب الخيل في أفضل حالاته، لكنه سيدي في

قفز الحواجز. حسنًا، إنّه سر مكشوف أنّه عندما ينتهي من التدريب يشرب كثيرًا- يضرب المعدل، كما يسميه. أصيبَ بالهذيان في يوم الثلاثاء، وكان يثور مثل الشيطان منذ ذلك الحين. غرفته أعلى من هذا. يقول الأطباء أنّ كل شيء على ما يرام مع الرجل العجوز ما لم يتم إدخال بعض الطعام إليه، ولكن بينما يرقد في السرير ومسدس على غطاء سريره، ويقسم أنّه سيطلق ستة من أفضل الرصاص على أي شخص يقترب منه، كان هناك القليل من الإضراب بين العاملين. إنّه رجل صلب، وقناص لا يخطئ أيضًا، لكن لا يمكنك ترك فائز جراند ناشيونال ليموت هكذا- ماذا؟».

«ماذا تنوي أن تفعل إذن؟» سألتُ.

«حسنًا، كانتْ فكرتي هي أنّه بإمكاننا أنا وانت مهاجمته، قد يكون نائمًا، وفي أسوأ الأحوال يمكنه أن يصيب أحدنا فقط وعلى الثاني أن ينال منه. إذا تمكنّا من وضع غطاء حول ذراعيه ثم استخدام مضخة، فسوف نقدم للعجوز العزيز عشاء حياته».

كان من الصعب جدًا أن يأتي المرء فجأة إلى العمل اليومي. لا أعتقد أنني رجل شجاع بشكل خاص. لدي خيال أيرلندي يجعل المجهول وغير المجرب أكثر فظاعة مما هو عليه. من ناحية أخرى، نشأتُ مع رعب الجبن ورعب من مثل هذه الوصمة. أجرؤ على القول إنني أستطيع أن ألقي بنفسي من فوق الهاوية، مثل الهون في كتب التاريخ، إذا تم التشكيك في شجاعتي للقيام بذلك، ومع ذلك، فإنّ الفخر والخوف، وليس الشجاعة، سيكونان مصدر إلهامي بالتأكيد. لذلك، ورغم أنّ كل عصب في جسدي تقلص أمام ذلك الشخص الذي كان مدمنًا على الويسكي والذي تخيلته في الغرفة أعلاه، إلا أنني ما زلتُ أجيب بصوت لا مبالي قدر استطاعتي، بأنني مستعد للمغادرة. ولم يكن أي تعليق آخر من اللورد (روكستون) حول الخطر سوى ليجعلني أكثر انزعاجًا.

«لن يجعل الحديث الأمر أفضل»، قلتُ. «تعال».

نهضتُ من مقعدي ونهض هو من مقعده. ثم بضحكة صغيرة سرية، ربتَ على صدري مرتين أو ثلاث مرات، ودفعني أخيرًا إلى مقعدي.

«حسنًا، يا بني، ستفعل ذلك»، قال. رفعتُ نظري مندهشًا.

«لقد رأيتُ جاك بالينجر بنفسي هذا الصباح. لقد أحدث ثقبًا في تنورة كيمونو الخاص بي، بارك الله في يده العجوز المرتعشة، لكننا ألبسناه سترة، وسيصبح بخير في غضون أسبوع. أقول، أيها الشاب، آمل ألا تمانع – ماذا؟ كما ترى، بينك وبيني سراً، أنا أنظر إلى هذه القضية في أمريكا الجنوبية باعتبارها أمرًا جادًا للغاية، وإذا كان هناك صديق معي، فأنا أريد رجلًا يمكنني الاعتماد عليه. لذلك قمتُ بتقييمك، وأنا متأكد من أنك خرجتَ منها بشكل جيد. كما ترى، الأمر متروك لك ولي، لأنّ هذا الرجل العجوز من سمرلي سيحتاج إلى الرضاعة الجافة منذ البداية. بالمناسبة، هل أنت بالصدفة مالون الذي من المتوقع أن يحصل على قبعة الركبي الخاصة به لإيرلندا؟».

«ربما احتياطي».

«اعتقدتُ أنني أتذكر وجهك. حسنًا، كنت هناك عندما أحرزت تلك المحاولة ضد ريتشموند- إنّها أفضل محاولة منحرفة رأيتها في الموسم بأكمله. لا أفوت مباراة الركبي أبدًا إذا استطعت، لأنّها أكثر مباراة رجولة لدينا. حسنًا، لم أطلب منك الحضور هنا لمجرد التحدث عن الرياضة. يتعين علينا إصلاح أعمالنا. ها هي قوارب الإبحار، على الصفحة الأولى من صحيفة التايمز. هناك قارب بوث للبارا يوم الأربعاء من الأسبوع القادم، وإذا تمكنتَ أنت والبروفسور من العمل عليه، أعتقد أنّه يجب أن نأخذه- ماذا؟ جيد جدًا، سأسوي الأمر معه. ماذا عن ملابسك؟».

«ستتولى صحيفتي ذلك».

«هل تجيد الرماية؟».

«مستوى إقليمي متوسط».

«يا إلهي! ما أسوأ من هذا؟ إنّه آخر شيء تفكرون في تعلمه أيها الشباب. أنتم جميعًا نحل بلا لسعات، فيما يتعلق برعاية الخلية. ستبدون أغبياء، في بعض هذه الأيام، عندما يأتي شخص ما ويسرق العسل. لكنك ستحتاج إلى حمل سلاحك بشكل مستقيم في أمريكا الجنوبية، لأنّه، ما لم يكن صديقنا البروفسور مجنونًا أو كاذبًا، فقد نرى بعض الأشياء الغريبة قبل أن نعود. ما هو السلاح الذي لديك؟».

عبر إلى خزانة من خشب البلوط، وبينما فتحها لمحتُ لمحة من صفوف لامعة من البراميل المتوازية، مثل أنابيب الأورغن.

«سأرى ما يمكنني توفيره لك من مجموعتي»، هو قال.

أخرج واحدة تلو الأخرى، سلسلة من البنادق الجميلة، فتحها وأغلقها بصوت خافت ورنين، ثم ربتَ عليها وهو يعيدها إلى الرف بحنان كما تداعب الأم أطفالها.

«هذه بندقية من طراز Bland's .577 axite express » قال. «لقد قتلتُ ذلك الرجل الضخم بها»، ألقى نظرة خاطفة على وحيد القرن الأبيض. عشرة ياردات أخرى، وكان سيضيفني إلى مجموعته.

«في تلك الرصاصة المخروطية، فرصته الوحيدة معلقة، إنّها ميزة الضعيف».

«آمل أن تعرف جوردون، فهو شاعر الحصان والبندقية والرجل الذي يتعامل مع كليهما. الآن، هذه أداة مفيدة- عيار ٤٧٠، ومنظار تلسكوبي، وقاذف مزدوج، وتصويب

مباشر حتى ٣٥٠. هذه هي البندقية التي استخدمتها ضد سائقي العبيد في بيرو قبل ثلاث سنوات. يمكنني أن أخبرك أنني كنتُ بمثابة سوط الرب في تلك الأنحاء، رغم أنك لن تجد ذلك في أي كتاب أزرق. هناك أوقات، أيها الشاب، حيث يتعين على كل واحد منّا أن يتخذ موقفًا من أجل حقوق الإنسان والعدالة، وإلا فلن تشعر بالنظافة مرة أخرى. لهذا السبب خضتُ حربًا صغيرة بمفردي. أعلنتها بنفسي، وخضتها بنفسي، وأنهيتها بنفسي. كل من هذه الألقاب هي لقاتل عبيد- صف جيد منهم- ماذا؟ تلك الكبيرة هي لبيدرو لوبيز، ملكهم جميعًا، الذي قتلته في منطقة راكدة من نهر بوتومايو. الآن، إليك شيئًا قد يفيدك». أخرج بندقية جميلة باللونين البني والفضي. «مُحكمة الإغلاق عند المقبض، ودقيقة التصويب، وخمس طلقات في المشبك. يمكنك أن تثق في ذلك». ثم سلمها لي وأغلق باب خزانته المصنوعة من خشب البلوط.

«بالمناسبة»، تابع وهو يعود إلى مقعده، «ماذا تعرف عن هذا البروفسور تشالنجر؟».

«لم أره قط حتى اليوم».

«حسنًا، لم أكن أعرف ذلك أيضًا. من المضحك أن نبحر معًا تحت أوامر مختومة من رجل لا نعرفه. بدا وكأنّه عجوز مغرور. ولا يبدو أنّ إخوانه من العلماء يحبونه كثيرًا أيضًا. كيف أصبحتَ مهتمًا بهذا الأمر؟».

لقد أخبرته باختصار عن تجاربي في الصباح، واستمع إليّ باهتمام. ثم أخرج خريطة لأمريكا الجنوبية ووضعها على الطاولة.

«أعتقد أنّ كل كلمة قالها لك كانتِ الحقيقة»، قال بجدية، «وتذكر، لديّ شيء أستند إليه عندما أتحدث بهذه الطريقة. أمريكا الجنوبية مكان أحبه، وأعتقد أنّه إذا أخذته من دارين إلى فويغو، فهو أعظم وأغنى وأروع جزء من الأرض على هذا الكوكب. الناس لا

يعرفون ذلك بعد، ولا يدركون ما قد يصبح عليه الأمر. لقد صعدت وهبطت من طرف إلى طرف، وكان هناك موسمان جافان في تلك الأجزاء بالذات، كما أخبرتك عندما تحدثتُ عن الحرب التي شنتها على تجار الرقيق. حسنًا، عندما كنتُ هناك سمعتُ بعض القصص من نفس النوع- تقاليد الهنود وما شابه ذلك، ولكن مع شيء خلفها، بلا شك. فكلما عرفتَ المزيد عن تلك البلاد، أيها الشاب، كلما فهمتَ أنّ أي شيء ممكن- أي شيء! هناك فقط بعض الممرات المائية الضيقة التي يسافر الناس على طولها، وخارجها كل الظلام. الآن، هنا في الأسفل (ماتو جراندي)»- مسح سيجاره على جزء من الخريطة- «أو في هذه الزاوية حيث تلتقي ثلاث دول، لا شيء سيفاجئني. كما قال ذلك الرجل الليلة، هناك خمسون ألف ميل من الممر المائي الذي يمر عبر غابة بحجم أوروبا تقريبًا. أنت وأنا يمكن أن نكون بعيدين عن بعضنا البعض كما تبعد اسكتلندا عن القسطنطينية، ومع ذلك كل واحد منا في نفس الغابة البرازيلية العظيمة. لقد صنع الإنسان للتو مسارًا هنا وخدشًا هناك في المتاهة. لماذا، يرتفع النهر وينخفض أفضل جزء من أربعين قدمًا، ونصف البلاد مستنقع لا يمكنك تجاوزه؟ لماذا لا يكمن شيء جديد ورائع في مثل هذا البلد؟ ولماذا لا نكون الرجال الذين يكتشفونه؟ علاوة على ذلك»، أضاف، وجهه الغريب النحيف يتألق بسرور، «هناك مخاطرة رياضية في كل ميل منها، أنا مثل كرة الجولف القديمة- لقد سقط عني كل الطلاء الأبيض منذ زمن بعيد. يمكن للحياة أن تضربني الآن، ولا يمكن أن تترك أي أثر. لكن المجازفة الرياضية، أيها الشاب، هي ملح الوجود. إذن فالأمر يستحق أن نعيشه مرة أخرى. لقد حصلنا جميعًا على صفقة لينة ومملة ومريحة للغاية. أعطني الأراضي القاحلة العظيمة والمساحات الواسعة، مع بندقية في قبضتي وشيء أبحث عنه يستحق العثور عليه. لقد جربتُ الحرب وسباق الحواجز والطائرات، لكن صيد الوحوش التي تبدو وكأنّها حلم عشاء جراد البحر هو إحساس جديد تمامًا». ضحك

بسعادة عند الاحتمال.

ربما كنتُ قد تحدثتُ طويلًا عن هذا الرجل الجديد، ولكنني سأظل رفيقه لأيام عديدة، ولذلك حاولتُ أن ألقيه كما رأيته لأول مرة، بشخصيته الغريبة وحيله الغريبة في الكلام والفكر. ولم يكن الأمر سوى الحاجة إلى معرفة تفاصيل لقائي به، وهو ما دفعني في النهاية إلى ترك صحبته. تركته جالسًا وسط تألقه الوردي، وهو يدهن قفل بندقيته المفضلة، بينما كان لا يزال يضحك على نفسه عند التفكير في المغامرات التي تنتظرنا. كان من الواضح جدًا بالنسبة لي أنّه إذا كانتِ المخاطر تنتظرنا، فلن أجد في إنجلترا كلها شخصًا أكثر هدوءًا أو أكثر شجاعة لأشاركها معه.

في تلك الليلة، وأنا منهك بعد الأحداث الرائعة التي شهدها ذلك اليوم، جلستُ لوقت متأخر مع (مكاردل)، محرر الأخبار، وشرحتُ له الموقف برمته، والذي اعتقد أنّه مهم بما يكفي لأقدمه في صباح اليوم التالي أمام الرئيس السير (جورج بومونت). لقد اتفقنا على أن أكتب تقارير كاملة عن مغامراتي في شكل رسائل متتالية إلى (ماكاردل)، وأن يتم تحرير هذه الرسائل لنشرها في جازيت فور وصولها، أو تأجيلها حتى يتم نشرها لاحقًا، وفقًا لرغبات البروفيسور (تشالنجر)؛ لأننا لم نتمكن بعد من معرفة الشروط التي قد يفرضها على تلك التوجيهات التي من شأنها أن تقودنا إلى الأرض المجهولة. وردًا على استفسار هاتفي، لم نتلق شيئًا أكثر تحديدًا من هجوم على الصحافة، وانتهى الأمر بملاحظة مفادها أنّه إذا أخطرنا قاربنا، فسوف يسلمنا أي توجيهات قد يعتقد أنّه من المناسب إعطاؤها لنا في لحظة الانطلاق .فشل سؤال ثانٍ منا في إثارة أي إجابة على الإطلاق، باستثناء صرخة حزينة من زوجته مفادها أن زوجها كان في مزاج عنيف للغاية بالفعل، وأنّها تأمل ألا نفعل شيئًا لجعل الأمر أسوأ. تسببتِ المحاولة الثالثة، في وقت لاحق من اليوم، في حدوث تعطل مروّع، ورسالة لاحقة من البورصة المركزية تفيد بأن

سماعة البروفيسور (تشالنجر) قد تحطمتْ. بعد ذلك تخلينا عن كل محاولات الاتصال.

والآن أيها القراء الصبورون، لا أستطيع أن أخاطبكم بشكل مباشر بعد الآن. فمن الآن فصاعدًا (إذا ما وصلتْ إليكم أي متابعة لهذه القصة) فلن يكون ذلك إلّا من خلال الصحيفة التي أمثلها. وفي أيدي المحرر أترك هذه القصة للأحداث التي أدتْ إلى واحدة من أكثر الرحلات الاستكشافية شهرة على الإطلاق، حتى إذا لم أعد إلى إنجلترا، فسوف يكون هناك بعض السجلات حول كيفية حدوث الأمر. أكتب هذه السطور الأخيرة في صالون السفينة فرانسيسكا، وسوف يعودون بالقيطان لرعاية السيد (ماكاردل). دعوني أرسم صورة أخيرة قبل أن أغلق دفتر الملاحظات- صورة هي آخر ذكرى للبلد القديم أحملها معي. إنّه صباح ممطر ضبابي في أواخر الربيع؛ يهطل مطر خفيف بارد. ثلاثة أشخاص لامعون يرتدون سترات واقية من المطر يسيرون على الرصيف، متجهين إلى لوح الممر للسفينة الكبيرة التي تحلق منها السفينة الزرقاء. أمامهم يقف حمال يدفع عربة محملة بالصناديق والأغطية وحافظات البنادق. يمشي الأستاذ (سمرلي)، ذو البنية الطويلة الكئيبة، بخطوات بطيئة ورأس منحني، وكأنّه يشعر بالأسف العميق على نفسه. يخطو اللورد (جون روكستون) بخطى سريعة، ويشرق وجهه النحيف المتلهف بين قبعة الصيد والوشاح. أما أنا، فأنا سعيد لأنني انتهيتُ من أيام التحضير الصاخبة وآلام الوداع، ولا شك أنني أظهر ذلك في سلوكي. وفجأة، بمجرد وصولنا إلى السفينة، سمعنا صرخة خلفنا. كان صوت الأستاذ (تشالنجر)، الذي وعدنا بتوديعنا. ركض خلفنا، بقامته الغاضبة والمنتفخة الوجه والمحمرة اللون.

«لا، شكرًا»، قال؛ «أفضل ألا أصعد على متن السفينة. ليس لدي سوى بضع كلمات لأقولها لك، ويمكن قولها بسهولة حيث نحن. أرجوك ألا تتخيل أنني مدين لك بأي شكل من الأشكال لقيامك بهذه الرحلة. أود أن تفهم أن الأمر لا يهمني، وأرفض أن

أستمتع بأدنى شعور بالالتزام الشخصي. الحقيقة هي الحقيقة، ولا شيء يمكنك إخباري به يمكن أن يؤثر عليها بأي شكل من الأشكال، على الرغم من أنّه قد يثير المشاعر ويخفف من فضول عدد من الأشخاص غير الفعالين للغاية. تعليماتي لإرشادك موجودة في هذا المغلف المختوم. ستفتحه عندما تصل إلى مدينة على نهر الأمازون تسمى ماناوس، ولكن ليس قبل التاريخ والساعة المحددين على الخارج. هل كلامي واضح؟ أترك الالتزام الصارم بشروطي بالكامل لك. لا، السيد مالون، لن أضع أي قيود على مراسلاتك، لأنّ إذاعة الحقائق هي هدف رحلتك؛ لكنني أطلب منك عدم إعطاء أي تفاصيل بشأن مكانك بالضبط وألا ينشر أي شيء فعليًا حتى تعود. وداعًا يا سيدي. لقد فعلتَ شيئًا لتخفيف مشاعري تجاه المهنة البغيضة التي تنتمي إليها للأسف. وداعًا يا لورد جون. إن العلم، كما أفهم، كتاب مختوم بالنسبة لك؛ ولكن يمكنك أن تهنئ نفسك على ميدان الصيد الذي ينتظرك. لا شك أنك ستحظى بفرصة وصف كيف أسقطت ديمورفودون الصاروخي في الميدان. وداعًا لك أيضًا يا بروفسور سمرلي ،إذا كنتَ لا تزال قادرًا على تحسين نفسك، وهو ما لستُ مقتنعًا به بصراحة، فستعود بالتأكيد إلى لندن رجلًا أكثر حكمة».

لذا استدار على عقبه، وبعد دقيقة واحدة من على سطح السفينة، تمكنتُ من رؤية جسده القصير الممتلئ يطفو في المسافة وهو في طريقه إلى قطاره. حسنًا، لقد وصلنا إلى أسفل القناة الآن. هناك آخر جرس للرسائل، ووداعًا للطيار. سنكون «أسفل، أسفل الهيكل، على الطريق القديم» من الآن فصاعدًا. بارك الله في كل من نتركه خلفنا، وأعدنا بسلام.

الفصل السابع

غدًا سنختفي في المجهول

ولن أزعج أولئك الذين قد تصل إليهم هذه القصة بسرد رحلتنا الفاخرة على متن سفينة بوث، ولن أروي لهم إقامتنا لمدة أسبوع في بارا (باستثناء أنني أود أن أشيد باللطف الكبير لشركة بيريرا دا بينتا في مساعدتنا على تجميع معداتنا). وسأشير أيضًا بإيجاز شديد إلى رحلتنا النهرية، عبر مجرى مائي عريض بطيء الحركة، في سفينة بخارية كانتْ أصغر قليلًا من تلك التي حملتنا عبر المحيط الأطلسي. وفي النهاية وجدنا أنفسنا عبر مضيق أوبيدوس ووصلنا إلى مدينة ماناوس. وهنا أنقذنا السيد (شورتمان)، ممثل شركة التجارة البريطانية البرازيلية، من عوامل الجذب المحدودة للنزل المحلي. وفي مستشفاه فازيندا قضينا وقتنا حتى اليوم الذي تم فيه تفويضنا بفتح خطاب التعليمات الذي أعطانا إياه البروفيسور (تشالنجر). وقبل أن أصل إلى الأحداث المفاجئة في ذلك التاريخ، أود أن أقدم لمحة أكثر وضوحًا عن رفاقي في هذه المهمة، وعن الزملاء الذين جمعناهم بالفعل في أمريكا الجنوبية. أتحدث بحرية، وأترك استخدام مادتي لتقديرك الخاص، السيد (ماكاردل)، حيث يجب أن يمر هذا التقرير من خلال يديك قبل أن يصل إلى العالم.

إنّ الإنجازات العلمية للبروفيسور (سمرلي) معروفة جيدًا لدرجة أنني لا أستطيع أن أكلف نفسي عناء تلخيصها. إنّه مجهز بشكل أفضل لرحلة صعبة من هذا النوع مما قد يتصوره المرء للوهلة الأولى. إنّ قوامه الطويل النحيف النحيل لا يتأثر بالتعب، وأسلوبه الجاف، والساخر إلى حد ما، وغير المتعاطف في كثير من الأحيان، لا يتأثر بأي تغيير في محيطه. على الرغم من أنه في عامه السادس والستين، لم أسمعه أبدًا يعبر عن عدم رضاه

عن الصعوبات العرضية التي كان علينا مواجهتها. كنتُ أعتبر وجوده عبئًا على الرحلة الاستكشافية، ولكن في الواقع، أنا الآن مقتنع تمامًا بأنّ قدرته على التحمل لا تقل عن قدرتي. فهو بطبيعته حاد المزاج ومتشكك. منذ البداية لم يخف قط اعتقاده بأنّ البروفيسور (تشالنجر) محتال مطلق، وأننا جميعًا نخوض مطاردة سخيفة وأننا لن نحصد سوى خيبة الأمل والخطر في أمريكا الجنوبية، والسخرية المقابلة في إنجلترا. هذه هي الآراء التي سكبها في آذاننا طوال الطريق من ساوثهامبتون إلى ماناوس، مع الكثير من التشويه العاطفي لملامحه النحيلة واهتزاز لحيته الرقيقة. منذ أن هبط من القارب، حصل على بعض العزاء من جمال وتنوع حياة الحشرات والطيور من حوله، لأنّه مخلص تمامًا في تفانيه للعلم. يقضي أيامه في التنقل عبر الغابات ببندقيته وشبكة الفراشات الخاصة به، ويقضي أمسياته في تجميع العينات العديدة التي حصل عليها. ومن بين خصائصه الطفيفة أنّه لا يهتم بملابسه، وقذر في شخصه، وغافل عن عاداته، ومدمن على تدخين غليون قصير من خشب الورد، والذي نادرًا ما يخرج من فمه. لقد شارك في العديد من البعثات العلمية في شبابه (كان مع روبرتسون في بابوا)، وحياة المخيم والقارب ليستْ جديدة عليه.

يشترك اللورد (جون روكستون) في بعض النقاط مع البروفيسور (سمرلي)، ويتناقضان في نقاط أخرى تمامًا. فهو أصغر منه بعشرين عامًا، لكنه يتمتع بجسد رشيق ونحيل. أما عن مظهره، فقد وصفته كما أتذكر في الجزء من روايتي الذي تركته ورائي في لندن. إنّه أنيق للغاية ومهندم في سلوكه، ويرتدي دائمًا ملابس بيضاء وحذاء بني طويل، ويحلق ذقنه مرة واحدة على الأقل في اليوم. ومثله كمثل معظم رجال العمل؛ فهو مقتضب في حديثه، ويستغرق بسهولة في أفكاره الخاصة، ولكنه دائمًا ما يكون سريعًا في الإجابة على سؤال أو الانضمام إلى محادثة، ويتحدث بطريقة غريبة ومتوترة ونصف فكاهية. إنّ معرفته بالعالم، وخاصة أمريكا الجنوبية، مدهشة، ولديه إيمان كامل

بإمكانيات رحلتنا التي لا يمكن أن تتبدد بسبب سخرية البروفيسور (سمرلي). لديه صوت لطيف وأسلوب هادئ، لكن خلف عينيه الزرقاوين المتلألئتين تكمن قدرة على الغضب الشديد والعزم العنيد، وهو ما يزيد من خطورتهما لأنهما مقيدتان. لم يتحدث كثيرًا عن مغامراته في البرازيل وبيرو، لكن اكتشاف الإثارة التي أحدثها وجوده بين السكان الأصليين النهريين، الذين نظروا إليه باعتباره بطلهم وحاميهم كان بمثابة كشف بالنسبة لي. لقد أصبحتْ مغامرات الزعيم الأحمر، كما أطلقوا عليه، أساطير بينهم، لكن الحقائق الحقيقية، بقدر ما أستطيع أن أعرفها، كانتْ مذهلة بما فيه الكفاية، بأنّ اللورد (جون) وجد نفسه قبل بضع سنوات في تلك الأرض المحرمة التي تشكلها الحدود نصف المحددة بين بيرو والبرازيل وكولومبيا. في هذه المنطقة الكبيرة تزدهر شجرة المطاط البري، وأصبحتْ، كما في الكونغو، لعنة على السكان الأصليين لا يمكن مقارنتها إلا بعملهم القسري تحت إمرة الإسبان في مناجم الفضة القديمة في دارين. لقد سيطر على البلاد حفنة من الهنود المختلطين الأشرار، وقاموا بتسليح الهنود الذين كانوا يؤيدونهم، وحوّلوا الباقين إلى عبيد، وأرعبوهم بأشد أنواع التعذيب وحشية من أجل إجبارهم على جمع المطاط الهندي، الذي كان يُنقل بعد ذلك عبر النهر إلى بارا. لقد دافع اللورد (جون روكستون) عن الضحايا البائسين، ولم يتلق سوى التهديدات والإهانات بسبب آلامه. ثم أعلن رسميًا الحرب على (بيدرو لوبيز)، زعيم سائقي العبيد، وجند مجموعة من العبيد الهاربين في خدمته، وسلحهم، وأجرى حملة انتهتْ بقتله بيديه للهجين سيئ السمعة وانهيار النظام الذي كان يمثله.

لا عجب أنّ الرجل ذا الشعر الأحمر والصوت الحريري والأخلاق الحرة السهلة كان ينظر الآن باهتمام عميق على ضفاف النهر الأمريكي الجنوبي العظيم، على الرغم من أنّ المشاعر التي ألهمها كانتْ مختلطة بشكل طبيعي، حيث كان امتنان السكان الأصليين

يعادل استياء أولئك الذين رغبوا في استغلالهم. كانتْ إحدى النتائج المفيدة لتجاربه السابقة أنّه كان قادرًا على التحدث بطلاقة بلهجة Lingoa Geral، وهي لغة غريبة، ثلثها برتغالية وثلثان هندية، وهي اللغة السائدة في جميع أنحاء البرازيل.

لقد قلتُ من قبل أنّ اللورد (جون روكستون) كان مهووسًا بأمريكا الجنوبية. لم يكن بإمكانه التحدث عن تلك الدولة العظيمة دون حماسة، وكان هذا الحماس معديًا، لأنّه على الرغم من جهلي، فقد لفتَ انتباهي وحفّز فضولي. كم أتمنى أن أتمكن من إعادة إنتاج سحر خطاباته؛ ذلك المزيج الغريب من المعرفة الدقيقة والخيال الجريء الذي منحها سحرها، حتى أنّ ابتسامة الأستاذ الساخرة والمتشككة كانتْ تختفي تدريجيًا من وجهه النحيف وهو يستمع. كان يروي تاريخ النهر العظيم الذي تم استكشافه بسرعة كبيرة (لأنّ بعض الغزاة الأوائل لبيرو عبروا القارة بأكملها على مياهه)، ومع ذلك كان مجهولًا جدًا فيما يتعلق بكل ما يكمن خلف ضفافه المتغيرة باستمرار.

«ماذا يوجد هناك؟» كان يصرخ، مشيرًا إلى الشمال. «غابات ومستنقعات وأدغال غير مخترقة. من يدري ما قد يأوي؟ وهناك إلى الجنوب؟ برية من الغابات المستنقعية، حيث لم يسبق لرجل أبيض أن ذهب. المجهول يواجهنا من كل جانب. خارج الخطوط الضيقة للأنهار ماذا يعرف أي شخص؟ من سيقول ما هو ممكن في مثل هذا البلد؟ لماذا لا يكون الرجل العجوز تشالنجر على حق؟». وعند هذا التحدي المباشر، تعود النظرة الساخرة العنيدة إلى وجه البروفيسور (سمرلي)، فيجلس وهو يهز رأسه الساخر في صمت غير متعاطف، خلف سحابة من غليونه المصنوع من جذور نبات العليق.

وهذا كل ما في الأمر الآن بالنسبة لرفيقيّ الأبيضين اللذين سوف نكشف عن شخصياتهما وحدودهما بشكل أكبر، كما هو الحال بالنسبة لشخصيتي، مع تقدم هذه

الرواية. ولكننا بالفعل قد جنّدنا بعض الخدم الذين قد يلعبون دورًا لا يستهان به فيما سيأتي. الأول هو رجل أسود ضخم يدعى (زامبو)، وهو أسود مثل هرقل، ونشيط مثل أي حصان، وذكي مثله تقريبًا. وقد جنّدناه في بارا، بناءً على توصية شركة السفن البخارية، التي تعلم على متن سفنها التحدث باللغة الإنجليزية المتقطعة.

وفي بارا أيضًا جندنا (جوميز) و (مانويل)، وهما رجلان مختلطان من أعلى النهر، وصلا للتو بحمولة من خشب السكويا. كانا رجلين داكني البشرة، ملتحيين وشرسين، نشيطين ونحيفين مثل الفهود. وقد أمضى كلاهما حياتهما في تلك المياه العليا من الأمازون التي كنّا على وشك استكشافها، وكانتْ هذه التوصية هي التي دفعتِ اللورد (جون) إلى تجنيدهما. وكان أحدهما، (جوميز)، يتمتع بميزة إضافية تتمثل في قدرته على التحدث باللغة الإنجليزية بطلاقة. كان هذان الرجلان على استعداد للعمل كخدم شخصيين لنا، للطهي، أو التجديف، أو الاستفادة منهم بأي شكل من الأشكال مقابل أجر خمسة عشر دولارًا شهريًا. بالإضافة إلى هؤلاء، قمنا بتعيين ثلاثة هنود من قبيلة موجو من بوليفيا، وهم الأكثر مهارة في صيد الأسماك وأعمال القوارب بين جميع قبائل النهر. أطلقنا على زعيم هؤلاء اسم (موجو)، على اسم قبيلته، والآخرون معروفون باسم (خوسيه) و(فيرناندو). إذن، كان ثلاثة رجال بيض، واثنان من الهجينين، وزنجي واحد، وثلاثة هنود يشكلون أفراد البعثة الصغيرة التي كانتْ تنتظر تعليماتها في ماناوس قبل الشروع في مهمتها الفريدة.

وأخيرًا، بعد أسبوع مرهق، جاء اليوم والساعة. أطلب منك أن تتخيل غرفة الجلوس المظللة في Fazenda St. Ignatio، على بعد ميلين من مدينة ماناوس. في الخارج كان هناك وهج أصفر نحاسي لأشعة الشمس، مع ظلال أشجار النخيل السوداء والواضحة مثل الأشجار نفسها. كان الهواء هادئًا، مليئًا بطنين الحشرات الأبدي، جوقة استوائية من

العديد من الأوكتافات، من طنين النحل العميق إلى تغريد البعوض العالي الحاد. خلف الشرفة كانتْ هناك حديقة صغيرة خالية، محاطة بسياج الصبار ومزينة بمجموعات من الشجيرات المزهرة، حيث كانتِ الفراشات الزرقاء الكبيرة والطيور الطنانة الصغيرة ترفرف وتنطلق في هلال من الضوء المتلألئ. في الداخل، جلسنا حول طاولة القصب، التي كان عليها مظروف مختوم. مكتوب عليه بخط يد الأستاذ (تشالنجر) المتعرج الكلمات التالية:

«تعليمات إلى اللورد جون روكستون والفريق. ليتم فتحه في ماناوس في الخامس عشر من يوليو، في الساعة ١٢ بالضبط».

وضع اللورد (جون) ساعته على الطاولة بجانبه. قال: «لدينا سبع دقائق أخرى. العجوز العزيز دقيق للغاية».

ابتسم الأستاذ (سمرلي) بسخرية وهو يلتقط المظروف بيده النحيلة.

«ما الذي يهم حقًا سواء فتحناه الآن أم بعد سبع دقائق؟»قال. «كل هذا جزء لا يتجزأ من نفس نظام الدجل والهراء، والذي أأسف أن أقول أنّ كاتبه سيئ السمعة بسببه».

«حسنًا، تعال، يجب أن نلعب اللعبة وفقًا للقواعد»، قال اللورد (جون). «إنّه عرض الرجل العجوز تشالنجر ونحن هنا بحسن نيته، لذا سيكون من السيئ للغاية ألّا نتبع تعليماته حرفيًا».

«إنّها تجارة جميلة!» صاح البروفسور بمرارة .«لقد بدا لي الأمر سخيفًا في لندن، ولكنني مضطر إلى القول أنّه يبدو أكثر سخافة عند التعرف عليه عن كثب. لا أعرف ما بداخل هذا المغلف، ولكن ما لم يكن شيئًا محددًا إلى حد ما، فسوف أغري كثيرًا بأخذ

القارب التالي في النهر واللحاق ببوليفيا في بارا. بعد كل شيء، لدي بعض العمل الأكثر مسؤولية في العالم من الجري هنا وهناك لدحض ادعاءات مجنون. الآن، روكستون، لقد حان الوقت بالتأكيد».

«لقد حان الوقت»، قال اللورد (جون). «يمكنك إطلاق الصافرة». أخذ المغلف وقطعه بسكينه. أخرج منه ورقة مطوية. فتحها بعناية وبسطها على الطاولة. كانتْ ورقة فارغة. قلبَها. كانتْ فارغة مرة أخرى. نظرنا إلى بعضنا البعض في صمت محيّر، كسره انفجار ضحك ساخر متنافر من البروفسور (سمرلي).

«إنّه اعتراف علني»، صاح. «ماذا تريد أكثر من ذلك؟ هذا الرجل مخادع معترف به. كل ما علينا فعله هو العودة إلى المنزل والإبلاغ عنه باعتباره محتالًا وقحًا».

«حبر غير مرئي!» اقترحتُ.

«لا أعتقد!» قال اللورد (روكستون)، وهو يمسك الورقة في الضوء .«لا، أيها الشاب الصغير، لا فائدة من خداع نفسك. سأراهن أنّه لم يُكتب أي شيء على هذه الورقة».

«هل يمكنني الدخول؟» صاح صوت من الشرفة.

تسلل ظل شخص قصير القامة عبر رقعة ضوء الشمس. ذلك الصوت !ذلك العرض الوحشي للكتف! قفزنا على أقدامنا في دهشة عندما ظهر (تشالنجر)، مرتديًا قبعة قش صبيانية مستديرة بشريط ملون- (تشالنجر)، ويداه في جيوب سترته وحذائه القماشي يشير بدقة أثناء سيره- في المساحة المفتوحة أمامنا. ألقى برأسه إلى الخلف، وهناك وقف في الوهج الذهبي بكل لحيته الآشورية القديمة، وكل وقاحته الفطرية من الجفون المتدلية والعينين المتعصبتين.

«أخشى أن أكون متأخرًا بضع دقائق، عندما أعطيتك هذا المغلف، يجب أن أعترف بأنني لم أكن أنوي أبدًا أن تفتحه، فقد كان من المقرر أن أكون معك قبل الموعد. يمكن توزيع التأخير المؤسف بين طيار مخطئ وكتلة رملية متطفلة. أخشى أن يكون ذلك قد أعطى زميلي، البروفسور سمرلي، فرصة للتجديف».

«لا بد أن أقول، سيدي»، قال اللورد (جون)، بصوت صارم، «إنّ وصولك يشكل راحة كبيرة لنا، لأنّ مهمتنا بدتْ وكأنها انتهتْ قبل الأوان. حتى الآن لا أستطيع أن أفهم لماذا كان عليك أن تقوم بها بهذه الطريقة غير العادية».

بدلًا من الإجابة، دخل البروفسور (تشالنجر)، وصافحني واللورد (جون)، وانحنى بوقاحة ثقيلة للبروفسور (سمرلي)، وجلس على كرسي سلة، الذي صر وتمايل تحت ثقله.

«هل كل شيء جاهز لرحلتك؟» سأل.

«يمكننا أن نبدأ غدًا».

«إذن، عليك أن تفعل ذلك أيضًا. لستَ بحاجة إلى مخططات توجيه الآن؛ لأنّك ستتمتع بميزة لا تقدر بثمن من إرشاداتي الخاصة. لقد قررتُ منذ البداية أن أشرف بنفسي على تحقيقاتك. إنّ أكثر المخططات تفصيلًا، كما ستعترف بسهولة، لن تكون بديلاً جيدًا لذكائي ونصيحتي الخاصة. أما فيما يتعلق بالحيلة الصغيرة التي لعبتها عليك في مسألة المغلف، فمن الواضح أنّه لو أخبرتك بكل نواياي، لكنتُ مضطرًا إلى مقاومة الضغط غير المرغوب فيه للسفر معك».

«ليس مني، سيدي!» صاح البروفسور (سمرلي) بحرارة. «ما دامتْ هناك سفينة أخرى في المحيط الأطلسي».

أشار له (تشالنجر) بيده الكبيرة المشعرة.

«أنا متأكد من أنّ حسّك السليم سيدعم اعتراضي وسيدرك أنّه كان من الأفضل أن أوجه تحركاتي وأظهر فقط في اللحظة المحددة التي كان وجودي ضروريًا فيها. لقد حانتْ تلك اللحظة الآن. أنت في أيدٍ أمينة. لن تفشل الآن في الوصول إلى وجهتك. من الآن فصاعدًا أتولى قيادة هذه البعثة، ويجب أن أطلب منك إكمال استعداداتك الليلة، حتى نتمكن من البدء مبكرًا في الصباح. وقتي ذا قيمة، ويمكن قول الشيء نفسه، بلا شك، بدرجة أقل عن وقتك. لذلك أقترح أن نستمر في التحرك بأسرع ما يمكن، حتى أثبتُ ما أتيتُ لرؤيته».

استأجر اللورد (جون روكستون) زورق بخاري كبير، إزميرالدا، والذي كان سيحملنا إلى أعلى النهر. فيما يتعلق بالمناخ، لم يكن مهمًا الوقت الذي اخترناه لبعثتنا، حيث تتراوح درجة الحرارة من خمسة وسبعين إلى تسعين درجة في الصيف والشتاء، مع عدم وجود فرق ملحوظ في الحرارة.أما الرطوبة، فالأمر مختلف؛ من ديسمبر إلى مايو هي فترة هطول الأمطار، وخلال هذا الوقت يرتفع النهر ببطء حتى يصل إلى ارتفاع يبلغ حوالي أربعين قدمًا فوق علامة انخفاض المياه. يفيض النهر على ضفتيه، ويمتد في بحيرات كبيرة فوق أرض قاحلة هائلة، ويشكل منطقة ضخمة، تسمى محليًا غابو، وهي في معظمها مستنقعية للغاية للمشي على الأقدام وضحلة جدًا للقوارب. في حوالي شهر يونيو، تبدأ المياه في الانخفاض، وتكون في أدنى مستوياتها في أكتوبر أو نوفمبر. وبالتالي كانتْ رحلتنا في وقت موسم الجفاف، عندما كان النهر العظيم وروافده في حالة طبيعية إلى حد ما.

كان تيار النهر خفيفًا، حيث لا يتجاوز الانخفاض ثماني بوصات في الميل. لا يوجد مجرى مائي أكثر ملاءمة للملاحة، حيث تهب الرياح السائدة من الجنوب الشرقي،

ويمكن للقوارب الشراعية أن تواصل تقدمها نحو حدود البيرو، ثم تنخفض مرة أخرى مع التيار. في حالتنا، كانتِ المحركات الممتازة لسفينة إزميرالدا قادرة على تجاهل التدفق البطيء للنهر، وحققنا تقدمًا سريعًا كما لو كنا نبحر في بحيرة راكدة. لمدة ثلاثة أيام، أبحرنا شمالًا غربًا على طول مجرى مائي، حتى هنا، على بعد ألف ميل من مصبه، كان لا يزال هائلًا لدرجة أنّ ضفتيه من مركزه كانتا مجرد ظلال على الأفق البعيد. في اليوم الرابع بعد مغادرة ماناوس، انعطفنا إلى أحد الروافد الذي كان مصبه عندها أصغر قليلًا من النهر الرئيسي. ومع ذلك، ضاق بسرعة، وبعد يومين آخرين من الإبحار وصلنا إلى قرية هندية، حيث أصر البروفسور على أن ننزل، وأن نعيد سفينة إزميرالدا إلى ماناوس. لقد أوضح لنا أننا سنواجه قريبًا منحدرات، مما سيجعل استخدامها مستحيلًا. وأضاف في خصوصية أننا نقترب الآن من باب البلد المجهول، وأنّه كلما قل عدد الأشخاص الذين نثق بهم كان ذلك أفضل. وتحقيقًا لهذه الغاية، جعل كل واحد منّا يتعهد بشرف ألا ننشر أو نقول أي شيء من شأنه أن يعطي أي دليل دقيق على مكان سفرنا، بينما أقسم جميع الخدم رسميًا على نفس الشيء. ولهذا السبب، أجد نفسي مضطرًا إلى أن أكون غامضًا في سردي، وأود أن أحذر قرائي من أنّه في أي خريطة أو رسم بياني قد أقدم فيه العلاقة بين الأماكن قد تكون صحيحة، لكن نقاط البوصلة مشوشة بعناية، بحيث لا يمكن بأي حال من الأحوال اعتبارها دليلًا فعليًا للبلد. قد تكون أسباب البروفيسور (تشالنجر) للسرية صحيحة أو غير صحيحة، لكن لم يكن أمامنا خيار سوى تبنيها؛ لأنّه كان مستعدًا للتخلي عن الحملة بأكملها بدلًا من تعديل الشروط التي سيرشدنا على أساسها.

كان ذلك في الثاني من أغسطس/ آب عندما قطعنا آخر صلة لنا بالعالم الخارجي بتوديع إزميرالدا. ومنذ ذلك الحين مرت أربعة أيام، استعنا خلالها بزورقين كبيرين من الهنود، مصنوعين من مادة خفيفة للغاية (جلود فوق إطار من الخيزران) بحيث يمكننا

حملهما حول أي عقبة. وقد حملناهما بكل أغراضنا، واستعنا باثنين آخرين من الهنود لمساعدتنا في الملاحة. وأدرك أنّهما نفس الشخصين- أتاكا وإيبتو بالاسم- اللذين رافقا البروفيسور (تشالنجر) في رحلته السابقة. وبدا أنّهما مرعوبان من احتمال تكرارها، ولكن الزعيم يتمتع بسلطات أبوية في هذه البلدان، وإذا كانتِ الصفقة جيدة في نظره، فلن يكون أمام رجل العشيرة خيار كبير في هذا الأمر.

لذا سنختفي غدًا في المجهول. وسأنقل هذه الرواية عبر النهر بالزورق، وقد تكون كلمتنا الأخيرة لأولئك المهتمين بمصيرنا. لقد وجهتْ هذه الرسالة إليك، يا عزيزي السيد (ماكاردل)، وفقًا لاتفاقنا، وأترك لك حرية حذفها أو تعديلها أو فعل ما يحلو لك بها. ومن خلال التأكيد على أسلوب البروفيسور (تشالنجر)- وعلى الرغم من التشكك المستمر من جانب البروفيسور (سمرلي)- لا أشك في أنّ زعيمنا سوف يفي ببيانه، وأنّنا على وشك أن نشهد بعض التجارب الأكثر روعة.

الفصل الثامن

خفر العالم الجديد البعيدون

قد يفرح أصدقاؤنا في الوطن معنا، لأننا وصلنا إلى هدفنا، وأثبتنا إلى حد معين على الأقل أنّ بيان البروفيسور (تشالنجر) يمكن التحقق منه. صحيح أننا لم نصعد الهضبة، لكنها تقع أمامنا، وحتى أنّ البروفيسور (سمرلي) في مزاج أكثر هدوءًا. ليس أنّه سيعترف للحظة بأنّ منافسه قد يكون على حق، لكنّه أقل إصرارًا في اعتراضاته المتواصلة، وقد غرق في صمت مطبق في معظم الوقت. ومع ذلك، يجب أن أعود إلى الوراء وأواصل سرد قصتي من حيث تركتها. نحن نرسل إلى المنزل أحد الهنود المحليين الذي أصيب، وأنا أسلم هذه الرسالة إليه، ولديّ شكوك كبيرة في ذهني حول ما إذا كانتْ ستأتي في متناول اليد أم لا.

عندما كتبتُ آخر مرة كنّا على وشك مغادرة القرية الهندية حيث أودعنا إزميرالدا. يجب أن أبدأ تقريري بأخبار سيئة، فقد حدثتْ أول مشكلة شخصية خطيرة (أتجاوز المشاحنات المتواصلة بين الأساتذة) هذا المساء، وكان من الممكن أن تنتهي بنهاية مأساوية. لقد تحدثتُ عن رجلنا الهجين الناطق بالإنجليزية، (جوميز)- إنّه عامل جيد وزميل متعاون، لكنه، كما أتصور، مصاب برذيلة الفضول، وهي شائعة بدرجة كافية بين هؤلاء الرجال. في الليلة الأخيرة، يبدو أنّه اختبأ بالقرب من الكوخ الذي كنا نناقش فيه خططنا، وعندما لاحظه (زامبو) الزنجي الضخم، الذي يتمتع بالولاء كالكلب ويحمل الكراهية التي يكنها كل أفراد عرقه للسلالات المختلطة، تم جره إلى الخارج وحمله إلى حضورنا. ومع ذلك، أخرج (جوميز) سكينه، ولولا القوة الهائلة التي يتمتع بها آسره،

والتي مكنته من نزع سلاحه بيد واحدة، لكان قد طعنه بالتأكيد. انتهى الأمر بالتوبيخ، واضطر المعارضون إلى مصافحة بعضهم البعض، وهناك كل أمل في أن يكون كل شيء على ما يرام. أما عن الخلافات بين الرجلين المتعلمين، فهي مستمرة ومريرة. ولا بُد أن نعترف بأنّ (تشالنجر) استفزازي إلى أقصى درجة، ولكن (سمرلي) لديه لسان لاذع؛ الأمر الذي يزيد الطين بلة. ففي الليلة الماضية قال (تشالنجر) أنّه لم يهتم قط بالسير على جسر التايمز والنظر إلى النهر، لأنّه من المحزن دائمًا أن يرى المرء هدفه النهائي. وهو مقتنع بالطبع بأنّه مقدر له أن يتوجه إلى دير وستمنستر. ولكن (سمرلي) رد عليه بابتسامة حامضة قائلًا أنّه فهم أنّ سجن ميلبانك قد هُدم. إنّ غرور (تشالنجر) هائل للغاية بحيث لا يسمح له بالانزعاج حقًا. لقد ابتسم فقط في لحيته وكرر «حقًا! حقًا!» بنبرة الشفقة التي يستخدمها المرء مع طفل. والواقع أنّ كلاهما طفلان- أحدهما ذابل ومشاكس، والآخر هائل ومتغطرس، ومع ذلك يتمتع كل منهما بعقل وضعه في الصفوف الأولى من عمره العلمي. العقل، الشخصية، الروح- فقط عندما نرى المزيد من الحياة، نفهم مدى تميز كل منهم.

في اليوم التالي، بدأنا بالفعل هذه الرحلة الرائعة. وجدنا أنّ كلّ ممتلكاتنا يمكن أن تتسع بسهولة في القاربين، وقمنا بتقسيم موظفينا، ستة في كل منهما، متخذين الاحتياط الواضح لصالح السلام بوضع بروفيسور واحد في كل قارب. شخصيًا، أنا كنت مع (تشالنجر)، الذي كان في مزاج سعيد، يتحرك كشخص واحد في نشوة صامتة ويشع باللطف من كل جانب. ومع ذلك، فقد مررتُ ببعض التجارب معه في حالات مزاجية أخرى، ولن أكون مندهشًا عندما تظهر العواصف الرعدية فجأة وسط أشعة الشمس. إذا كان من المستحيل أن تكون مرتاحًا، فمن المستحيل أيضًا أن تكون مملًا في صحبته؛ لأنّ المرء دائمًا في حالة من الشك شبه المرتجفة حول التحول المفاجئ الذي قد يتخذه مزاجه

الهائل.

لمدة يومين، شققنا طريقنا عبر نهر كبير الحجم يبلغ عرضه مئات الأمتار، وكان داكن اللون، ولكنّه شفاف، بحيث يمكن للمرء عادةً رؤية القاع. إنّ روافد نهر الأمازون هي من هذا النوع، في حين أنّ النصف الآخر أبيض اللون ومعتم، ويعتمد الاختلاف على نوع البلد الذي تدفقتْ عبره. يشير اللون الداكن إلى تعفن النباتات، بينما يشير اللون الآخر إلى التربة الطينية. لقد صادفنا منحدرات مرتين، وفي كل مرة قمنا بحمل القوارب لمسافة نصف ميل أو نحو ذلك لتجنبها. كانتِ الغابات على كلا الجانبين بدائية، والتي يسهل اختراقها أكثر من غابات النمو الثاني، ولم نواجه صعوبة كبيرة في حمل قواربنا عبرها. كيف يمكنني أن أنسى اللغز المهيب لهذا الأمر؟ لقد تجاوز ارتفاع الأشجار وسمك جذوعها أي شيء كنتُ لأتخيله في حياتي التي نشأتْ فيها في المدينة، حيث كانتْ تندفع إلى الأعلى في أعمدة مهيبة حتى أنّه على مسافة هائلة فوق رؤوسنا، تمكنّا من تمييز البقعة التي أُخرجتْ منها فروعها الجانبية في منحنيات قوطية صاعدة اندمجتْ لتشكل سقفًا واحدًا كبيرًا من الخضرة، حيث كان شعاع ذهبي عرضي فقط من أشعة الشمس ينطلق إلى الأسفل ليرسم خطًا رفيعًا مبهرًا من الضوء وسط الغموض المهيب. وبينما كنّا نسير بصمت وسط السجادة السميكة الناعمة من النباتات المتحللة، سقط الصمت على أرواحنا الذي يأتي إلينا في شفق الدير، وحتى ملاحظات البروفيسور (تشالنجر) الممتلئة الصدر غرقتْ في همس. لو كنتُ وحدي لأجهل أسماء هذه الأشجار العملاقة، لكن رجالنا من العلماء أشاروا إلى أشجار الأرز، وأشجار القطن الحريرية الضخمة، وأشجار الخشب الأحمر، مع كل هذه الوفرة من النباتات المتنوعة التي جعلتْ هذه القارة المورد الرئيسي للجنس البشري من هدايا الطبيعة التي تعتمد على عالم النبات، في حين أنّها الأكثر تخلفًا في تلك المنتجات التي تأتي من الحياة الحيوانية. كانتِ زهور الأوركيد الزاهية والأشنة الملونة

الرائعة تتوهج على جذوع الأشجار الداكنة، وحيث سقط شعاع الضوء المتجول بالكامل على الألاماندا الذهبية، أو مجموعات النجوم القرمزية لنبات التاكسونيا، أو الأزرق الداكن الغامق لنبات الإيبوميا، كان التأثير أشبه بحلم من أرض الجنيات. في هذه الغابات القاحلة العظيمة، تكافح الحياة، التي تكره الظلام، صعودًا إلى النور. كل نبات، حتى الأصغر منها، يتجعد ويتلوى على السطح الأخضر، ويلتوي حول إخوته الأقوى والأطول في الجهد. كانتِ النباتات المتسلقة ضخمة ووافرة، ولكن هناك نباتات أخرى لم يُعرف عنها أنّها كانتْ تتسلق في أي مكان آخر، ولكنّها تعلمتْ فن التسلق كوسيلة للهروب من ذلك الظل الكئيب، بحيث يمكن رؤية نبات القراص، والياسمين، وحتى شجرة نخيل الجاسيتارا وهي تدور حول سيقان أشجار الأرز وتسعى للوصول إلى تيجانها. ولم تكن هناك حركة في الحياة الحيوانية وسط الممرات المقببة المهيبة التي امتدتْ منّا أثناء سيرنا، ولكن الحركة المستمرة فوق رؤوسنا كانتْ تحكي عن ذلك العالم المتعدد من الثعابين والقرود والطيور والكسلان، التي كانتْ تعيش في ضوء الشمس، وتنظر إلى أسفل في دهشة إلى أشكالنا الصغيرة المظلمة المتعثرة في الأعماق الغامضة تحتها. عند الفجر وعند غروب الشمس، كانتْ قرود العواء تصرخ معًا، وكانتِ الببغاوات تثرثر بصوت عالٍ، ولكن خلال ساعات النهار الحارة، لم يكن هناك سوى هدير الحشرات، مثل دقات أمواج بعيدة، يملأ الأذن، بينما لم يكن هناك شيء يتحرك وسط المناظر المهيبة لجذوع الأشجار الضخمة، التي تتلاشى في الظلام الذي حبسنا فيه. ذات مرة، اندفع مخلوق ذو أرجل ملتوية، آكل نمل أو دب، بشكل أخرق وسط الأشجار. كانتْ هذه الرؤيا الوحيدة للحياة على الأرض التي رأيتها في غابة الأمازون الكبيرة هذه.

ولكن كانتْ هناك مؤشرات على أنّ الحياة البشرية نفسها لم تكن بعيدة عنّا في تلك الأماكن الغامضة. ففي اليوم الثالث، أدركنا نبضًا عميقًا غريبًا في الهواء، إيقاعيًا ومهيبًا،

يأتي ويذهب بشكل متقطع طوال الصباح. كان القاربان يتجولان على بعد بضعة أمتار من بعضهما البعض عندما سمعنا ذلك لأول مرة، وظل الهنود بلا حراك، وكأنّهم تحولوا إلى برونز، يستمعون باهتمام وتعابير الرعب على وجوههم.

«ما الأمر إذن؟» سألتُ.

«طبول»، قال اللورد (جون) بلا مبالاة؛ «طبول حرب. لقد سمعتها من قبل».

«نعم سيدي، طبول حرب»، قال (جوميز)، الهجين. «الهنود المتوحشون، الشجعان، وليسوا المانسو؛ يراقبوننا على كل ميل من الطريق؛ يقتلوننا إذا استطاعوا».

«كيف يمكنهم مراقبتنا؟» سألتُ، وأنا أنظر إلى الفراغ المظلم الثابت.

هز الهجين كتفيه العريضتين. «الهنود يعرفون ذلك. لديهم طريقتهم الخاصة. إنهم يراقبوننا. يتحدثون مع بعضهم البعض مثل الطبول. يقتلوننا إذا استطاعوا».

بحلول فترة ما بعد الظهر من ذلك اليوم- يظهر لي دفتر يومياتي أنّ اليوم كان الثلاثاء، الثامن عشر من أغسطس- كان هناك ما لا يقل عن ستة أو سبعة طبول تدق من نقاط مختلفة. كانتْ تدق أحيانًا بسرعة، وأحيانًا ببطء، وأحيانًا على شكل سؤال وجواب واضحين، وكان أحدها في الشرق البعيد ينفجر في خشخشة عالية متقطعة، ثم يتبعه بعد توقف دقات عميقة من الشمال. كان هناك شيء لا يوصف يزعزع الأعصاب ويهدد في تلك الهمهمات المستمرة، والتي بدتْ وكأنها تتشكل في مقاطع لفظية من نفس السلالة الهجينة، والتي تتكرر بلا نهاية، «سنقتلكم إذا استطعنا، سنقتلكم إذا استطعنا». لم يتحرك أحد قط في الغابة الصامتة. كان كل السلام والهدوء الذي توفره الطبيعة الهادئة يكمن في ذلك الستار المظلم من النباتات، ولكن بعيدًا عن الخلف كانتِ الرسالة الوحيدة من

إخواننا البشر تأتي دائمًا. «سنقتلكم إذا استطعنا»، قال الرجال في الشرق .«سوف نقتلكم إذا استطعنا ذلك»، قال الرجال في الشمال.

لقد كانتِ الطبول تدوي وتهمس طوال اليوم، بينما كان تهديدها ينعكس على وجوه رفاقنا الملونين. حتى الهجين الشجاع المتغطرس بدا خائفًا. ومع ذلك، فقد علمتُ في ذلك اليوم مرة واحدة وإلى الأبد أنّ كلًا من (سمرلي) و(تشالنجر) يتمتعان بأعلى درجات الشجاعة، شجاعة العقل العلمي. كانتْ روحهما هي التي دعمتْ داروين بين رعاة البقر في الأرجنتين أو والاس بين صيادي الرؤوس في مالايا. لقد قضتِ الطبيعة الرحيمة بأنّ العقل البشري لا يستطيع التفكير في شيئين في وقت واحد، وبالتالي إذا كان غارقًا في الفضول فيما يتعلق بالعلم، فلن يكون لديه مجال للاعتبارات الشخصية فحسب. طوال اليوم، وسط هذا التهديد المتواصل والغامض، كان أستاذانا يراقبان كل طائر يحلق في السماء، وكل شجيرة على ضفة النهر، في جدال حاد، عندما جاء هدير (سمرلي) سريعًا على هدير (تشالنجر) العميق، ولكن دون أي شعور بالخطر أو إشارة إلى الهنود الذين يقرعون الطبول كما لو كانوا جالسين معًا في غرفة التدخين في نادي الجمعية الملكية في شارع سانت جيمس. مرة واحدة فقط تنازلوا لمناقشة الأمر.

قال (تشالنجر)، وهو يحرك إبهامه نحو الخشب المتردد: «آكلي لحوم البشر من ميرانها أو أماجواكا».

أجاب (سمرلي): «بدون شك، سيدي. مثل كل هذه القبائل، أتوقع أن أجدهم يتحدثون بلغة متعددة التركيب ومن النوع المنغولي».

قال (تشالنجر)، متسامحًا: «متعدد التركيب بالتأكيد». «لا أعلم بوجود أي نوع آخر من اللغات في هذه القارة، ولدي ملاحظات عن أكثر من مائة لغة. أما النظرية المنغولية

فأنظر إليها بريبة شديدة».

«كنتُ لأتصور أنّ حتى المعرفة المحدودة بالتشريح المقارن كانتْ لتساعد في التحقق من صحتها»، قال (سمرلي) بمرارة.

مدّ (تشالنجر) ذقنه العدواني حتى أصبح ملتحيًا بالكامل وقبعته. «لا شك، سيدي، أنّ المعرفة المحدودة من شأنها أن تخلف هذا التأثير. فعندما تكون معرفة المرء مستنفدة، فإنّه يصل إلى استنتاجات أخرى». حدق كل منهما في الآخر في تحد متبادل، بينما ارتفع الهمس البعيد من حوله، «سنقتلكم- سنقتلكم إذا استطعنا».

في تلك الليلة، ربطنا زوارقنا بالحجارة الثقيلة كمرساة في وسط النهر، وقمنا بكل الاستعدادات لهجوم محتمل.

ولكن لم يحدث شيء، ومع بزوغ الفجر، انطلقنا في طريقنا، وتلاشى قرع الطبول خلفنا. في حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر وصلنا إلى منحدر شديد الانحدار، يبلغ طوله أكثر من ميل واحد- وهو المنحدر الذي عانى فيه البروفيسور (تشالنجر) من كارثة في رحلته الأولى. وأعترف أنّ رؤية هذا المنحدر عززتني؛ لأنّه كان في الحقيقة أول تأكيد مباشر، مهما كان ضئيلًا، على حقيقة قصته. حمل الهنود أولًا زوارقنا ثم مؤننا عبر الغابات الكثيفة، التي كانتْ كثيفة للغاية في هذه النقطة، بينما كنا نحن الأربعة البيض، وبنادقنا على أكتافنا، نسير بينهم وبين أي خطر قادم من الغابة. وقبل المساء، نجحنا في عبور المنحدرات، وشقنا طريقنا على بعد عشرة أميال فوقها، حيث رسونا ليلتنا. وفي هذه المرحلة، حسبتُ أننا قطعنا ما لا يقل عن مائة ميل على طول الرافد من النهر الرئيسي.

كان ذلك في وقت مبكر من صباح اليوم التالي عندما بدأنا رحلتنا الكبرى. ومنذ الفجر كان البروفيسور (تشالنجر) مضطربًا بشكل حاد، وكان يفحص كل ضفة من

ضفتي النهر باستمرار. فجأة، أطلق صرخة رضى وأشار إلى شجرة واحدة، كانتْ تبرز بزاوية غريبة على جانب النهر.

سأل: «ماذا تعتقد في هذا؟».

قال سمرلي: «إنّها بالتأكيد شجرة نخيل أساي».

«الضبط. كانتْ نخلة أساي هي التي اتخذتها معلمًا لي. يقع المدخل السري على بعد نصف ميل إلى الأمام على الجانب الآخر من النهر. لا يوجد انقطاع في الأشجار. هذا هو العجب والغموض في الأمر. هناك حيث ترى نباتات القصب الخضراء الفاتحة بدلًا من النباتات الخضراء الداكنة، هناك بين غابات القطن الكبيرة، تلك هي بوابتي الخاصة إلى المجهول. اندفع عبرها وستفهم».

لقد كان مكانًا رائعًا حقًا. بعد أن وصلنا إلى المكان المحدد بخط من نباتات القصب الخضراء الفاتحة، انطلقنا بزورقين عبرها لعدة مئات من الأمتار، وخرجنا في النهاية إلى مجرى هادئ وضحل، يجري واضحًا وشفافًا فوق قاع رملي. ربما كان عرضه عشرين ياردة، وكان مائلًا على كل جانب من النباتات المورقة. لا يمكن لأي شخص لم يلحظ أنّ القصب قد حل محل الشجيرات لمسافة قصيرة، أن يخمن وجود مثل هذا المجرى أو يحلم بأرض الخيال وراءه.

لقد كان هذا المكان أشبه بأرض خيالية، بل إنّه كان أروع ما يمكن لخيال الإنسان أن يتخيله. فقد كانتِ النباتات الكثيفة تلتقي في الأعلى، وتتشابك لتشكل مظلة طبيعية، ومن خلال هذا النفق من الخضرة في شفق ذهبي كان يتدفق النهر الأخضر الشفاف، الجميل في حد ذاته، ولكنه كان رائعًا بسبب الألوان الغريبة التي يلقيها الضوء الساطع من الأعلى، والذي كان يتخلله ويعتدل في سقوطه. كان النهر صافيًا كالبلور، ثابتًا كقطعة

من الزجاج، أخضر كحافة جبل جليدي، يمتد أمامنا تحت قوسه المورق، وكانتْ كل ضربة من ضربات مجاديفنا ترسل آلاف التموجات عبر سطحه اللامع. لقد كان طريقًا مناسبًا لأرض العجائب. لقد اختفتْ كل علامات الهنود، لكن الحياة الحيوانية كانتْ أكثر تكرارًا، وأظهرتْ لطف المخلوقات أنّها لا تعرف شيئًا عن الصياد. كانتْ قرود صغيرة سوداء مخملية، ذات أسنان بيضاء كالثلج وعيون لامعة ساخرة، تثرثر فينا أثناء مرورنا. كان الكيهان يغوص من الضفة أحيانًا برذاذ ثقيل باهت. وذات مرة، حدق فينا حيوان التابير الأخرق الداكن من فجوة بين الشجيرات، ثم انطلق مبتعدًا عبر الغابة؛ وذات مرة، طار شكل الفهد الأصفر المتعرج وسط الأدغال، وتحدق عيناه الخضراوان الشريرتان فينا بالكراهية من فوق كتفه الأسمر. كانت حياة الطيور وفيرة، وخاصة الطيور الخواضة، واللقلق، والبلشون، والبوذي، التي كانتْ تتجمع في مجموعات صغيرة، زرقاء، وقرمزية، وبيضاء، على كل جذع شجرة بارز من الضفة، بينما كانتِ المياه البلورية تحتنا تعج بالأسماك من كل شكل ولون.

لمدة ثلاثة أيام، شققنا طريقنا عبر هذا النفق من أشعة الشمس الخضراء الضبابية. في المسافات الأطول، بالكاد يستطيع المرء أن يميز عندما ينظر إلى الأمام أين تنتهي المياه الخضراء البعيدة وأين تبدأ القنطرة الخضراء البعيدة. لم يقطع السلام العميق في هذا الممر المائي الغريب أي علامة على وجود الإنسان.

قال (جوميز): «لا يوجد هندي هنا. كوربوري خائفون للغاية».

«كوروبوري هي روح الغابة»، أوضح اللورد (جون). «إنّه اسم لأي نوع من الشياطين. يعتقد المتسولون الفقراء أنّ هناك شيئًا مخيفًا في هذا الاتجاه، وبالتالي يتجنبونه».

في اليوم الثالث، أصبح من الواضح أنّ رحلتنا في الزوارق لا يمكن أن تستمر لفترة

أطول، حيث أصبح النهر ضحلًا بسرعة. مرتين في غضون ساعات عديدة، علِقنا في القاع. أخيرًا، سحبنا القاربين بين الشجيرات وقضينا الليل على ضفة النهر. في الصباح، شق اللورد (جون) وأنا طريقنا لبضعة أميال عبر الغابة، بالتوازي مع النهر؛ ولكن مع ازدياد ضحالة النهر، عدنا وأبلغنا، بما كان يشتبه به البروفيسور (تشالنجر) بالفعل، أننا وصلنا إلى أعلى نقطة يمكن إحضار الزوارق إليها. لذلك، رفعناها وأخفيناها بين الشجيرات، ووضعنا علامة على شجرة بفؤوسنا، حتى نتمكن من العثور عليها مرة أخرى. ثم قمنا بتوزيع الأعباء المختلفة بيننا- البنادق والذخيرة والطعام وخيمة والبطانيات وبقية الأشياء- وحملنا أمتعتنا على أكتافنا وانطلقنا إلى المرحلة الأكثر صعوبة في رحلتنا.

لقد كان خلاف مؤسف بين أواني الفلفل هو بداية مرحلتنا الجديدة. منذ لحظة انضمامه إلينا، أصدر (تشالنجر) توجيهات إلى المجموعة بأكملها، مما أثار استياء (سمرلي) الواضح. والآن، بعد أن كلف زميله البروفسور ببعض المهام (لم تكن سوى حمل مقياس ضغط سائل)، وصلتِ المسألة فجأة إلى ذروتها.

«هل لي أن أسأل، سيدي»، قال (سمرلي) بهدوء شرس، «بأي صفة تأخذ على عاتقك إصدار هذه الأوامر؟».

حدق (تشالنجر) وشعر بالانزعاج.

«أنا أفعل ذلك، أستاذ سمرلي، بصفتي قائد هذه البعثة».

«أنا مضطر لإخبارك، سيدي، أنني لا أعرفك بهذه الصفة».

«بالفعل!» انحنى (تشالنجر) بسخرية ثقيلة. «ربما تحدد موقفي بالضبط».

«نعم، سيدي. أنت رجل صدقك على المحك، وهذه اللجنة هنا لتجربته. أنت تمشي، سيدي، مع قضاتك».

«يا إلهي!» قال (تشالنجر)، وهو يجلس على جانب أحد الزوارق. «في هذه الحالة، ستواصل طريقك بالطبع، وسأتبعك على راحتي. إذا لم أكن القائد فلا يمكنك أن تتوقع مني أن أقودك».

الحمد لله أنّ هناك رجلين عاقلين- اللورد (جون روكستون) وأنا- لمنع غضب وحماقة أساتذتنا المتعلمين من إعادتنا خاليي الوفاض إلى لندن. مثل هذا الجدال والتوسل والشرح قبل أن نتمكن من تهدئتهم! ثم أخيرًا، تقدم (سمرلي)، بسخريته وغليونه، وجاء (تشالنجر) بعده متذمرًا. ولحسن الحظ اكتشفنا في هذا الوقت تقريبًا أنّ كلًا من عالمينا كان لهما أسوأ رأي في الدكتور (إلينجورث) من إدنبرة. منذ ذلك الحين أصبح هذا هو سلامتنا الوحيدة، وتم تخفيف كل المواقف المتوترة من خلال تقديم اسم عالم الحيوان الاسكتلندي، عندما شكّل كلا أستاذينا تحالفًا مؤقتًا وصداقة في كراهيتهم وإساءة معاملتهم لهذا المنافس المشترك.

تقدمنا في صف واحد على طول ضفة النهر، وسرعان ما اكتشفنا أنّه يضيق إلى مجرد جدول، وأخيرًا يضيع في مستنقع أخضر كبير من الطحالب الشبيهة بالإسفنج، حيث غرقنا فيه حتى ركبنا. كان المكان مسكونًا بسحب من البعوض وكل أشكال الآفات الطائرة، لذلك كنا سعداء بالعثور على أرض صلبة مرة أخرى والقيام بجولة بين الأشجار، مما مكننا من تجاوز هذا المستنقع الوبائي، الذي كان يطن مثل الأرغن عن بعد، وكان صاخبًا بحياة الحشرات.

في اليوم الثاني بعد مغادرة زوارقنا، وجدنا أنّ طابع البلد بأكمله قد تغير. كان طريقنا

صاعدًا باستمرار، ومع صعودنا أصبحتِ الغابات أرق وفقدتْ خصوبتها الاستوائية. أفسحتِ الأشجار الضخمة في سهل الأمازون الرسوبي مكانها لأشجار الفينيق ونخيل جوز الهند، التي تنمو في كتل متناثرة، مع وجود شجيرات كثيفة بينها. في الوديان الرطبة. كانتْ أشجار النخيل الموريتانية ترمي بأوراقها المتدلية الرشيقة. سافرنا بالكامل باستخدام البوصلة، وحدثتْ مرة أو مرتين اختلافات في الرأي بين (تشالنجر) والهنديين، عندما اتفقتِ المجموعة بأكملها، على حد تعبير البروفيسور الساخط، على «الثقة في الغرائز الخاطئة للمتوحشين غير المتطورين بدلًا من أفضل إنتاج للثقافة الأوروبية الحديثة». وقد تبين لنا في اليوم الثالث أننا كنّا على حق في القيام بذلك؛ عندما اعترف (تشالنجر) بأنّه تعرف على العديد من المعالم البارزة لرحلته السابقة، وفي أحد الأماكن صادفنا أربعة أحجار سوداء بفعل النار، والتي لابُد أنّها كانتْ تشير إلى مكان للتخييم.

لا يزال الطريق صاعدًا، وعبرنا منحدرًا مرصعًا بالصخور استغرق عبوره يومين. لقد تغيرتِ النباتات مرة أخرى، ولم يبق سوى شجرة العاج النباتية، مع وفرة كبيرة من بساتين الفاكهة الرائعة، والتي تعلمتُ من بينها التعرف على نبات نوتونيا فيكسيلاريا النادر وأزهار؛ كاتليا واودونتوغلوسوم الوردية والقرمزية الرائعة. كانتِ الجداول العرضية ذات القيعان الحصوية والضفاف المكسوة بالسراخس تتدفق من الوديان الضحلة في التل، وتوفر أماكن جيدة للتخييم كل مساء على ضفاف بعض البرك المرصعة بالصخور، حيث كانتْ أسراب الأسماك الصغيرة ذات الظهر الأزرق، بحجم وشكل سمك السلمون المرقط الإنجليزي، تقدم لنا عشاءً لذيذًا.

في اليوم التاسع بعد مغادرة الزوارق، وبعد أن قطعنا، على حد تقديري، نحو مائة وعشرين ميلًا، بدأنا نخرج من بين الأشجار التي صغر حجمها حتى أصبحتْ مجرد شجيرات وحل محلها برية هائلة من الخيزران، نمتْ بكثافة لدرجة أننا لم نتمكن من

اختراقها إلا من خلال شق طريق باستخدام المدية ومناجل الهنود. استغرق الأمر منّا يومًا طويلًا، من السابعة صباحًا حتى الثامنة مساءً، مع استراحتين فقط لمدة ساعة لكل منهما، لتجاوز هذه العقبة. لم يكن من الممكن تخيل أي شيء أكثر رتابة وإرهاقًا، فحتى في الأماكن الأكثر انفتاحًا، لم أستطع أن أرى أكثر من عشرة أو اثنتي عشرة ياردة، بينما كانتْ رؤيتي تقتصر عادةً على ظهر سترة اللورد (جون) القطنية أمامي، والجدار الأصفر على بعد قدم مني على كلا الجانبين. من الأعلى جاء شعاع رقيق من أشعة الشمس، وعلى بعد خمسة عشر قدمًا فوق رؤوسنا رأينا قمم القصب تتأرجح مقابل السماء الزرقاء العميقة. لا أعرف أي نوع من المخلوقات تعيش في مثل هذه الغابة الكثيفة، ولكننا سمعنا عدة مرات أصوات حيوانات ضخمة وثقيلة تغوص بالقرب منا. ومن أصواتها حكم اللورد (جون) بأنّها نوع من الماشية البرية. وبمجرد حلول الليل، قمنا بمسح حزام الخيزران، وشكلنا معسكرنا على الفور، منهكين من النهار الطويل.

وفي وقت مبكر من صباح اليوم التالي، كنّا نسير على الأقدام مرة أخرى، ووجدنا أنّ طابع المنطقة قد تغير مرة أخرى. كان خلفنا جدار الخيزران، واضحًا كما لو كان يحدد مجرى النهر. وفي المقدمة كان هناك سهل مفتوح، ينحدر قليلًا إلى الأعلى ومرصع بمجموعات من أشجار السرخس، وكان ينحني بالكامل أمامنا حتى انتهى إلى سلسلة طويلة من التلال التي تظهر على شكل قمم كظهر الحيتان. وصلنا إلى هذا التل حوالي منتصف النهار، فقط لنجد واديًا ضحلًا خلفه، يرتفع مرة أخرى إلى منحدر لطيف يؤدي إلى خط أفق منخفض ومستدير. وهنا، بينما كنا نعبر أول هذه التلال، حدث حادث قد يكون أو لا يكون مهمًا.

توقف فجأة البروفيسور (تشالنجر)، الذي كان برفقة الهنود المحليين في طليعة المجموعة، وأشار بحماس إلى اليمين. وبينما كان يفعل ذلك، رأينا على مسافة ميل أو نحو

ذلك شيئًا بدا وكأنه طائر رمادي ضخم يرفرف ببطء عن الأرض ويطير بسلاسة بعيدًا، ويطير منخفضًا جدًا ومستقيمًا، حتى ضاع بين أشجار السرخس.

صاح (تشالنجر) في ابتهاج: «هل رأيته؟». «سمرلي، هل رأيته؟».

كان زميله يحدق في المكان الذي اختفى فيه المخلوق. سأل: «ماذا تدعي أنّه كان؟».

«في اعتقادي، إنّه طائر زاحف مجنح».

انفجر (سمرلي) في ضحك ساخر وقال: «طائر زاحف مجنح!». «لقد كان لقلقًا، إذا كنت قد رأيته».

كان (تشالنجر) غاضبًا للغاية لدرجة أنّه لم يستطع التحدث. لقد أرجح حقيبته ببساطة على ظهره واستمر في مسيرته. ولكن اللورد (جون) مر بجانبي، وكان وجهه أكثر جدية مما اعتاد عليه. وكان يحمل نظارته من نوع زيس في يده.

قال: «لقد ركزتُ عليه قبل أن يتجاوز الأشجار. لن أتعهد بأن أقول ما هو، ولكنني سأخاطر بسمعتي كرجل رياضي بأنّ هذا الطائر لم يكن أي طائر رأيته في حياتي».

وهنا تكمن المسألة. هل نحن حقًا على حافة المجهول، ونواجه الأتباع البعيدين لهذا العالم المفقود الذي يتحدث عنه زعيمنا؟ سأروي لكم الحادثة كما حدثتْ وستعرفون بقدر ما أعرف. إنّها حادثة منفردة؛ لأنّنا لم نر شيئًا آخر يمكن أن نسميه رائعًا.

والآن، أيها القراء، إذا كان لدي أي شيء، فقد اصطحبتكم إلى النهر العريض، ومن خلال حاجز القصب، ومن خلال النفق الأخضر، ومن خلال المنحدر الطويل لأشجار النخيل، ومن خلال حاجز الخيزران، وعبر سهل السرخس الشجري. وأخيرًا، كانتْ وجهتنا في مرمى بصرنا تمامًا. عندما عبرنا التلال الثانية رأينا أمامنا سهلًا غير منتظم

مرصعًا بأشجار النخيل، ثم خطًا من المنحدرات الحمراء العالية التي رأيتها في الصورة. هناك تقع، حتى وأنا أكتب، ولا شك أنّه هو نفسه. في أقرب نقطة، تبعد حوالي سبعة أميال عن معسكرنا الحالي، وهي تنحني بعيدًا، وتمتد إلى أبعد ما أستطيع أن أرى. يتبختر (تشالنجر) مثل الطاووس الفائز، بينما (سمرلي) صامت، لكنّه لا يزال متشككًا. يجب أن يضع يوم آخر نهاية لبعض شكوكنا. في غضون ذلك، بينما يصر خوسيه، الذي ثقب ذراعه بخيزران مكسور، على العودة، أنا أرسل هذه الرسالة على مسؤوليته، وآمل فقط أن تصل في النهاية. سأكتب مرة أخرى عندما تسمح المناسبة. لقد أرفقتُ بهذا مخططًا تقريبيًا لرحلتنا، والذي قد يكون له تأثير في جعل القصة أسهل للفهم.

الفصل التاسع

من كان ليتوقع ذلك؟

لقد حدث لنا أمر مروّع. من كان ليتوقع حدوثه؟ لا أستطيع أن أتنبأ بأي نهاية لمشاكلنا. ربما يكون من المحكوم علينا أن نقضي حياتنا كلها في هذا المكان الغريب الذي لا يمكن الوصول إليه. ما زلتُ مرتبكًا لدرجة أنني بالكاد أستطيع التفكير بوضوح في حقائق الحاضر أو في فرص المستقبل. بالنسبة لحواسي المذهولة، يبدو الأمر الأول مروّعًا للغاية والآخر أسود مثل الليل.

لم يجد أيّ رجل نفسه في موقف أسوأ من هذا؛ ولا فائدة من الكشف لكم عن موقعنا الجغرافي الدقيق وطلب فريق إغاثة من أصدقائنا. حتى لو تمكنوا من إرسال فريق إغاثة، فإن مصيرنا سيتقرر في جميع الاحتمالات البشرية قبل وقت طويل من وصوله إلى أمريكا الجنوبية.

نحن في الحقيقة بعيدون عن أي مساعدة بشرية كما لو كنا على القمر. إذا أردنا أن ننتصر، فإنّ صفاتنا فقط هي التي يمكن أن تنقذنا. لديّ ثلاثة رجال رائعين كرفاق، رجال يتمتعون بقوة عقلية كبيرة وشجاعة لا تتزعزع. هناك يكمن أملنا الوحيد. لم أر بريقًا في الظلام إلا حين نظرتُ إلى وجوه رفاقي الهادئة. ظاهريًا، كنتُ أثق في أنني أبدو غير مكترث مثلهم. أما داخليًا، فقد امتلأتُ بالخوف.

اسمحوا لي أن أسرد لكم، بكل ما أستطيع من تفاصيل، تسلسل الأحداث التي أدتْ بنا إلى هذه الكارثة.

عندما انتهيتُ من رسالتي الأخيرة، ذكرتُ أننا كنّا على بعد سبعة أميال من خط ضخم من المنحدرات الحمراء، التي تحيط، بلا أدنى شك، بالهضبة التي تحدث عنها البروفيسور (تشالنجر). بدا لي ارتفاعها، عندما اقتربنا منها، في بعض الأماكن أعظم مما ذكره- حيث وصل ارتفاعها في بعض الأجزاء إلى ألف قدم على الأقل- وكانتْ مخططة بشكل غريب، بطريقة أعتقد أنّها من سمات الاضطرابات البازلتية. يمكن رؤية شيء من هذا القبيل في صخور سالزبوري في إدنبرة. أظهرتِ القمة كل علامات الغطاء النباتي الخصب، مع وجود شجيرات بالقرب من الحافة، والعديد من الأشجار العالية في الخلف. لم يكن هناك أي مؤشر على أي حياة يمكننا رؤيتها.

في تلك الليلة نصبنا مخيمنا مباشرة تحت الجرف- وهو مكان قفر وموحش للغاية. لم تكن المنحدرات فوقنا عمودية فحسب، بل كانتْ منحنية إلى الخارج عند القمة، لذا كان الصعود مستحيلًا. وبالقرب منّا كانتْ هناك قمة صخرية رفيعة عالية أعتقد أنني ذكرتها في وقت سابق في هذه الرواية. إنها تشبه برج كنيسة أحمر عريض، حيث كانتْ قمتها على مستوى الهضبة، لكن كانتْ هناك فجوة كبيرة بينهما. وعلى قمة هذه القمة كانتْ تنمو شجرة عالية. وكانتْ كل من القمة والجرف منخفضتين نسبيًا- حوالي خمسمائة أو ستمائة قدم، على ما أظن.

قال البروفيسور (تشالنجر)، مشيرًا إلى هذه الشجرة: «كانتْ تلك الشجرة هي التي وقف عليها الزاحف المجنح. تسلقتُ نصف الطريق إلى أعلى الصخرة قبل أن أطلق النار عليه. وأنا أميل إلى الاعتقاد بأنّ متسلق جبال ماهرًا مثلي يمكنه صعود الصخرة إلى القمة، رغم أنّه لن يكون بالطبع أقرب إلى الهضبة عندما يفعل ذلك».

بينما كان (تشالنجر) يتحدث عن زاحفه المجنح، ألقيتُ نظرة خاطفة على البروفسور

(سمرلي)، ولأول مرة بدا لي أنني أرى بعض علامات السذاجة والتوبة. لم يكن هناك أي سخرية على شفتيه الرقيقتين، بل على العكس من ذلك، كانتْ هناك نظرة رمادية متوترة من الإثارة والدهشة. رأى (تشالنجر) ذلك أيضًا، واستمتع بأول طعم للنصر.

«بالطبع»، قال بسخرية خرقاء ومملة، «سوف يفهم البروفسور سمرلي أنني عندما أتحدث عن طائر مجنح فإنني أعني اللقلق- فقط هو نوع اللقلق الذي ليس له ريش، وجلد جلدي، وأجنحة غشائية، وأسنان في فكيه». ابتسم وأومأ برأسه وانحنى حتى استدار زميله وابتعد.

في الصباح، وبعد تناول وجبة إفطار مقتصدة من القهوة ونبات المنيهوت- كان لزامًا علينا أن نقتصد في مؤونتنا- عقدنا مجلس حرب بشأن أفضل السبل للصعود إلى الهضبة التي تعلو رؤوسنا.

وترأس (تشالنجر) المجلس بوقار وكأنّه رئيس قضاة المحكمة العليا. تخيلوه جالسًا على صخرة، وقبعته القشية الصبيانية السخيفة مائلة على مؤخرة رأسه، وعيناه المتغطرستان تهيمنان علينا من تحت جفونه المتدلية، ولحيته السوداء الضخمة تهتز وهو يحدد ببطء موقفنا الحالي وتحركاتنا المستقبلية.

تحته، ربما رأيتنا نحن الثلاثة- أنا، المحروق من الشمس، الشباب القوي بعد تجوالنا في الهواء الطلق؛ و (سمرلي)، الذي كان مهيبًا ولكنه لا يزال ناقدًا، خلف غليونه الأبدي؛ واللورد (جون)، الذي كان حادًا مثل شفرة حلاقة، بجسده المرن اليقظ، متكئًا على بندقيته، وعيناه المتلهفتان مثبتتَين بلهفة على المتحدث .وخلفنا كان هناك اثنان من الهنود ذوي البشرة الداكنة وعصابة صغيرة من الهنود، بينما كانتْ تلك الأضلاع الضخمة الحمراء من الصخور تقف أمامنا وفوقنا، والتي كانتْ تمنعنا من الوصول إلى هدفنا.

«لا أحتاج إلى القول»، قال قائدنا، «أنني في مناسبة زيارتي الأخيرة استنفدتُ كل الوسائل لتسلق الجرف، وفي الحالات التي فشلتُ فيها لا أعتقد أنّ أي شخص آخر من المرجح أن ينجح، لأنني متسلق جبال نوعًا ما. لم يكن معي أي من أدوات تسلق الصخور، لكنني اتخذتُ الاحتياطات اللازمة لإحضارها الآن. بمساعدتهم أنا متأكد من أنني أستطيع تسلق تلك القمة المنفصلة؛ ولكن ما دام الجرف الرئيسي بارزًا، فمن العبث محاولة تسلق ذلك. لقد كنتُ مستعجلًا في زيارتي الأخيرة بسبب اقتراب موسم الأمطار ونفاد إمداداتي. هذه الاعتبارات حدتْ من وقتي، ولا أستطيع إلا أن أزعم أنني مسحتُ حوالي ستة أميال من الجرف إلى الشرق منّا، ولم أجد أي طريق ممكن للصعود. ماذا، إذن، يجب أن نفعل الآن؟».

«يبدو أنّ هناك مسارًا معقولًا واحدًا فقط»، قال الأستاذ (سمرلي). «إذا استكشفت الشرق، فيجب أن نسافر على طول قاعدة الجرف إلى الغرب، ونبحث عن نقطة عملية للصعود».

«إنّه كذلك»، قال اللورد (جون). «من المرجح أنّ هذه الهضبة ليستْ كبيرة الحجم، وسنسافر حولها حتى نجد طريقًا سهلًا للصعود إليها، أو نعود إلى النقطة التي بدأنا منها».

«لقد أوضحتَ للتو لصديقنا الشاب هنا»، قال (تشالنجر) (لديه طريقة للتلميح إلي كما لو كنت طفلًا في المدرسة يبلغ من العمر عشر سنوات)، «أنّه من المستحيل تمامًا أن يكون هناك طريق سهل للصعود في أي مكان، والسبب البسيط هو أنّه إذا كان هناك طريق سهل للصعود فلن تكون القمة معزولة، ولن تتوفر تلك الظروف التي أثرتْ على مثل هذا التدخل الغريب في القوانين العامة للبقاء على قيد الحياة. ومع ذلك، أعترف أنّه قد تكون هناك أماكن حيث قد يصل متسلق بشري خبير إلى القمة، ومع ذلك لا يستطيع

حيوان ضخم وثقيل النزول. من المؤكد أنّ هناك نقطة حيث يكون الصعود ممكنًا».

«كيف عرفتَ ذلك يا سيدي؟» سأل (سمرلي) بحدة.

«لأنّ سلفي، الأمريكي مابل وايت، قام بالفعل بمثل هذا الصعود. كيف كان ليتمكن من رؤية الوحش الذي رسمه في دفتر ملاحظاته؟».

قال (سمرلي) العنيد: «هأنت تسبق الحقائق المؤكدة إلى حد ما. أعترف بوجود هضبتك، لأنّني رأيتها؛ لكنني لم أقتنع بعد بأنّها تحتوي على أي شكل من أشكال الحياة».

«ما تعترف به يا سيدي، أو ما لا تعترف به، هو في الحقيقة ذو أهمية ضئيلة بشكل لا يمكن تصوره. يسعدني أن أدرك أنّ الهضبة نفسها قد فرضتْ نفسها على ذكائك بالفعل». نظر إليها، ثم، لدهشتنا، قفز من صخرته، وأمسك (سمرلي) من رقبته، وأمال وجهه في الهواء. صاح بصوت أجش من الإثارة: «الآن يا سيدي!». «هل أساعدك على إدراك أنّ الهضبة تحتوي على بعض أشكال الحياة الحيوانية؟».

لقد قلتُ أنّ حافة سميكة من اللون الأخضر كانتْ تتدلى فوق حافة الجرف. وخرج من هذا جسم أسود لامع. وبينما خرج ببطء ووقف فوق الهاوية، رأينا أنّه ثعبان كبير جدًا برأس مسطح غريب يشبه المجرفة. تمايل وارتجف فوقنا لمدة دقيقة، وكانتْ شمس الصباح تتلألأ على لفائفه الملساء المتعرجة. ثم انسحب ببطء إلى الداخل واختفى.

كان (سمرلي) مهتمًا لدرجة أنّه وقف دون مقاومة بينما كان (تشالنجر) يميل برأسه في الهواء. الآن نفض زميله وعاد إلى وقاره.

«سأكون سعيدًا، يا بروفسور تشالنجر، إذا تمكنتَ من إيجاد طريقك لإبداء أي ملاحظات قد تخطر ببالك دون أن تمسك بذقني. حتى ظهور ثعبان صخري عادي جدًا

لا يبدو أنّه يبرر مثل هذه الحرية».

«لكن هناك حياة على الهضبة على أي حال»، أجاب زميله منتصرًا. «والآن، بعد أن أوضحنا هذا الاستنتاج المهم بحيث أصبح واضحًا لأي شخص، مهما كان متحيزًا أو غبيًا، فأنا من الرأي القائل بأننا لا نستطيع أن نفعل أفضل من تفكيك معسكرنا والسفر غربًا حتى نجد وسيلة للصعود».

كانتِ الأرض عند سفح الجرف صخرية ومتقطعة، لذا كان السير بطيئًا وصعبًا. ولكن فجأة صادفنا شيئًا أبهج قلوبنا. كان موقع معسكر قديم، به عدة علب لحوم شيكاغو فارغة، وزجاجة تحمل علامة (براندي)، وفتاحة علب مكسورة، وكمية من حطام مسافرين آخرين. وكشفتْ صحيفة مجعدة ومتحللة عن نفسها بأنّها صحيفة شيكاغو ديموكرات، على الرغم من أنّ التاريخ قد تم محوه.

قال (تشالنجر): «ليستْ جريدتي. لا بُد أنّها صحيفة مابل وايت».

كان اللورد (جون) يحدق بفضول في شجرة سرخس كبيرة كانتْ تحجب المعسكر. قال: «أقول، انظر إلى هذه. أعتقد أنّها مخصصة للوحة إرشادية».

تم تثبيت شريحة من الخشب الصلب على الشجرة بطريقة تشير إلى الغرب.

قال (تشالنجر): «بالتأكيد لوحة إرشادية». «ماذا بعد؟ وجد نفسه في مهمة خطيرة، لقد ترك لنا رائدنا هذه العلامة حتى يعرف أي مجموعة تتبعه الطريق الذي سلكه. ربما نصادف بعض الدلائل الأخرى أثناء تقدمنا».

لقد فعلنا ذلك بالفعل، لكنّها كانتْ ذات طبيعة مروّعة وغير متوقعة. مباشرة تحت الجرف نمَتْ رقعة كبيرة من الخيزران الطويل، مثل ذلك الذي عبرناه في رحلتنا. كان

العديد من هذه السيقان يبلغ ارتفاعها عشرين قدمًا، ولها قمم حادة وقوية، حتى أنّها كانتْ تشكل رماحًا هائلة عندما كانتْ واقفة. كنّا نمر على طول حافة هذا الغطاء عندما لفتَ نظري وميض شيء أبيض بداخله. عندما دفعتُ برأسي بين السيقان، وجدتُ نفسي أحدق في جمجمة بلا لحم. كان الهيكل العظمي بأكمله هناك، لكن الجمجمة انفصلتْ عن نفسها ووُضعتْ على بعد بضعة أقدام من العراء.

وبضربات قليلة من مناجل الهنود، تمكنّا من إخلاء المكان وتمكنّا من دراسة تفاصيل هذه المأساة القديمة. لم يتبق من الجثة سوى بضع قطع من الملابس، ولكن بقايا الأحذية كانتْ على الأقدام العظمية، وكان من الواضح جدًا أنّ الرجل الميت كان أوروبيًا. كانتْ هناك ساعة ذهبية من صنع هدسون، من نيويورك، وسلسلة تحمل قلمًا بين العظام. كما كانتْ هناك علبة سجائر فضية، مكتوبًا على الغطاء "J. C., from A. E. S."ويبدو أنّ حالة المعدن تشير إلى أنّ الكارثة لم تحدث منذ فترة طويلة.

سأل اللورد (جون): «من يمكن أن يكون هذا الرجل؟ يا له من مسكين! يبدو أنّ كل عظمة في جسده مكسورة».

«وينمو الخيزران بين أضلاعه المحطمة»، قال (سمرلي). «إنّه نبات سريع النمو، ولكن من غير المعقول أن يكون هذا الجسد موجودًا هنا بينما تنمو القصب حتى يصل طولها إلى عشرين قدمًا».

«أما فيما يتعلق بهوية الرجل»، قال البروفيسور (تشالنجر)، «فلا شك لدي في هذه النقطة. فبينما كنتُ أشق طريقي عبر النهر قبل أن أصل إليكم في المزرعة، بدأتُ في إجراء تحقيقات دقيقة للغاية حول مابل وايت. وفي بارا لم يعرفوا شيئًا. ولحسن الحظ، كان لديّ دليل واضح، حيث كانتْ هناك صورة معينة في دفتر الرسم الخاص به تظهره وهو يتناول

الغداء مع رجل دين معين في روزاريو. تمكنتُ من العثور على هذا الكاهن، ورغم أنّه أثبتَ أنّه رجل جدلي للغاية، واعتبر أنّه من السخف أن أشير إليه إلى التأثير التآكلي الذي لا بُد أن يكون للعلم الحديث على معتقداته، إلا أنّه أعطاني بعض المعلومات الإيجابية. لقد مر مابل وايت بروزاريو منذ أربع سنوات، أو قبل عامين من رؤيتي لجثته. لم يكن وحيدًا في ذلك الوقت، ولكن كان هناك صديق، أمريكي يُدعى جيمس كولفر، بقي في القارب ولم يقابل هذا الكاهن. أعتقد، لذلك، أنّه لا شك أننا ننظر الآن إلى بقايا هذا جيمس كولفر».

«ولا شك أنّ هناك الكثير من الشك في كيفية وفاته»، قال اللورد (جون). «لقد سقط أو قُذف من أعلى الجبل، فتم طعنه. وإلا فكيف استطاع أن ينجو من عظامه المكسورة، وكيف استطاع أن يطعن بهذه العصي التي كانتْ رؤوسها مرتفعة للغاية فوق رؤوسنا؟».

ساد الصمت بيننا ونحن نقف حول هذه البقايا المحطمة، وندرك حقيقة كلمات اللورد (جون روكستون). فقد بزغ رأس الجرف البارز فوق الخيزران. لا شك أنّه سقط من أعلى. ولكن هل سقط؟ هل كان حادثًا؟ أم أنّ الاحتمالات المروّعة والرهيبة بدأتْ تتشكل بالفعل حول تلك الأرض المجهولة.

ابتعدنا في صمت، واستمررنا في السير على طول خط المنحدرات، التي كانتْ متساوية وغير متقطعة مثل بعض حقول الجليد الهائلة في القطب الجنوبي التي كنتُ قد رأيتها ممتدة من الأفق إلى الأفق وترتفع عاليًا فوق رؤوس الصواري في سفينة الاستكشاف.

بعد خمسة أميال لم نرَ صدعًا أو شقًا. ثم فجأة أدركنا شيئًا ملأنا بالأمل الجديد. في جوف الصخرة، المحمي من المطر، كان هناك سهم خشن مرسوم بالطباشير، يشير إلى الغرب.

«مابل وايت مرة أخرى»، قال البروفيسور (تشالنجر). «كان لديه شعور ما بأنّ خطوات جديرة بالاهتمام ستتبعه عن كثب».

«هل كان لديه طباشير إذن؟».

«كان صندوق من الطباشير الملون من بين الآثار التي وجدتها في حقيبته. أتذكر أنّ الطبشور الأبيض كان على جذع شجرة».

«هذا دليل جيد بالتأكيد»، قال (سمرلي). «لا يمكننا إلا أن نقبل إرشاداته ونتابع باتجاه الغرب».

تقدمنا حوالي خمسة أميال أخرى عندما رأينا مرة أخرى سهمًا أبيض على الصخور. كان عند نقطة انقسم فيها وجه الجرف لأول مرة إلى شق ضيق. داخل الشق كانتْ هناك علامة إرشادية ثانية، كانتْ تشير مباشرة إلى الأعلى مع ارتفاع طرفها إلى حد ما، كما لو كانتِ النقطة المشار إليها فوق مستوى الأرض.

كان المكان مهيبًا؛ لأنّ الجدران كانتْ ضخمة للغاية، وكانتْ فتحة السماء الزرقاء ضيقة للغاية ومغطاة بحافة مزدوجة من الخضرة، بحيث لم يكن يخترق القاع سوى ضوء خافت وظليل. لم نتناول أي طعام لعدة ساعات، وكنّا متعبين للغاية من الرحلة الصخرية غير المنتظمة، لكن أعصابنا كانتْ متوترة للغاية بحيث لم تسمح لنا بالتوقف. ومع ذلك، أمرنا بإقامة المخيم، وتركنا للهنود ترتيبه، ثم واصلنا نحن الأربعة، مع الهجينين، الصعود عبر الممر الضيق.

لم يكن عرضه أكثر من أربعين قدمًا عند المدخل، لكنه انغلق بسرعة حتى انتهى بزاوية حادة، مستقيمة وناعمة للغاية للصعود. بالتأكيد لم يكن هذا ما حاول رائدنا الإشارة إليه.

شققنا طريقنا عائدين- لم يكن الوادي بأكمله أكثر من ربع ميل عميق- ثم فجأة سقطتْ عينا اللورد (جون) السريعتان على ما كنّا نبحث عنه. في الأعلى فوق رؤوسنا، وسط الظلال الداكنة، كانتْ هناك دائرة من الكآبة العميقة. لا شك أنّها كانتْ مجرد فتحة كهف.

كانتْ قاعدة الجرف مليئة بالحجارة السائبة في المكان، ولم يكن من الصعب تسلقها. عندما وصلنا إليها، زالتْ كل الشكوك. لم تكن فتحة في الصخرة فحسب، بل كانت هناك علامة سهم مرة أخرى على جانبها. كانتْ هذه هي النقطة، وهذه هي الوسيلة التي استخدمها (مابل وايت) ورفيقه المنكوب للصعود.

كنّا متحمسين للغاية للعودة إلى المخيم، ولكن كان علينا أن نستكشف المكان على الفور. كان اللورد (جون) يحمل مصباحًا كهربائيًا في حقيبته، وكان لا بُد أن يكون بمثابة ضوء لنا. تقدّم، وألقى بدائرة صغيرة واضحة من الضوء الأصفر أمامه، بينما كنّا نتبعه في صف واحد.

من الواضح أنّ الكهف كان متآكلًا بسبب المياه، وكانتْ جوانبه ناعمة والأرضية مغطاة بحجارة مستديرة. وكان حجمه كبيرًا لدرجة أنّ رجلًا واحدًا كان بإمكانه المرور من خلاله بمجرد الانحناء. لمسافة خمسين ياردة اصطدمتْ بالصخور تقريبًا، ثم صعدتْ بزاوية ٤٥ درجة. وسرعان ما أصبح هذا المنحدر أكثر انحدارًا، ووجدنا أنفسنا نتسلق على أيدينا وركبنا بين الأنقاض السائبة التي انزلقتْ من تحتنا. وفجأة انطلقتْ صرخة من اللورد (روكستون).

«لقد تم إغلاقه!» قال.

رأينا خلفه في حقل الضوء الأصفر جدارًا من البازلت المكسور يمتد إلى السقف. «لقد سقط السقف» لقد نجحنا عبثًا في انتشال بعض القطع. وكان التأثير الوحيد لذلك

هو أنّ القطع الأكبر حجمًا انفصلتْ وهددتْ بالتدحرج على المنحدر وسحقنا. وكان من الواضح أنّ العائق كان أبعد كثيرًا عن أي جهود يمكننا بذلها لإزالته. ولم يعد الطريق الذي صعد منه (مابل وايت) متاحًا.

وبعد أن شعرنا باليأس الشديد، تعثرنا في النفق المظلم وشققنا طريقنا عائدين إلى المخيم. ومع ذلك، وقع حادث واحد قبل أن نغادر الممر الضيق، وهو أمر مهم في ضوء ما حدث بعد ذلك.

كنّا قد تجمعنا في مجموعة صغيرة في قاع الفجوة، على بعد أربعين قدمًا تقريبًا تحت مدخل الكهف، عندما تدحرجتْ صخرة ضخمة فجأة إلى أسفل- وانطلقتْ أمامنا بقوة هائلة. لقد كان هذا هو المخرج الأضيق لنا جميعًا. لم نتمكن من رؤية من أين أتتِ الصخرة، لكن خدمنا الهجينين، الذين كانوا لا يزالون عند مدخل الكهف، قالوا إنّها طارتْ أمامهم، وبالتالي لا بُد أنّها سقطتْ من القمة. عندما نظرنا إلى الأعلى، لم نتمكن من رؤية أي علامة على الحركة فوقنا وسط الغابة الخضراء التي كانتْ أعلى الجرف. ومع ذلك، لا شك أنّ الحجر كان موجهًا نحونا، لذا فإنّ الحادث يشير بالتأكيد إلى البشر- والبشر الأشرار- على الهضبة.

انسحبنا على عجل من الفجوة، وعقولنا مليئة بهذا التطور الجديد وتأثيره على خططنا. كان الموقف صعبًا بما فيه الكفاية من قبل، ولكن إذا كانتْ عوائق الطبيعة قد زادتْ بسبب المعارضة المتعمدة من قبل الإنسان، فإنّ قضيتنا كانتْ ميؤوسًا منها حقًا. ومع ذلك، عندما نظرنا إلى تلك الحافة الجميلة من الخضرة التي لا يزيد ارتفاعها عن بضع مئات من الأقدام فوق رؤوسنا، لم يكن أحد منّا قادرًا على تصور فكرة العودة إلى لندن حتى نستكشفها حتى أعماقها.

عند مناقشة الموقف، قررنا أنّ أفضل مسار لنا هو الاستمرار في السير حول الهضبة على أمل العثور على وسيلة أخرى للوصول إلى القمة. كان خط المنحدرات؛ الذي انخفض ارتفاعه بشكل كبير، قد بدأ بالفعل في الميل من الغرب إلى الشمال، وإذا استطعنا اعتبار هذا يمثل قوس الدائرة، فإنّ محيطها بالكامل لا يمكن أن يكون كبيرًا جدًا. في أسوأ الأحوال، إذن، يجب أن نعود في غضون بضعة أيام إلى نقطة البداية.

لقد قمنا بمسير في ذلك اليوم بلغ مجموعه حوالي عشرين ميلًا، دون أي تغيير في آفاقنا. أود أن أذكر أنّ طائرتنا اللا هوائية تظهر لنا أنّه في المنحدر المستمر الذي صعدناه منذ أن تركنا زوارقنا ارتفعنا إلى ما لا يقل عن ثلاثة آلاف قدم فوق مستوى سطح البحر. ومن ثم، فقد طرأ تغيّر كبير على كل من درجة الحرارة والنباتات. لقد تخلصنا من بعض حياة الحشرات الرهيبة التي تشكل آفة السفر إلى المناطق الاستوائية. ولا يزال عدد قليل من أشجار النخيل على قيد الحياة، والعديد من أشجار السرخس، ولكن أشجار الأمازون تركتْ وراءها جميعها. لقد كان من الممتع رؤية نبات اللبلاب، وزهرة الباشن، والبيجونيا، وكلها تذكرني بالوطن، هنا بين هذه الصخور غير المضيافة. كانتْ هناك بيجونيا حمراء بنفس لون تلك المحفوظة في وعاء في نافذة فيلا معينة في ستريثام- لكنني انجرفتُ إلى ذكريات خاصة.

في تلك الليلة- ما زلتُ أتحدث عن اليوم الأول من رحلتنا حول الهضبة- كانتْ تنتظرنا تجربة عظيمة، وهي التجربة التي ستزيل إلى الأبد أي شك قد يكون لدينا بشأن العجائب القريبة منّا.

ستدرك وأنت تقرأ هذا يا عزيزي السيد (ماكاردل)، وربما للمرة الأولى، أنّ الصحيفة لم ترسلني في مطاردة غير محسوبة، وأنّ هناك نسخة رائعة للغاية تنتظر العالم

متى ما حصلنا على إذن البروفسور لاستخدامها. لن أجرؤ على نشر هذه المقالات ما لم أتمكن من إحضار نسختي إلى إنجلترا، وإلا فسوف يتم الترحيب بي باعتباري الصحفي مونشهاوزن في كل زمان. ليس لدي أدنى شك في أنّك تشعر بنفس الطريقة، وأنّك لن ترغب في المخاطرة بكل الفضل الذي تتمتع به الجريدة في هذه المغامرة حتى نتمكن من مواجهة جوقة الانتقادات والتشكك التي يجب أن تثيرها مثل هذه المقالات بالضرورة. لذا فإنّ هذه الحادثة الرائعة؛ التي من شأنها أن تشكل عنوانًا رئيسيًا للصحيفة القديمة، لا تزال تنتظر دورها في درج التحرير.

ومع ذلك فقد انتهى كل شيء في لمح البصر، ولم يكن هناك تكملة له سوى بقناعاتنا الخاصة.

ما حدث هو التالي. كان اللورد (جون) قد أطلق النار على حيوان صغير يشبه الخنزير، وبعد أن أعطينا نصفه للهنود، كنّا نطهو النصف الآخر على نارنا. كان الجو باردًا بعد حلول الظلام، واقتربنا جميعًا من اللهب. كان الليل بلا قمر، ولكن كانتْ هناك بعض النجوم، وكان من الممكن أن نرى من مسافة قصيرة عبر السهل. حسنًا، فجأة من الظلام، من الليل، انقض شيء ما بصوت يشبه صوت الطائرة. لقد غطتْ مجموعة كاملة منّا للحظة مظلة من الأجنحة الجلدية، ورأيتُ في رؤيا لحظية رقبة طويلة تشبه الثعبان، وعينًا شرسة حمراء شرهة، ومنقارًا كبيرًا يعض، مليئًا، لدهشتي، بأسنان صغيرة لامعة. في اللحظة التالية اختفى- وكذلك عشاءنا. طار ظل أسود ضخم، عرضه عشرون قدمًا، في الهواء؛ لحظة واحدة، حجبتْ أجنحة الوحش النجوم، ثم اختفتْ فوق حافة الجرف فوقنا. جلسنا جميعًا في صمت مذهول حول النار، مثل أبطال فيرجيل عندما هبطتْ عليهم الهاربيز. كان (سمرلي) هو أول من تحدث. قال بصوت مهيب، مرتجف من العاطفة، «بروفسور تشالنجر، أنا مدين لك باعتذار. سيدي، أنا مخطئ تمامًا، وأرجوك أن

تنسى ما حدث».

قال ذلك بلطف، وتصافح الرجلان لأول مرة. لقد اكتسبنا الكثير من هذه الرؤية الواضحة لأول زاحف مجنح لدينا. لقد كان الأمر يستحق عشاءً مسروقًا لجمع رجلين من هذا القبيل معًا.

ولكن إذا كانتْ حياة ما قبل التاريخ موجودة على الهضبة، فإنّها لم تكن وفيرة؛ لأنّنا لم نلمحها مرة أخرى خلال الأيام الثلاثة التالية. وخلال هذا الوقت، عبرنا منطقة قاحلة وموحشة، تتناوب بين الصحراء الحجرية والمستنقعات المهجورة المليئة بالعديد من الطيور البرية، على الشمال والشرق من المنحدرات. ومن هذا الاتجاه، كان المكان غير قابل للوصول حقًا، ولولا وجود حافة صلبة تمتد عند قاعدة الجرف، لكنّا اضطررنا إلى العودة. وفي كثير من الأحيان كنّا نغرق حتى خصورنا في الوحل في مستنقع شبه استوائي قديم. والأسوأ من ذلك أنّ المكان بدا وكأنّه مكان تكاثر مفضل لثعبان جاراكاكا، وهو الأكثر سمية وعدوانية في أمريكا الجنوبية. مرة تلو الأخرى، كانتْ هذه المخلوقات الرهيبة تتلوى وتقفز نحونا عبر سطح هذا المستنقع الفاسد، ولم يكن بوسعنا أن نشعر بالأمان منها إلا من خلال إبقاء بنادقنا جاهزة دائمًا. ستظل منخفضات على شكل قمع في المستنقع، بلون أخضر شاحب بسبب بعض الأشنة التي كانتْ تتقيح فيه، ذكرى كابوسية في ذهني. يبدو أنّها كانتْ عشًا خاصًا لهذه الحشرات، وكانتِ المنحدرات مليئة بها، وكلها تتلوى في اتجاهنا؛ لأنّ من سمات الجاراكاكا أنّها تهاجم الإنسان دائمًا من أول نظرة. كان عددهم كبيرًا جدًا بحيث لا يمكننا إطلاق النار عليهم، لذلك هربنا بسرعة حتى استنفدنا قوانا. سأتذكر دائمًا عندما نظرنا إلى الوراء كيف رأينا رؤوس وأعناق مطاردينا الرهيبين ترتفع وتهبط وسط القصب. أطلقنا على هذا المستنقع اسم مستنقع الجاراكاكا في الخريطة التي نرسمها.

كانتِ المنحدرات على الجانب الأبعد قد فقدتْ لونها الأحمر، وأصبحتْ ذات لون بني شوكولاتي؛ وكانتِ النباتات أكثر انتشارًا على طول قمتها، وقد هبطتْ إلى ارتفاع ثلاثمائة أو أربعمائة قدم، ولكننا لم نجد في أي مكان أي نقطة يمكن أن نصعد إليها. بل كانتْ أكثر استحالة ممّا كانتْ عليه عند النقطة الأولى التي التقينا بها. وقد أشارتِ الصورة التي التقطتها فوق الصحراء الصخرية إلى انحدارها الشديد.

قلتُ، بينما كنا نناقش الموقف: «بالتأكيد، لا بُد أن يجد المطر طريقه إلى الأسفل بطريقة ما. لا بُد أن تكون هناك قنوات مائية في الصخور».

قال البروفيسور (تشالنجر) وهو يربت على كتفي: «لقد أصبح صديقنا الشاب يتمتع بلمحات من الوضوح».

«لا بُد أن يجري المطر إلى مكان ما»، كررتُ.

«إنّه يسيطر بقوة على الواقع. العيب الوحيد هو أنّنا أثبتنا بشكل قاطع من خلال البرهنة البصرية أنّه لا توجد قنوات مياه أسفل الصخور».

«إلى أين يجري إذن؟» أصررتُ.

«أعتقد أنّه من المعقول أن نفترض أنّه إذا لم يخرج إلى الخارج، فلا بُد أن يتدفق إلى الداخل».

«إذن هناك بحيرة في الوسط».

«هذا ما يجب أن أفترضه».

«من المرجح أن تكون البحيرة فوهة بركان قديمة»، قال (سمرلي). «التكوين بأكمله، بالطبع، بركاني للغاية. ولكن، مهما كان الأمر، يجب أن أتوقع العثور على سطح الهضبة

منحدرًا إلى الداخل مع طبقة كبيرة من المياه في الوسط، والتي قد تتسرب، عن طريق بعض القنوات الجوفية، إلى مستنقعات مستنقع جاراكاكا».

«أو ربما يحافظ التبخر على التوازن»، هكذا علّق (تشالنجر)، وتجول الرجلان المتعلمان في واحدة من حججهما العلمية المعتادة، والتي كانتْ مفهومة مثل اللغة الصينية لعامة الناس.

في اليوم السادس، أكملنا دورتنا الأولى حول المنحدرات، ووجدنا أنفسنا عائدين إلى المخيم الأول، بجوار قمة صخرية معزولة. كنّا مجموعة بائسة؛ لأنّه لم يكن هناك شيء أكثر دقة من تحقيقنا، وكان من المؤكد تمامًا أنّه لا توجد نقطة واحدة يمكن أن يأمل فيها أكثر البشر نشاطًا في تسلق المنحدر. المكان الذي أشارتْ إليه علامات الطباشير الخاصة بـ (مابل وايت) كوسيلة للوصول إليه أصبح الآن غير قابل للعبور تمامًا.

ماذا كان علينا أن نفعل الآن؟ كانتْ مخزوناتنا من المؤن؛ التي تكملها بنادقنا، صامدة بشكل جيد، ولكن لا بُد أن يأتي اليوم الذي نحتاج فيه إلى تجديد مخزوننا. ومن المتوقع هطول الأمطار في غضون شهرين، وسوف نضطر إلى مغادرة معسكرنا. كانتِ الصخور أكثر صلابة من الرخام، وكانتْ أي محاولة لشق طريق على هذا الارتفاع الشاهق أكبر مما يسمح به وقتنا أو مواردنا. فلا عجب أننا نظرنا إلى بعضنا البعض في كآبة تلك الليلة، وبحثنا عن بطانياتنا دون أن نتبادل أي كلمة. أتذكر أنّه عندما غفوتُ للنوم كانتْ آخر ذكرياتي أنّ (تشالنجر) كان يجلس القرفصاء، مثل ضفدع ثور وحشي، بجوار النار، ورأسه الضخم بين يديه، غارقًا على ما يبدو في أعمق الأفكار، وغير مدرك تمامًا لتمنياتي له بليلة سعيدة.

ولكن (تشالنجر) الذي كان مختلفًا تمامًا عنّا هو الذي استقبلنا في الصباح- (تشالنجر)

كان يشع بالرضى والتهاني الذاتية من شخصه بالكامل. لقد واجهنا ونحن نجتمع لتناول الإفطار بتواضع زائف مستهجن في عينيه، وكأنّه يقول: «أعلم أنني أستحق كل ما يمكنكم قوله، لكنني أدعوكم أن تنقذوني من الخجل بعدم قول ذلك». لقد انتصبتْ لحيته بنشوة، وصدره مرفوع، ويده مدسوسة في مقدمة سترته. لذا، في خياله، قد يتخيل نفسه أحيانًا، وهو يزيّن القاعدة الشاغرة في ميدان ترافالغار، ويضيف شيئًا آخر إلى أهوال شوارع لندن.

صاح، وأسنانه تلمع من خلال لحيته: «وجدتها!»، «أيها السادة، يمكنكم تهنئتي ويمكننا أن نهنئ بعضنا البعض. لقد تم حل المشكلة».

«هل وجدتم طريقًا للصعود؟».

«أعتقد ذلك».

«وأين؟».

للإجابة، أشار إلى قمة ما يشبه البرج على يميننا.

انخفضتْ وجوهنا- أو وجهي على الأقل- عندما نظرنا إليها. لقد حصلنا على تأكيد من رفيقنا بأنّه يمكن تسلقها. لكن هناك هاوية رهيبة تقع بينه وبين الهضبة.

قلتُ في دهشة: «لن نتمكن أبدًا من العبور».

«يمكننا على الأقل أن نصل جميعًا إلى القمة»، قال .«عندما نصعد، قد أتمكن من إظهار لك أنّ موارد العقل المبدع لم تستنفد بعد».

بعد الإفطار، فككنا الحزمة التي أحضر فيها قائدنا أدوات التسلق. أخرج منها لفافة من أقوى وأخف حبال، يبلغ طولها مائة وخمسين قدمًا، مع مكاوي التسلق والمشابك

وأجهزة أخرى. كان اللورد (جون) متسلق جبال متمرسًا، وقد قام (سمرلي) ببعض التسلقات الصعبة في أوقات مختلفة، لذلك كنتُ حقًا مبتدئًا في العمل على الصخور في المجموعة؛ لكن قوتي ونشاطي ربما عوضا عن افتقاري إلى الخبرة.

لم تكن المهمة في الواقع صعبة للغاية، على الرغم من وجود لحظات جعلتْ شعري ينتصب على رأسي. كان النصف الأول سهلًا تمامًا، ولكن من هناك إلى الأعلى أصبح الأمر أكثر انحدارًا باستمرار حتى، في الخمسين قدمًا الأخيرة، كنّا نتشبث حرفيًا بأصابعنا وأصابع أقدامنا بالحواف والشقوق الصغيرة في الصخور. لم أكن لأتمكن من تحقيق ذلك، ولا حتى (سمرلي)، لو لم يصل (تشالنجر) إلى القمة (كان من غير العادي أن نرى مثل هذا النشاط في مخلوق ضخم مثله) ولم يثبت الحبل حول جذع الشجرة الضخمة التي نمتْ هناك. وباستخدام هذا كدعم لنا، تمكنّا قريبًا من تسلق الجدار المتعرج حتى وجدنا أنفسنا على المنصة العشبية الصغيرة، حوالي خمسة وعشرين قدمًا في كل اتجاه، والتي شكلتِ القمة.

كان الانطباع الأول الذي تلقيته عندما استعدتُ أنفاسي هو المنظر غير العادي للمنطقة التي عبرناها. بدا أنّ السهل البرازيلي بأكمله يقع تحتنا، ممتدًا بعيدًا وبعيدًا حتى انتهى في ضباب أزرق خافت على أقصى خط الأفق. في الأمام كان المنحدر الطويل، المتناثر بالصخور والمنقطة بأشجار السرخس؛ أبعد على مسافة متوسطة، وبالنظر فوق التلة، يمكنني فقط رؤية كتلة الخيزران الصفراء والخضراء التي مررنا بها؛ وبعد ذلك، ازداد الغطاء النباتي تدريجيًا حتى شكّل غابة ضخمة امتدتْ إلى ما لا نهاية له من الأفق، ولمسافة تزيد عن ألفي ميل.

كنتُ لا أزال أستمتع بهذه البانوراما الرائعة عندما سقطتْ يد البروفسور الثقيلة على

كتفي.

«من هنا يا صديقي الشاب»، قال، «لا تنظر إلى الخلف أبدًا، بل انظر دائمًا إلى هدفنا المجيد».

كان مستوى الهضبة، عندما استدرتُ، هو نفس مستوى وقوفنا، وكانتْ ضفة الشجيرات الخضراء، مع الأشجار العرضية، قريبة جدًا لدرجة أنّه كان من الصعب إدراك مدى صعوبة الوصول إليها. في تقدير تقريبي، كان عرض الخليج أربعين قدمًا، ولكن بقدر ما أستطيع أن أرى، كان من الممكن أن يكون أربعين ميلًا. وضعتُ ذراعي حول جذع الشجرة وانحنيتُ فوق الهاوية. بعيدًا كانتْ هناك أشكال صغيرة داكنة لخدمنا، ينظرون إلينا. كان الجدار شديد الانحدار، وكذلك الجدار الذي كان يواجهني.

«هذا غريب حقًا»، قال صوت البروفسور (سمرلي) الصارخ.

استدرتُ، ووجدته يفحص باهتمام كبير الشجرة التي تشبثتُ بها .بدا ذلك اللحاء الناعم وتلك الأوراق الصغيرة المضلعة مألوفة لعيني. «لماذا»، صرختُ، «إنّها شجرة زان!».

«بالضبط»، قال (سمرلي). «مواطن من بلد بعيد».

«ليس مواطنًا من بلدك فحسب، يا سيدي الكريم»، قال (تشالنجر)، «ولكن أيضًا، إذا سُمح لي بتوسيع تشبيهك، حليف من الدرجة الأولى. ستكون شجرة الزان هذه منقذنا».

«بحق جورج!» صاح اللورد (جون)، «جسر!».

«بالضبط يا أصدقائي، جسر! لم يكن من قبيل الصدفة أن أمضيتُ ساعة الليلة الماضية

في تركيز ذهني على الوضع. لدي بعض الذكريات عن ملاحظة ذات مرة لصديقنا الشاب هنا أنّ جي إي سي يكون في أفضل حالاته عندما يكون ظهره إلى الحائط. ستعترف الليلة الماضية بأن ظهورنا جميعًا كانتْ إلى الحائط. ولكن حيثما تجتمع قوة الإرادة والذكاء، فهناك دائمًا مخرج. كان لا بُد من إيجاد جسر متحرك يمكن إسقاطه عبر الهاوية. انظروا إليه!».

كانتْ بالتأكيد فكرة رائعة .كان ارتفاع الشجرة ستين قدمًا، ولو سقطتْ بالطريقة الصحيحة لكانتْ قد عبرتِ الهاوية بسهولة. كان (تشالنجر) قد حمل فأس المخيم على كتفه عندما صعد إلى القمة. ثم سلمها لي.

«صديقنا الشاب لديه العضلات والقوة»، قال. «أعتقد أنّه سيكون الأكثر فائدة في هذه المهمة. ومع ذلك، يجب أن أتوسل إليك أن تمتنع عن التفكير بنفسك، وأن تفعل بالضبط ما يُقال لك».

بتوجيه منه، قطعتُ مثل هذه الجروح في جوانب الأشجار لضمان سقوطها بالطريقة التي نرغب بها. كان لديها بالفعل ميل قوي وطبيعي في اتجاه الهضبة، لذلك لم يكن الأمر صعبًا. أخيرًا، بدأتِ العمل بجدية على الجذع بالتناوب مع اللورد (جون). في غضون أكثر من ساعة بقليل، كان هناك فرقعة عالية، وتمايلتِ الشجرة إلى الأمام، ثم تحطمتْ، ودفنت أغصانها بين الشجيرات على الجانب الأبعد. تدحرج الجذع المقطوع إلى حافة هضبتنا، ولثانية رهيبة ظننا جميعًا أنّ الأمر قد انتهى. ومع ذلك، فقد توازن على بعد بضع بوصات من الحافة، وهناك كان جسرنا إلى المجهول.

تصافحنا جميعًا، دون أن ننطق بكلمة، البروفيسور (تشالنجر)؛ الذي رفع قبعته القشية وانحنى بعمق لكل واحد بدوره.

«أطالب بالشرف»، قال، «بأن أكون أول من يعبر إلى الأرض المجهولة- موضوع

مناسب، بلا شك، لبعض اللوحات التاريخية المستقبلية».

كان قد اقترب من الجسر عندما وضع اللورد (جون) يده على معطفه.

«يا صديقي العزيز»، قال، «لا يمكنني حقًا السماح بذلك».

«لا يمكنني السماح بذلك، سيدي!». عاد الرأس إلى الخلف واللحية إلى الأمام.

«عندما يتعلق الأمر بالعلم، ألا تعلم أنني أتبع قيادتك لأنّك رجل علم؟ لكن الأمر متروك لك لتتبعني عندما تأتي إلى قسمي».

«قسمك يا سيدي؟».

«كل منّا له مهنته، والجنود هم مهنتي. نحن، وفقًا لأفكاري، نغزو بلدًا جديدًا، قد يكون أو لا يكون مليئًا بالأعداء من مختلف الأنواع. إنّ اقتحامه دون تفكير بسبب الافتقار إلى القليل من الفطرة السليمة والصبر ليس مفهومي للإدارة».

كان الاحتجاج معقولًا للغاية بحيث لا يمكن تجاهله. هز (تشالنجر) رأسه وهز كتفيه الثقيلتين.

«حسنًا، سيدي، ماذا تقترح؟».

«كل ما أعرفه هو أنّ هناك قبيلة من آكلي لحوم البشر تنتظر وقت الغداء بين تلك الشجيرات»، قال اللورد (جون) وهو ينظر عبر الجسر. «من الأفضل أن تتعلم الحكمة قبل أن تدخل في قدر الطبخ؛ لذا سنكتفي بالأمل في ألا تكون هناك مشكلة تنتظرنا، وفي الوقت نفسه سنتصرف كما لو كانتْ هناك مشكلة. لذلك، سأنزل أنا ومالون مرة أخرى، وسنحضر البنادق الأربع، مع جوميز والآخر. يمكن لرجل واحد بعد ذلك العبور وسيقوم الباقون بتغطيته بالبنادق، حتى يرى أنّه من الآمن للحشد بأكمله أن يمر».

جلس (تشالنجر) على جذع الشجرة المقطوع وتأوه بنفاذ صبره؛ لكن (سمرلي) وأنا كنّا متفقين على أنّ اللورد (جون) هو زعيمنا عندما كانتْ مثل هذه التفاصيل العملية موضع تساؤل. أصبح التسلق أمرًا أكثر بساطة الآن بعد أن تدلّى الحبل على وجه أسوأ جزء من الصعود. في غضون ساعة أحضرنا البنادق وبندقية. لقد صعد الهجينون أيضًا، وبأمر من اللورد (جون)، حملوا حزمة من المؤن في حالة ما إذا كانتْ رحلتنا الأولى لاستكشاف المنطقة طويلة. وكان كل منّا يحمل حزامًا من الخراطيش.

«حسنًا يا تشالنجر، إذا كنتَ تصر حقًا على أن تكون أول رجل يدخل المنطقة»، قال اللورد (جون)، عندما اكتملتْ كل الاستعدادات.

«أنا مدين لك كثيرًا لسماحك الكريم»، قال البروفسور الغاضب؛ لأنّه لم يسبق أن كان رجل غير متسامح مع كل أشكال السلطة.

«بما أنّك طيب بما يكفي للسماح بذلك، فسأتولى بالتأكيد مهمة العمل كرائد في هذه المناسبة».

وبعد أن جلس بساق متدلية فوق الهاوية من كل جانب، وبلطة معلقة على ظهره، شق (تشالنجر) طريقه عبر جذع الشجرة وسرعان ما وصل إلى الجانب الآخر. صعد إلى الأعلى ولوح بذراعيه في الهواء.

«أخيرًا!» صاح؛ «أخيرًا!».

نظرتُ إليه بقلق، مع توقع غامض بأنّ مصيرًا رهيبًا سينطلق نحوه من الستار الأخضر خلفه. لكن كل شيء كان هادئًا، باستثناء طائر غريب متعدد الألوان طار من تحت قدميه واختفى بين الأشجار.

كان (سمرلي) هو الثاني. إنّ طاقته القوية رائعة في مثل هذا الجسم الهش. أصر على أن يكون لديه بندقيتان معلقتان على ظهره، بحيث يكون كلا البروفسورين مسلحين عندما يقوم بالعبور. كان دوري هو التالي، وحاولتُ جاهدًا ألا أنظر إلى الهاوية الرهيبة التي كنتُ أمر فوقها. مدّ (سمرلي) مؤخرة بندقيته، وبعد لحظة تمكنتُ من الإمساك بيده. أما بالنسبة للورد (جون)، فقد عبر- في الواقع سار بدون دعم! لا بُد أنّ أعصابه من حديد.

وهناك كنّا، نحن الأربعة، على أرض الأحلام، العالم المفقود، (مابل وايت). بدا الأمر لنا جميعًا وكأنّه لحظة انتصارنا الأعظم. من كان ليتصور أنّ هذه كانتْ مقدمة لكارثتنا العظمى؟ دعوني أصف لكم في بضع كلمات كيف سقطتِ الضربة الساحقة علينا.

كنا قد ابتعدنا عن الحافة، وتسللنا إلى مسافة خمسين ياردة من الأجمة القريبة، عندما سمعنا صوتًا مروّعًا ممزقًا من خلفنا. وبدفعة واحدة اندفعنا عائدين إلى نفس الطريق الذي سلكناه. وكان الجسر قد اختفى!

بعيدًا في أسفل الجرف، رأيتُ، وأنا أنظر من فوق، كتلة متشابكة من الأغصان والجذوع المتناثرة. كانتْ شجرة الزان خاصتنا. هل انهارتْ حافة المنصة وجعلتها تقع؟ ظل هذا التفسير في أذهاننا جميعًا للحظة. وفي المرة التالية، من الجانب الأبعد من القمة الصخرية أمامنا، برز وجه داكن، وجه (جوميز) الهجين، ببطء. نعم، كان (جوميز)، لكنه لم يعد (جوميز) صاحب الابتسامة الرقيقة والتعبير الشبيه بالقناع. كان هناك وجه بعينين لامعتين وملامح مشوهة، وجه يرتجف من الكراهية وبفرحة جنونية من الانتقام الممتع.

«اللورد روكستون!» صاح. «اللورد جون روكستون!».

«حسنًا»، قال رفيقنا، «هأنا ذا».

سمعتُ صرخة ضحك عبر الهاوية.

«نعم، هأنت ذا، أيها الكلب الإنجليزي، وستبقى هناك! لقد انتظرتُ وانتظرتُ، والآن حانتْ فرصتي. لقد وجدتُ صعوبة في النهوض؛ وستجد صعوبة أكبر في النزول. أيها الحمقى الملعونون، أنتم محاصرون، كل واحد منكم!».

لقد كنّا مذهولين للغاية لدرجة أننا لم نتمكن من التحدث. لم يكن بوسعنا سوى الوقوف هناك مذهولين. أظهر غصن مكسور كبير على العشب من أين حصل على نفوذه لإمالة جسرنا. لقد اختفى الوجه، لكنّه ظهر الآن مرة أخرى، أكثر جنونًا من ذي قبل.

صرخ قائلًا: «كدنا نقتلك بحجر في الكهف، لكن هذا أفضل. إنّه أبطأ وأكثر فظاعة. ستبيض عظامك هناك، ولن يعرف أحد أين ترقد أو يأتي ليغطيها. بينما أنت تحتضر، فكر في لوبيز، الذي أطلقتَ عليه النار قبل خمس سنوات على نهر بوتومايو. أنا شقيقه، ومهما كان الأمر، سأموت سعيدًا الآن، لأني انتقمتُ لذكراه». صافحتنا يد غاضبة، ثم ساد الهدوء.

لو أنّ الهجين انتقم ببساطة ثم هرب، لكان كل شيء على ما يرام معه. كان هذا الدافع اللاتيني الأحمق الذي لا يقاوم للدراما هو الذي جلب سقوطه. لم يكن (روكستون)؛ الرجل الذي اكتسب لقب (سوط الرب) في ثلاث دول، من النوع الذي يمكن الاستهزاء به. كان الهجين ينزل على الجانب الأبعد من القمة؛ ولكن قبل أن يتمكن من الوصول إلى الأرض، ركض اللورد (جون) على طول حافة الهضبة ووصل إلى نقطة يمكنه من خلالها رؤية رجله. كان هناك صوت طلقة واحدة من بندقيته، ورغم أننا لم نر شيئًا، فقد سمعنا الصراخ ثم صوت سقوط الجثة من بعيد. عاد (روكستون) إلينا بوجه من الجرانيت.

قال بمرارة: «لقد كنتُ أحمقًا أعمى، لقد كانتْ حماقتي هي التي جلبتكم جميعًا إلى

هذه المشكلة. كان يجب أن أتذكر أنّ هؤلاء الناس لديهم ذكريات طويلة عن الثأر، وكانوا أكثر حذرًا».

«ماذا عن الآخر؟ لقد تطلب الأمر اثنين منهم لرفع تلك الشجرة عن الحافة».

«كان بإمكاني أن أطلق عليه النار، لكنني تركته يذهب. ربما لم يكن له أي دور في ذلك. ربما كان من الأفضل لو قتلته؛ لأنّه، كما تقول، لا بُد أنّه قدّم يد المساعدة».

الآن بعد أن حصلنا على الدليل على فعلته، يمكن لكل منّا أن يستعيد بعض الأحداث ويتذكر بعض الأفعال الشريرة التي قام بها هذا الهجين- رغبته المستمرة في معرفة خططنا، واعتقاله خارج خيمتنا عندما كان يسمعها، ونظرات الكراهية الخفية التي فاجأتنا من وقت لآخر. كنا لا نزال نناقش الأمر، ونحاول تكييف أذهاننا مع هذه الظروف الجديدة، عندما لفتَ انتباهنا مشهد غريب في السهل أدناه.

كان رجل يرتدي ملابس بيضاء، لا يمكن أن يكون سوى الهجين الناجي، يركض كما يركض المرء عندما يكون الموت هو القائد. على بعد بضعة أمتار فقط خلفه، كان يقفز بقامته الضخمة الأبينوسية (زامبو)، الزنجي المخلص. وبينما كنا ننظر، قفز على ظهر الهارب وألقى بذراعيه حول عنقه. تدحرجا معًا على الأرض. بعد لحظة نهض (زامبو)، ونظر إلى الرجل الساجد، ثم لوح بيده لنا بسعادة، وجاء راكضًا في اتجاهنا. كان الشكل الأبيض يرقد بلا حراك في منتصف السهل العظيم. لقد تم القضاء على خائنينا، لكن الأذى الذي أحدثاه عاش بعدهما. لا يمكننا بأي حال من الأحوال العودة إلى القمة. كنا من سكان العالم الأصليين؛ والآن أصبحنا من سكان الهضبة. كان الشيئان منفصلين ومنفردين. كان هناك السهل الذي يؤدي إلى الزوارق. وهناك، وراء الأفق البنفسجي الضبابي، كان هناك الجدول الذي يقودنا إلى الحضارة. ولكن الرابط بينهما كان مفقودًا.

فلم يكن بوسع أي براعة بشرية أن تقترح وسيلة لسد الفجوة التي اتسعتْ بيننا وبين حياتنا الماضية. ففي لحظة واحدة، غيرتِ الظروف التي كانتْ تحيط بوجودنا بالكامل.

وفي تلك اللحظة، تعلمتُ ما كان يتألف منه رفاقي الثلاثة. صحيح أنّهم كانوا جادين ومتفكرين، لكنّهم كانوا يتمتعون بسكينة لا تقهر. وفي تلك اللحظة، لم يكن بوسعنا سوى الجلوس بين الشجيرات في صبر وانتظار مجيء (زامبو). وسرعان ما ارتفع وجهه الأسود الصادق فوق الصخور وبرزتْ هيئته الهرقلية على قمة الجبل.

صاح (زامبو): «ماذا أفعل الآن؟». «اطلب وأنا أنفذ».

كان السؤال أسهل من الإجابة عليه. كان هناك شيء واحد واضح. إنّه رابطنا الموثوق الوحيد بالعالم الخارجي. ولا ينبغي له أن يتركنا تحت أي ظرف من الظروف.

«لا لا!» صاح. «لن أتركك. مهما حدث، ستجدني هنا دائمًا. لكنني غير قادر على الاحتفاظ بالهنود. يقولون للتو أنّ الكثير من الكوروبوري يعيشون في هذا المكان، ويعودون إلى ديارهم. الآن تتركهم فأنا غير قادر على الاحتفاظ بهم».

لقد كان من الحقائق أنّ الهنود أظهروا مؤخرًا بطرق عديدة أنّهم سئموا من رحلتهم وحريصون على العودة. أدركنا أنّ (زامبو) قال الحقيقة، وأنّه سيكون من المستحيل عليه الاحتفاظ بهم.

«اجعلهم ينتظرون حتى الغد يا زامبو»، صرختُ؛ «ثم يمكنني إرسال خطاب إليهم».

«حسنًا، يا سيدي! أعدك أنهّم ينتظرون حتى الغد»، قال الزنجي.«ولكن ماذا أفعل لك الآن؟».

كان هناك الكثير ليفعله، وقام الرجل المخلص بذلك بشكل مثير للإعجاب. أولًا، بناء على توجيهاتنا، فك الحبل من جذع الشجرة وألقى أحد طرفيه إلينا. لم يكن الحبل أكثر سمكًا من حبل الغسيل، ولكنه كان قويًا للغاية، ورغم أننا لم نتمكن من صنع جسر منه، فقد نجد أنّه لا يقدر بثمن إذا كان علينا التسلق. ثم ربط طرفه من الحبل بحزمة الإمدادات التي تم حملها، وتمكنا من جرها عبر الجرف. وقد منحنا هذا وسيلة للعيش لمدة أسبوع على الأقل، حتى لو لم نجد شيئًا آخر. وأخيرًا، نزل وحمل حزمتين أخريين من البضائع المختلطة- صندوق ذخيرة وعدد من الأشياء الأخرى، والتي نقلناها جميعًا عن طريق رمي الحبل إليه وسحبه مرة أخرى. حل المساء عندما نزل أخيرًا، مع تأكيد نهائي بأنّه سيبقي الهنود حتى صباح اليوم التالي.

وهكذا قضيتُ تقريبًا كل ليلتنا الأولى على الهضبة في كتابة تجاربنا على ضوء فانوس شمعة واحد. تناولنا العشاء وخيمنا على حافة الجرف، وأطفأنا عطشنا بزجاجتين من الأبوليناريس كانتا في أحد الصناديق. إنّ العثور على الماء أمر حيوي بالنسبة لنا، ولكنني أعتقد أنّ اللورد (جون) نفسه قد خاض مغامرات كافية في يوم واحد، ولم يشعر أي منّا بالميل إلى القيام بالدفعة الأولى إلى المجهول. لقد امتنعنا عن إشعال النار أو إصدار أي صوت غير ضروري.

غدًا (أو بالأحرى اليوم، لأنّ الفجر قد طلع بالفعل بينما أكتب) سنقوم بأولى مغامراتنا في هذه الأرض الغريبة. متى سأتمكن من الكتابة مرة أخرى-أو إذا كتبتُ مرة أخرى- لا أعرف. وفي الوقت نفسه، أستطيع أن أرى أنّ الهنود ما زالوا في مكانهم، وأنا متأكد من أنّ (زامبو) المخلص سيكون هنا في الحال لاستلام رسالتي. أنا أثق فقط في أنّها ستصل إلى يدي.

ملاحظة: كلما فكرتُ أكثر، بدا موقفنا أكثر يأسًا. لا أرى أي أمل في عودتنا. إذا كانتْ هناك شجرة عالية بالقرب من حافة الهضبة، فقد نبني جسرًا للعودة عبرها، لكن لا يوجد أي منها على بعد خمسين ياردة. لا تستطيع قوتنا المتحدة أن تحمل جذعًا من شأنه أن يخدم غرضنا. بالطبع، الحبل قصير جدًا بحيث لا يمكننا النزول به. كلا، موقفنا ميؤوس منه- ميؤوس منه!

الفصل العاشر

أروع الأشياء التي حصلتْ

لقد حدثتْ لنا أشياء رائعة للغاية وما زالتْ تحدث لنا باستمرار. كل الورق الذي أمتلكه يتكون من خمسة دفاتر ملاحظات قديمة والكثير من القصاصات، وليس لدي سوى قلم واحد فقط؛ ولكن ما دمتُ أستطيع تحريك يدي فسوف أستمر في تدوين تجاربنا وانطباعاتنا؛ لأنّنا الرجال الوحيدون في الجنس البشري بأكمله الذين رأوا مثل هذه الأشياء، فمن الأهمية بمكان أن أسجلها وهي طازجة في ذاكرتي وقبل أن يدركنا ذلك المصير الذي يبدو أنّه وشيك باستمرار. سواء استطاع (زامبو) أخيرًا أن يأخذ هذه الرسائل إلى النهر، أو ما إذا كنتُ سأحملها بنفسي بطريقة معجزة، أو أخيرًا، ما إذا كان بعض المستكشفين الجريئين، الذين عثروا على آثارنا بميزة، ربما، وجود طائرة أحادية السطح متقنة، سيجدون هذه الحزمة من المخطوطات، في كل الأحوال أستطيع أن أرى أنّ ما أكتبه مقدر له أن يخلد باعتباره كلاسيكيًا للمغامرة الحقيقية.

في صباح اليوم التالي لوقوعنا في فخ غوميز الشرير على الهضبة، بدأنا مرحلة جديدة في تجاربنا. لم يكن الحادث الأول من نوعه الذي منحني رأيًا إيجابيًا للغاية عن المكان الذي تجولنا فيه. عندما استيقظتُ من قيلولة قصيرة بعد طلوع النهار، وقعتْ عيني على مظهر غريب للغاية على ساقي. انزلق سروالي، وكشف عن بضع بوصات من بشرتي فوق جوربي. كانتْ هناك حبة عنب كبيرة أرجوانية اللون. اندهشتُ من المشهد، وانحنيتُ إلى الأمام لألتقطها، عندما انفجرتِ بين إصبعي وإبهامي، مما أثار رعبي، وتناثر الدم في كل اتجاه. جلبتْ صرخة الاشمئزاز الأستاذين إلى جانبي.

قال (سمرلي) وهو ينحني فوق ساقي: «أكثر إثارة للاهتمام. قرادة دموية ضخمة، لم يتم تصنيفها بعد، كما أعتقد».

قال (تشالنجر) بأسلوبه المزدهر والمتحذلق: «أول ثمار أعمالنا». «لا يمكننا أن نفعل أقل من أن نطلق عليه اسم ايكسود مالني. إنّ الإزعاج البسيط الذي تشعر به نتيجة لعضك يا صديقي الشاب لا يمكن أن يقارن بامتيازك المجيد المتمثل في إدراج اسمك في سجل علم الحيوان الخالد. ومن المؤسف أنّك سحقتَ هذه العينة الجميلة في لحظة الشبع».

«حشرة قذرة!» صرختُ.

رفع البروفيسور (تشالنجر) حاجبيه الكبيرين احتجاجًا، ووضع مهدئًا على كتفي.

«يجب أن تنمي عينك العلمية وعقلك العلمي الحر»، قال. «بالنسبة لرجل ذي مزاج فلسفي مثلي، فإن قرادة الدم، بخرطومها الشبيه بالمشرط وبطنها المنتفخة، هي عمل طبيعي جميل مثل الطاووس أو الشفق القطبي. يؤلمني أن أسمعك تتحدث عنها بطريقة غير مقدرة. لا شك أنّه مع العناية الواجبة، يمكننا الحصول على عينة أخرى».

«بدون شك»، قال (سمرلي)، متجهمًا، «لأنّ واحدة اختفت للتو خلف ياقة قميصك».

قفز (تشالنجر) في الهواء وهو يزأر مثل الثور، ومزق معطفه وقميصه بشكل محموم لخلعهما. ضحكتُ أنا و (سمرلي) حتى بالكاد تمكنّا من مساعدته. أخيرًا كشفنا عن ذلك الجذع الوحشي (خمسة وخمسون بوصة، بشريط الخياط). كان جسده مغطى بشعر أسود، وقد التقطنا من هذه الغابة القراد المتجول قبل أن يعضه. لكن الشجيرات المحيطة كانتْ مليئة بالآفات الرهيبة، وكان من الواضح أنّه يتعين علينا نقل معسكرنا.

ولكن كان من الضروري أولًا وقبل كل شيء أن نتخذ ترتيباتنا مع الزنجي المخلص؛ الذي ظهر على الفور على القمة ومعه عدد من علب الكاكاو والبسكويت التي ألقاها إلينا. وأمر بالاحتفاظ بما تبقى من المؤن في الأسفل بقدر ما يكفيه لمدة شهرين. وكان من المقرر أن يحصل الهنود على الباقي كمكافأة لخدماتهم ودفعًا لإعادة رسائلنا إلى الأمازون. وبعد بضع ساعات رأيناهم في صف واحد بعيدًا في السهل، كل منهم يحمل حزمة على رأسه، وهم يشقون طريقهم عائدين على طول المسار الذي سلكناه. احتل (زامبو) خيمتنا الصغيرة عند قاعدة القمة، وبقي هناك، رابطنا الوحيد بالعالم في الأسفل.

الآن كان علينا أن نقرر تحركاتنا الفورية. غيّرنا موقعنا من بين الشجيرات المليئة بالقراد حتى وصلنا إلى منطقة صغيرة مفتوحة محاطة بكثافة بالأشجار من جميع الجوانب. كانتْ هناك بعض الألواح المسطحة من الصخور في الوسط، وبئر ممتازة قريبة، وهناك جلسنا في راحة تامة بينما وضعنا خططنا الأولى لغزو هذا المنطقة الجديد. كانتِ الطيور تنادي بين أوراق الشجر- وخاصة واحدة ذات صرخة غريبة كانتْ جديدة علينا- ولكن باستثناء هذه الأصوات لم تكن هناك أي علامات على الحياة.

كان همنا الأول هو عمل نوع من قائمة بمخازننا الخاصة، حتى نتمكن من معرفة ما يجب أن نعتمد عليه. من الأشياء التي أحضرناها بأنفسنا وتلك التي أرسلها (زامبو) عبر الحبل، كنّا مجهزين بشكل جيد إلى حد ما. والأهم من كل ذلك، في ضوء المخاطر التي قد تحيط بنا، كان لدينا أربع بنادق وألف وثلاثمائة طلقة، وبندقية أيضًا، ولكن ليس أكثر من مائة وخمسين خرطوشة متوسطة الحجم. فيما يتعلق بالمؤن، كان لدينا ما يكفينا لعدة أسابيع، مع كمية كافية من التبغ وبعض الأدوات العلمية، بما في ذلك تلسكوب كبير ومنظار ميداني جيد. جمعنا كل هذه الأشياء معًا، وكإجراء احترازي أولي، قطعنا بفأسنا وسكاكيننا عددًا من الشجيرات الشائكة، وقمنا بتكديسها في دائرة قطرها حوالي خمسة

عشر ياردة. كان هذا هو مقرنا في ذلك الوقت- مكاننا الآمن من الخطر المفاجئ وبيت الحراسة لمخازننا. أطلقنا عليه اسم حصن (تشالنجر).

كان الوقت منتصف النهار قبل أن نكون بمكان آمن، لكن الحرارة لم تكن خانقة، وكان الطابع العام للهضبة، سواء في درجة حرارتها أو في نباتاتها، معتدلًا تقريبًا. كان من الممكن العثور على شجر الزان والبلوط وحتى البتولا بين تشابك الأشجار التي أحاطتْ بنا. أطلقتْ شجرة جنكة ضخمة، تتوج كل الأشجار الأخرى، أغصانها الضخمة وأوراقها على الحصن الذي بنيناه. في ظلها واصلنا مناقشتنا، بينما كان اللورد (جون)؛ الذي تولى القيادة بسرعة في ساعة العمل، يقدم لنا وجهة نظره.

«ما دام لا أحد من البشر ولا الحيوانات قد رآنا أو سمعنا، فنحن آمنون»، قال.«منذ اللحظة التي يعرفون فيها أننا هنا تبدأ مشاكلنا. لا توجد أي علامات على أنّهم اكتشفونا حتى الآن. لذا فإنّ لعبتنا بالتأكيد هي أن نختبئ لفترة من الوقت ونتجسس على الأرض. نريد أن نلقي نظرة جيدة على جيراننا قبل أن نتفق على الزيارة».

«لكن يجب أن نتقدم»، تجرأتُ على التعليق.

«بكل تأكيد، يا بني! سوف نتقدم. ولكن بالعقل السليم. يجب ألا نذهب بعيدًا لدرجة لا نستطيع معها العودة إلى قاعدتنا. وفوق كل شيء، يجب ألا نطلق النار من بنادقنا، إلا إذا كان الأمر يتعلق بالحياة أو الموت».

«لكنك أطلقتَ النار أمس»، قال (سمرلي).

«حسنًا، لم يكن من الممكن عدم القيام ذلك. ومع ذلك، كانتِ الرياح قوية وهبتْ إلى الخارج. ومن غير المرجح أن يكون الصوت قد انتقل بعيدًا إلى الهضبة. بالمناسبة، ماذا

يجب أن نسمي هذا المكان؟ أعتقد أنّه متروك لنا أن نطلق عليه اسمًا؟».

كانتْ هناك عدة اقتراحات، أكثر أو أقل سعادة، لكن اقتراح (تشالنجر) كان نهائيًا.

«لا يمكن أن يكون له سوى اسم واحد»، قال. «سميتْ على اسم الرائد الذي اكتشفها. إنّها أرض مابل وايت».

أصبحتْ أرض مابل وايت، وهذا هو اسمها في تلك الخريطة التي أصبحتْ مهمتي الخاصة. وأنا أثق في أنّها ستظهر في أطلس المستقبل.

كان الاختراق السلمي لأرض مابل وايت هو الموضوع الملح أمامنا. لقد رأينا بأم أعيننا أنّ المكان يسكنه بعض المخلوقات المجهولة، وكان هناك دفتر رسم مابل وايت الذي يُظهِر أنّ وحوشًا أكثر رعبًا وخطورة قد تظهر. كما أنّ وجود سكان بشريين وأنّهم من ذوي الشخصية الشريرة قد يشير إلى أنّ الهيكل العظمي الذي تم طعنه في الخيزران، والذي لم يكن ليصل إلى هناك لولا سقوطه من الأعلى، كان واضحًا أنّ وضعنا؛ العالقين بلا إمكانية للهروب في مثل هذه الأرض، كان مليئًا بالخطر، وكانتْ أسبابنا تؤيد كل تدابير الحذر التي يمكن أن تشير إليها تجربة اللورد (جون). ومع ذلك، كان من المستحيل بالتأكيد أن نتوقف على حافة هذا العالم الغامض عندما كانتْ أرواحنا تنبض بفارغ الصبر للمضي قدمًا وانتزاع القلب منه.

لذلك قمنا بسد مدخل زريبة عن طريق ملئها بالعديد من الشجيرات الشائكة، وتركنا معسكرنا وقد أحاطتْ هذه الشجيرات بالكامل بالمخازن. ثم انطلقنا ببطء وحذر إلى المجهول، متبعين مجرى النهر الصغير الذي يتدفق من نبعنا؛ حيث يجب أن يكون دائمًا بمثابة دليل لنا عند عودتنا.

لم نكن قد بدأنا حتى صادفنا علامات تشير إلى وجود عجائب تنتظرنا بالفعل. بعد بضع مئات من الأمتار من الغابات الكثيفة؛ التي تحتوي على العديد من الأشجار التي لم أكن أعرفها تمامًا، لكن (سمرلي)، عالم النبات في المجموعة، تعرف عليها على أنّها أشكال من الصنوبريات والنباتات السيكادية التي انقرضتْ منذ فترة طويلة في العالم أدناه، دخلنا منطقة حيث اتسع النهر وشكل مستنقعًا كبيرًا. نمتِ القصب العالية من نوع غريب بكثافة أمامنا، والتي قيل أنّها ذيل الفرس، مع أشجار السرخس المنتشرة بينها، وكلها تتأرجح في ريح عاصفة. فجأة، توقف اللورد (جون)؛ الذي كان يمشي أولًا، ويده مرفوعة.

«انظر إلى هذا!» قال. «يا جورج، لا بُد أن يكون هذا أثر والد كل الطيور!».

كان هناك أثر ضخم بثلاثة أصابع مطبوع في الوحل الناعم أمامنا. لقد عبر المخلوق، أيًا كان، المستنقع ومضى إلى الغابة. توقفنا جميعًا لفحص هذا الأثر الوحشي. إذا كان طائرًا بالفعل- وأي حيوان يمكنه ترك مثل هذه العلامة؟- فإنّ قدمه أكبر كثيرًا من قدم النعامة بحيث يجب أن يكون ارتفاعه على نفس المقياس هائلًا. نظر اللورد (جون) حوله بلهفة ووضع خرطوشتين في بندقيته.

«سأراهن على سمعتي الطيبة كشخص متجوّل»، قال، «إنّ الأثر جديد. لم يمر على المخلوق عشر دقائق. انظر كيف لا يزال الماء يتسرب إلى هذه العلامة العميقة! يا إلهي! انظر، هذه علامة طائر صغير!».

وبالفعل، كانتْ هناك آثار أصغر حجمًا من نفس الشكل العام تسير بالتوازي مع الآثار الكبيرة.

«ولكن ماذا تستنتج من هذا؟» صاح البروفيسور (سمرلي) منتصرًا، مشيرًا إلى ما بدا وكأنّه بصمة ضخمة ليد بشرية بخمسة أصابع تظهر بين العلامات ذات الأصابع الثلاثة.

«ويلدن!» صاح (تشالنجر) في نشوة. «لقد رأيتهم في طين ويلدن. إنّه مخلوق يمشي منتصبًا على قدمين بثلاثة أصابع، ويضع أحيانًا أحد مخالبه الأمامية ذات الأصابع الخمسة على الأرض. ليس طائرًا، يا عزيزي روكستون- ليس طائرًا».

«وحش؟».

«لا؛ زاحف- ديناصور. لا يوجد شيء آخر يمكن أن يترك مثل هذا الأثر. حيرتْ هذه الآثار طبيبًا جديرًا في ساسكس منذ حوالي تسعين عامًا؛ ولكن من في العالم كان ليأمل- يأمل- أن يرى مشهدًا مثل هذا؟».

تلاشى كلامه في همسة، ووقفنا جميعًا في دهشة بلا حراك. باتباع الآثار، غادرنا المستنقع ومررنا عبر حاجز من الأجمات والأشجار. كان هناك خلفه فسحة مفتوحة، وفيها خمسة من أكثر المخلوقات غرابة التي رأيتها على الإطلاق. جلسنا القرفصاء بين الشجيرات، وراقبناهم على مهل.

كان هناك، كما قلتُ، خمسة منهم، اثنان منهم بالغان وثلاثة منهم صغار. وكان حجمهم هائلًا. حتى الصغار كانوا بحجم الفيلة، بينما كان الاثنان الكبيران يفوقان كل المخلوقات التي رأيتها على الإطلاق. كان جلدهم رمادي اللون، وكان متقشرًا مثل جلد السحلية ويتلألأ حيث تشرق الشمس عليه. كان الخمسة جالسين، متوازنين على ذيولهم العريضة القوية وأقدامهم الخلفية الضخمة ذات الأصابع الثلاثة، بينما كانوا يسحبون بأقدامهم الأمامية الصغيرة ذات الأصابع الخمسة الأغصان التي كانوا يرتعون عليها. لا أعرف ما إذا كان بإمكاني أن أوضح لك مظهرهم بشكل أفضل من القول إنّهم بدوا مثل الكنغر الوحشي، بطول عشرين قدمًا، وجلدهم مثل التماسيح السوداء.

لا أعرف كم من الوقت بقينا بلا حراك نحدق في هذا المشهد الرائع. هبتْ ريح قوية

نحونا وكنّا مختبئين جيدًا؛ لذلك لم تكن هناك فرصة لاكتشافنا. من وقت لآخر، كان الصغار يلعبون حول والديهم في حركات غير متقنة، وكانتِ الوحوش الضخمة تقفز في الهواء وتسقط على الأرض بضجيج ممل. بدا أنّ قوة الوالدين لا حدود لها؛ حيث واجه أحدهما صعوبة في الوصول إلى مجموعة من أوراق الشجر التي نمتْ على شجرة كبيرة الحجم، فوضع رجليه الأماميتين حول الجذع ومزقها كما لو كانتْ شجرة صغيرة. بدا الأمر، كما اعتقدتُ، وكأنه يُظهر ليس فقط التطور الكبير لعضلاته، ولكن أيضًا العضلات الصغيرة لدماغه، حيث جاء الوزن بالكامل على قمته، وأطلق سلسلة من الصراخ الحاد لإظهار أنّه على الرغم من ضخامة حجمه، إلا أنّ هناك حدًا لا يمكنه تحمله. جعله الحادث يعتقد، على ما يبدو، أنّ الجوار كان خطيرًا، حيث انزلق ببطء عبر الغابة، وتبعه شريكه وأطفاله الثلاثة الضخمون. لقد رأينا بريق جلودهم بين جذوع الأشجار، ورؤوسهم تتلوى عاليًا فوق الأشجار. ثم اختفوا عن أنظارنا.

نظرتُ إلى رفاقي. كان اللورد (جون) يقف محدقًا وإصبعه على زناد بندقيته، وكانتْ روح الصياد المتلهفة تلمع من عينيه الشرستين. ما الذي لن يعطيه مقابل رأس كهذا ليضعه بين المجدافين المتقاطعين فوق رف الموقد في مخبئه المريح في ألباني؟! ومع ذلك، فقد منعه عقله؛ لأنّ كل استكشافنا لعجائب هذه الأرض المجهولة كان يعتمد على إخفاء وجودنا عن سكانها. كان البروفسوران في نشوة صامتة. في حماسهما أمسكا بيد بعضهما البعض دون وعي، ووقفا مثل طفلين صغيرين في حضور أعجوبة، وتجعد خدا (تشالنجر) في ابتسامة ملائكية، وتحول وجه (سمرلي) الساخر للحظة إلى دهشة وإجلال.

صاح أخيرًا: «لا تتأخر!»، «ماذا سيقولون في إنجلترا عن هذا؟».

قال (تشالنجر): «عزيزي سمرلي، سأخبرك بثقة كبيرة بما سيقولونه بالضبط في

إنجلترا»، «سيقولون إنك كاذب جهنمي ودجال علمي، تمامًا كما قلت أنت وغيرك عني».

«في مواجهة الصور الفوتوغرافية؟»

«مزيفة، سمرلي! مزيفة بشكل أخرق!».

«في مواجهة العينات؟».

«آه، ربما تكون لدينا! ربما مالون وطاقمه القذر في فليت ستريت يصرخون جميعًا بمدحنا. الثامن والعشرون من أغسطس- اليوم الذي رأينا فيه خمسة إيجوانودونات حية في مرج من أرض مابل وايت. سجل ذلك في مذكراتك، يا صديقي الشاب، وأرسله إلى جريدتك».

«وكن مستعدًا لتلقي نهاية حذاء التحرير في المقابل»، قال اللورد (جون). «تبدو الأمور مختلفة بعض الشيء عن لندن، أيها الشاب، يا بني. هناك العديد من الرجال الذين لا يروون مغامراتهم أبدًا؛ لأنّهم لا يأملون في تصديقهم. من الذي يلومهم؟ لأن هذا سيبدو لنا وكأنّه حلم في غضون شهر أو شهرين. ماذا قلتَ أنّهم كانوا؟».

قال (سمرلي): «إنّهم حيوانات إيجوانودون. ستجد آثار أقدامهم في كل مكان على رمال هاستينجز، وفي كنت، وفي ساسكس. كانتْ جنوب إنجلترا تعج بهم عندما كان هناك الكثير من المواد الخضراء المورقة الجيدة التي تبقيهم على قيد الحياة. لقد تغيرتِ الظروف، وماتتِ الحيوانات. يبدو أنّ الظروف هنا لم تتغير، وأنّ الحيوانات عاشتْ».

«إذا خرجنا من هذا المكان أحياءً، فلا بُد أن يكون معي رأس»، قال اللورد (جون). «يا إلهي، كيف سيتحول بعض من أرض الصومال وأوغندا إلى اللون الأخضر الجميل

إذا رأوا ذلك! لا أعرف ما الذي تفكرون فيه، لكن يبدو لي أنّنا على جليد رقيق للغاية طوال هذا الوقت».

شعرتُ بنفس الشعور بالغموض والخطر من حولنا. في ظلام الأشجار بدا الأمر وكأنّ هناك تهديدًا مستمرًا، وعندما نظرنا إلى أوراقها الظليلة تسللتْ مخاوف غامضة إلى قلبنا. صحيح أنّ هذه المخلوقات الوحشية التي رأيناها كانتْ وحوشًا ضخمة غير مؤذية ومن غير المرجح أن تؤذي أحدًا، ولكن في هذا العالم المليء بالعجائب، قد لا يكون هناك ناجون آخرون- ما هي الأهوال الشرسة النشطة الجاهزة للانقضاض علينا من عرينها بين الصخور أو الحطب؟ لم أكن أعرف الكثير عن الحياة في عصور ما قبل التاريخ، ولكنني أتذكر بوضوح كتابًا قرأته تحدث عن مخلوقات ستعيش على أسودنا ونمورنا كما تعيش القطط على الفئران. ماذا لو وجدنا هذه الكائنات أيضًا في غابات أرض مابل وايت!

لقد كان مقدرًا لنا في هذا الصباح بالذات- وهو أول يوم لنا في المنطقة الجديدة- أن نكتشف المخاطر الغريبة التي تحيط بنا. لقد كانتْ مغامرة بغيضة، وأكره التفكير فيها. إذا كانتْ غابة الإغوانودون ستظل معنا كحلم، كما قال اللورد (جون)، فإن مستنقع الزواحف المجنحة سيكون بالتأكيد كابوسنا إلى الأبد. دعوني أسجل بالضبط ما حدث.

لقد قطعنا الغابة ببطء شديد، ويرجع ذلك جزئيًا إلى أنّ اللورد (روكستون) كان يعمل ككشاف قبل أن يسمح لنا بالتقدم، وجزئيًا لأنّه في كل خطوة ثانية كان أحد أساتذتنا يسقط، بصرخة من الدهشة، أمام بعض الزهور أو الحشرات التي قدمتْ له نوعًا جديدًا. ربما كنّا قد قطعنا مسافة ميلين أو ثلاثة أميال، متمسكين بيمين خط النهر، عندما صادفنا فتحة كبيرة في الأشجار. كان حزام من الشجيرات يقودنا إلى شبكة من الصخور- كانتِ الهضبة بأكملها مبعثرة بالصخور. كنّا نسير ببطء نحو هذه الصخور،

بين الشجيرات التي وصلتْ إلى خصورنا، عندما أدركنا صوتًا غريبًا منخفضًا وصافرًا، ملأ الهواء بضجيج مستمر وبدا أنّه قادم من مكان ما أمامنا مباشرة. رفع اللورد (جون) يده كإشارة لنا للتوقف، وشق طريقه بسرعة، منحنيًا وراكضًا، إلى خط الصخور. رأيناه يطل عليهم ويعطي إشارة دهشة. ثم وقف يحدق وكأنّه نسينا، لقد كان مفتونًا تمامًا بما رآه. أخيرًا أشار إلينا بالمجيء، رافعًا يده كإشارة للحذر. جعلتني كل تصرفاته أشعر أنّ شيئًا رائعًا ولكنه خطير يكمن أمامنا.

زحفنا إلى جانبه، ونظرنا فوق الصخور. كان المكان الذي حدقنا فيه حفرة، وربما كان في الأيام الأولى أحد أصغر الثقوب البركانية في الهضبة. كان على شكل وعاء، وفي القاع، على بعد مئات الأمتار من حيث كنا نستلقي، كانتْ هناك برك من المياه الراكدة المليئة بالزبد الأخضر، محاطة بنبات البردي. كان مكانًا غريبًا في حد ذاته، لكن سكانه جعلوه يبدو وكأنّه مشهد من الدوائر السبع لدانتي. كان المكان عبارة عن مستعمرة من الزواحف الطائرة. كان هناك المئات منها متجمعة في الأفق. كانتِ المنطقة السفلية بأكملها حول حافة الماء تعج بصغارها، والأمهات البشعة التي تحتضن بيضها الجلدي المصفر. من هذه الكتلة الزاحفة المتلاطمة من حياة الزواحف الفاحشة جاءتِ الضوضاء المروّعة التي ملأتِ الهواء والرائحة الكريهة العفنة التي جعلتنا نشعر بالغثيان. ولكن فوق ذلك، كان كل ذكر من الذكور الرهيبين يجلس على حجره الخاص، طويل القامة، رمادي اللون، ذابل، أشبه بنماذج ميتة وجافة أكثر من كونه كائنات حية حقيقية، بلا حراك على الإطلاق باستثناء حركة عيونهم الحمراء أو نقرة عرضية لمناقيرهم المصيدة للفئران عندما يمر بهم يعسوب. كانتْ أجنحتهم الضخمة الغشائية مغلقة بطي أذرعهم الأمامية، بحيث كانوا يجلسون مثل النساء العجائز العملاقات، ملفوفين بشالات بشعة ملونة بالشبكة، ورؤوسهم الشرسة بارزة فوقهم. كان هناك ما لا يقل عن ألف من هذه

المخلوقات القذرة، كبيرة وصغيرة، في الوادي أمامنا.

كان أستاذانا سعيدين بالبقاء هناك طوال اليوم، فقد كانوا مفتونين بهذه الفرصة لدراسة حياة عصر ما قبل التاريخ. وأشاروا إلى الأسماك والطيور الميتة المتناثرة بين الصخور باعتبارها دليلًا على طبيعة طعام هذه المخلوقات، وسمعتهما يهنؤون بعضهما البعض على توضيح النقطة التي تجعل عظام هذا التنين الطائر موجودة بأعداد كبيرة في مناطق معينة محددة جيدًا، كما هو الحال في رمال كامبريدج الخضراء؛ حيث تبين الآن أنّها تعيش بطريقة اجتماعية مثل طيور البطريق.

أخيرًا، ومع ذلك، عازمًا على إثبات بعض النقاط التي عارضها (سمرلي)، دفع برأسه فوق الصخرة وكاد يجلب الدمار علينا جميعًا. في لحظة أطلق الذكر الأقرب صرخة حادة وصفيرًا، ورفرف بجناحيه الجلديين اللذين يبلغ طولهما عشرين قدمًا بينما ارتفع في الهواء. تجمعتِ الإناث والصغار معًا بجانب الماء، بينما ارتفعتْ دائرة الحراس بأكملها واحدة تلو الأخرى وأبحرتْ بعيدًا في السماء. كان مشهدًا رائعًا أن نرى ما لا يقل عن مائة مخلوق بهذا الحجم الهائل والمظهر البشع ينقضون جميعًا مثل السنونو بضربات جناح سريعة وقوية فوقنا؛ ولكن سرعان ما أدركنا أنّه ليس من الممكن أن نستمر في الترقب. في البداية طارتِ الوحوش الضخمة في حلقة ضخمة، وكأنّها تتأكد من مدى الخطر الدقيق. ثم انخفض الطيران وضاقت الدائرة، حتى أصبحتْ تحلق حولنا مرارًا وتكرارًا، وملأ صوت خفقان أجنحتها الضخمة ذات اللون الرمادي الهواء بحجم من الصوت جعلني أفكر في مطار هندون في يوم السباق.

صاح اللورد (جون) وهو يضرب ببندقيته: «اذهبوا إلى الغابة وابقوا معًا. الوحوش تعني الأذى».

في اللحظة التي حاولنا فيها التراجع، اقتربتِ الدائرة منّا، حتى كادتْ أطراف أجنحة أولئك الأقرب إلينا تلمس وجوهنا .ضربناهم بأعقاب بنادقنا، لكن لم يكن هناك شيء صلب أو ضعيف يمكن ضربه. ثم فجأة خرج من الدائرة ذات اللون الرمادي الداكن رقبة طويلة، وهاجمنا منقار شرس. وتبعه آخر وآخر. صرخ (سمرلي) ووضع يده على وجهه؛ الذي كان الدم يسيل منه. شعرتُ بوخزة في مؤخرة رقبتي، وأُصبتُ بالدوار من الصدمة. سقط (تشالنجر)، وعندما انحنيتُ لألتقطه، تعرضتُ لضربة أخرى من الخلف وسقطتُ فوقه. في نفس اللحظة سمعتُ صوت ارتطام بندقية الفيل الخاصة باللورد (جون)، ونظرتُ لأعلى، فرأيتُ أحد المخلوقات بجناح مكسور يكافح على الأرض، يبصق ويصدر أصواتًا غاضبة نحونا بمنقار مفتوح على اتساعه وعينين محمرتين بالدم، مثل شيطان في صورة من العصور الوسطى. طار رفاقه أعلى عند الصوت المفاجئ، وكانوا يدورون فوق رؤوسنا.

صاح اللورد (جون): «الآن، الآن من أجل حياتنا!».

تعثرنا عبر الغابة، وحتى عندما وصلنا إلى الأشجار، هاجمتنا الخفافيش مرة أخرى. لقد رموا (سمرلي)، لكننا رفعناه واندفعنا بين جذوع الأشجار. بمجرد وصولنا إلى هناك كنّا آمنين؛ لأنّ تلك الأجنحة الضخمة لم يكن لديها مساحة لتتحرك تحت الأغصان. بينما كنّا نعرج في طريقنا إلى ملجئنا، وقد تعرضنا للضرب والاضطراب، رأيناها لفترة طويلة تحلق على ارتفاع كبير مقابل السماء الزرقاء العميقة فوق رؤوسنا، وتحلق في دوائر، لا يزيد حجمها عن حجم الحمام البري، ولا شك أنّ عيونها لا تزال تتابع تقدمنا. ومع ذلك، عندما وصلنا أخيرًا إلى الغابات الكثيفة، تخلتْ عن المطاردة، ولم نرها بعد ذلك.

قال (تشالنجر)، بينما توقفنا بجانب الجدول وغسل ركبته المتورمة: «كانتْ تجربة

مثيرة للاهتمام ومقنعة للغاية. نحن على دراية جيدة للغاية يا سمرلي بعادات الزاحف الغاضب».

كان (سمرلي) يمسح الدم من جرح في جبهته، بينما كنتُ أعالج طعنة بشعة في عضلة الرقبة. تمزق كتف معطف اللورد (جون)، لكن أسنان المخلوق لم تخدش سوى اللحم.

«من الجدير بالذكر»، تابع (تشالنجر)، «إنّ صديقنا الشاب قد تلقى طعنة لا شك فيها، في حين أنّ معطف اللورد جون لم يكن ليتمزق إلا من خلال عضة. في حالتي، تعرضتُ للضرب على رأسي بأجنحتهم؛ لذلك شهدنا عرضًا رائعًا لأساليبهم المختلفة في الهجوم».

«لقد كانتْ حياتنا على المحك»، قال اللورد (جون) بجدية، «ولم أستطع أن أفكر في نوع أكثر تعفنًا من الموت أن يتم كشفي من قبل مثل هذه الحشرات القذرة. لقد حزنتُ لإطلاق بندقيتي، لكن، يا إلهي! لم يكن هناك خيار كبير».

«لم يكن من المفترض أن نكون هنا لو لم تكن أنت»، قلتُ باقتناع.

«قد لا يضر ذلك»، قال. «من بين هذه الغابات لا بُد أن يكون هناك العديد من الأصوات العالية الناتجة عن انقسام الأشجار أو سقوطها والتي قد تكون مثل صوت البندقية. ولكن الآن، إذا كنتَ من رأيي، فقد استمتعنا بما يكفي لهذا اليوم، ومن الأفضل أن نعود إلى غرفة العمليات في المخيم للحصول على بعض الكربوليك. من يدري أي سم قد يكون في أفواه هذه الوحوش البشعة؟».

ولكن من المؤكد أنّه ما من إنسان قد حظى بيوم مثل هذا منذ بداية العالم. كانتْ هناك مفاجأة جديدة تنتظرنا. عندما وصلنا أخيرًا إلى مرجانا، بعد أن سلكنا مجرى النهر،

ورأينا الحاجز الشائك لمخيمنا، اعتقدنا أنّ مغامراتنا قد انتهتْ. لكن كان لدينا شيء آخر لنفكر فيه قبل أن نتمكن من الراحة. فبوابة حصن (تشالنجر) لم تمس، وكانتِ الجدران سليمة، ومع ذلك فقد زارها مخلوق غريب وقوي في غيابنا. لم يكن هناك أثر لطبيعة هذا الشيء على الأرض، ولم يكن هناك سوى فرع شجرة الجينكو الضخمة التي كانتْ تطل على الأرض، مما يشير إلى كيفية ظهوره واختفاءه؛ ولكن كان هناك دليل كافٍ على قوته الشريرة في حالة مؤننا. كانتْ مبعثرة بشكل عشوائي في كل مكان، وقد تم سحق علبة من اللحم إلى قطع لاستخراج محتوياتها. كما تم تحطيم علبة خراطيش إلى أعواد ثقاب، وواحدة من القذائف النحاسية ملقاة إلى قطع بجانبها. مرة أخرى، سيطر شعور الرعب الغامض على أرواحنا، ونظرنا حولنا بعيون خائفة إلى الظلال الداكنة التي كانتْ ملقاة حولنا؛ والتي قد يكون هناك شكل مخيف كامن في كل منها. كم كان الأمر رائعًا عندما رحب بنا صوت (زامبو)، وذهبنا إلى حافة الهضبة، ورأيناه جالسًا مبتسمًا لنا على قمة القمة المقابلة!

«كل شيء على ما يرام، سيد تشالنجر، كل شيء على ما يرام!» صاح. «سأبقى هنا. لا خوف. ستجدني دائمًا عندما تريد».

لقد ساعدنا وجهه الأسود الصادق، والمنظر الهائل أمامنا، الذي حملنا إلى منتصف الطريق إلى ثراء الأمازون، على تذكر أنّنا كنّا حقًا على هذه الأرض في القرن العشرين، ولم يتم نقلنا بواسطة سحر إلى كوكب خام في أقدم وأعنف حالاته. كم كان من الصعب إدراك أنّ الخط البنفسجي على الأفق البعيد كان متقدمًا جدًا إلى ذلك النهر العظيم الذي كانتْ تجري عليه السفن البخارية الضخمة، وكان الناس يتحدثون عن شؤون الحياة الصغيرة، بينما نحن، الذين تقطعتْ بهم السبل بين مخلوقات من عصر مضى، لم يكن بوسعنا إلا أن نحدق فيه ونتوق إلى كل ما يعنيه!

هناك ذكرى أخرى لا تزال عالقة في ذهني عن هذا اليوم الرائع، وسأختتم بها هذه الرسالة. لقد اختلف الأستاذان؛ اللذان زادتْ حدة أعصابهما بلا شك بسبب إصاباتهما، حول ما إذا كان مهاجمونا من جنس البتروداكتيلوس أو الديمورفودون، وتبع ذلك كلمات حادة. ولكي أتجنب مشاجراتهم، ابتعدتُ مسافة قصيرة، وجلستُ أدخن على جذع شجرة ساقطة، عندما جاء اللورد (جون) متجولًا في اتجاهي.

«أقول يا مالون»، قال، «هل تتذكر ذلك المكان الذي كانتْ فيه تلك الوحوش؟».

«بكل وضوح».

«نوع من الحفر البركانية، أليس كذلك؟».

«بالضبط»، قلتُ.

«هل لاحظتَ التربة؟».

«صخور».

«لكن حول الماء- حيث كان القصب؟».

«كانتْ تربة زرقاء. بدتْ مثل الطين».

«بالضبط. قناة بركانية مليئة بالطين الأزرق».

«ماذا عن ذلك؟» سألتُ.

«أوه، لا شيء، لا شيء»، قال، وتجول عائدًا إلى حيث ارتفعتْ أصوات رجليّ العلم المتنافسين في ثنائي مطول، النغمة العالية الصاخبة لـ (سمرلي) ترتفع وتنخفض على الجهير الرنان لـ (تشالنجر). ما كنتُ لأفكر في ملاحظة اللورد (جون) أكثر من ذلك لولا

أنّني سمعته مرة أخرى في تلك الليلة يتمتم لنفسه: «طين أزرق- طين في أنبوب بركاني!».
كانتْ تلك الكلمات الأخيرة التي سمعتها قبل أن أسقط في نوم مرهق.

الفصل الحادي عشر

لقد كنتُ البطل ذات مرة

كان اللورد (جون روكستون) محقًا عندما اعتقد أنّ بعض الصفات السامة بشكل خاص قد تكمن في لدغة المخلوقات الرهيبة التي هاجمتنا. في صباح اليوم التالي لمغامرتنا الأولى على الهضبة، كنتُ أنا و (سمرلي) نعاني من آلام شديدة وحمى، بينما كانتْ ركبة (تشالنجر) مصابة بكدمات شديدة لدرجة أنّه بالكاد كان يعرج. بقينا في معسكرنا طوال اليوم؛ لذلك، انشغل اللورد (جون)، بالمساعدة، برفع ارتفاع وسمك الجدران الشائكة التي كانتْ دفاعنا الوحيد. أتذكر أنّه طوال اليوم الطويل كنتُ مسكونًا بالشعور بأننا نراقَب عن كثب، على الرغم من أنني لا أستطيع تخمين من أو من أين.

كان الانطباع قويًا لدرجة أنني أخبرتُ البروفسور (تشالنجر) بذلك؛ الذي أرجعه إلى الإثارة العقلية الناجمة عن الحمى. نظرتُ حولي مرارًا وتكرارًا بسرعة، مع اقتناعي بأنني على وشك رؤية شيء ما، لكنني فقط واجهتُ التشابك المظلم لسياجنا أو الظلام المهيب والكهفي للأشجار العظيمة المقوسة فوق رؤوسنا. ومع ذلك، كان الشعور يزداد قوة في ذهني بأنّ شيئًا ما مراقِبًا وخبيثًا كان على مقربة منّا. فكرتُ في الخرافة الهندية حول الكربوري- الروح الرهيبة الكامنة في الغابات- وكان بإمكاني أن أتخيل أنّ وجودها الرهيب يطارد أولئك الذين غزوا ملاذها الأكثر بعدًا وقداسة.

في تلك الليلة (ثالث ليلة لنا في أرض مابل وايت)، مررنا بتجربة تركتِ انطباعًا مخيفًا في أذهاننا، وجعلتنا نشكر اللورد (جون) على العمل الجاد لجعل ملاذنا منيعًا. كنّا جميعًا نائمين حول نارنا المشتعلة عندما استيقظنا- أو بالأحرى، يجب أن أقول، نهضنا

مسرعين من نومنا- على سلسلة من أكثر الصراخ والصياح رعبًا التي سمعتها في حياتي. لا أعرف أي صوت يمكنني مقارنة هذا الضجيج المذهل به، والذي بدا أنّه يأتي من مكان ما على بعد بضع مئات من الأمتار من معسكرنا. كان يصم الآذان مثل أي صفير لمحرك سكة حديدية. ولكن في حين أنّ الصفارة هي صوت واضح وميكانيكي وحاد، كان هذا أعمق بكثير في الحجم ونابضًا بأقصى درجات الألم والرعب. وضعنا أيدينا على آذاننا لإغلاق تلك الاستغاثة المثيرة للأعصاب. انساب عرق بارد على جسدي، ومرض قلبي من بؤسه. بدا أنّ كل ويلات الحياة المعذبة، وكل اتهاماتها الهائلة للسماء العالية، وأحزانها التي لا تعد ولا تحصى، تركزتْ وتكثفتْ في تلك الصرخة الرهيبة المؤلمة. ثم، تحت هذا الصوت عالي النبرة والرنين، كان هناك ضحكة أخرى متقطعة، منخفضة، عميقة الصدر، وغرغرة هدير حنجرة من البهجة التي شكلتْ مرافقة غريبة للصرخة التي امتزجتْ بها. لمدة ثلاث أو أربع دقائق متواصلة، استمر الثنائي المخيف أثناء حفيف كل أوراق الشجر مع ارتفاع الطيور المذعورة. ثم توقفتْ فجأة كما بدأتْ. وجلسنا لفترة طويلة في صمت مذعور. ثم ألقى اللورد (جون) حزمة من الأغصان على النار، وأضاءتْ بريقها الأحمر وجوه رفاقي المتوترة وتلألأتْ فوق الأغصان الضخمة فوق رؤوسنا.

«ما هذا؟» همستُ.

«سنعرف ذلك في الصباح»، قال اللورد (جون). «لقد كان قريبًا منّا- ليس أبعد من المرج».

«لقد حظينا بامتياز الاستماع إلى مأساة ما قبل التاريخ، من النوع الدرامي الذي حدث بين القصب على حدود بحيرة جوراسية، عندما ثبت التنين الأكبر التنين الأصغر بين الوحل»، قال (تشالنجر)، بمزيد من الجدية التي لم أسمعها في صوته من قبل. «لقد كان

من الجيد للإنسان بالتأكيد أن يأتي متأخرًا في ترتيب الخلق. كانتْ هناك قوى في الخارج في الأيام السابقة لم يكن بوسع أي من شجاعته أو أي آلية لديه مواجهتها. ما الذي قد تفيده عصاه أو مقلاعه أو سهمه ضد مثل هذه القوى التي كانتْ منفلتة الليلة؟ حتى مع وجود بندقية حديثة، فإنّ كل الاحتمالات ستكون لصالح الوحش».

«أعتقد أنني يجب أن أدعم صديقي الصغير»، قال اللورد (جون)، وهو يداعب إكسبرس الخاص به. «لكن الوحش سيكون لديه بالتأكيد فرصة أنيقة جيدة».

رفع (سمرلي) يده .«اصمت!» صاح. «بالتأكيد أسمع شيئًا!».

من الصمت المطبق، خرج صوت طرقة عميقة منتظمة. كان صوت خطوات حيوان ما- إيقاع وسائد ناعمة ولكنها ثقيلة موضوعة بحذر على الأرض. تسلل ببطء حول المخيم، ثم توقف بالقرب من بوابتنا. كان هناك ارتفاع وانخفاض منخفض ومزعج- أنفاس المخلوق. لم يفصلنا عن هذا الرعب الليلي سوى سياجنا الضعيف. أمسك كل منّا ببندقيته، واقتلع اللورد (جون) شجيرة صغيرة ليصنع منها ملجأ في السياج.

«بحق جورج!» همس. «أعتقد أنّني أستطيع رؤيتها!».

انحنيتُ ونظرتُ من فوق كتفه من خلال الفجوة. نعم، أستطيع رؤيتها أيضًا. في الظل العميق للشجرة كان هناك ظل أعمق، أسود، غير مكتمل، غامض- شكل رابض مليء بالقوة الوحشية والتهديد. لم يكن أطول من حصان، لكن الخطوط العريضة الخافتة تشير إلى حجم وقوة هائلين. كان ذلك الصوت الذي يصدره ذلك الكائن الحي الوحشي، والذي كان منتظمًا وواسعًا مثل عادم المحرك، يتحدث عن كائن حي وحشي. ذات مرة، وبينما كان يتحرك، ظننتُ أنني رأيتُ بريق عينين خضراوين رهيبتين. كان هناك حفيف مضطرب، وكأنّه يزحف ببطء إلى الأمام.

«أعتقد أنّه سيقفز!» قلتُ وأنا أرفع بندقيتي.

«لا تطلق النار! لا تطلق النار!» همس اللورد (جون). «سوف يُسمع صوت ارتطام البندقية في هذه الليلة الصامتة على بعد أميال. احتفظ بها كآخر ورقة».

«إذا تجاوز السياج، نكون قد انتهينا»، قال (سمرلي)، وتحول صوته إلى ضحكة عصبية وهو يتحدث.

«لا، يجب ألا تتجاوز السياج»، صاح اللورد (جون)؛ «لكن أبقِ نيرانك حتى النهاية. ربما أستطيع أن أصنع شيئًا منه. سأجازف، على أي حال».

كان هذا تصرفًا شجاعًا لم أر رجلًا يفعله من قبل. انحنى على النار، والتقط غصنًا مشتعلًا، وانزلق في لحظة عبر فتحة تهوية صنعها عند بوابة ملجئنا. تحرك الشيء للأمام بزئير مروّع. لم يتردد اللورد (جون) أبدًا، لكنّه ركض نحوه بخطوة سريعة وخفيفة، ورمى الخشب المشتعل في وجه الوحش. للحظة، رأيتُ قناعًا فظيعًا يشبه قناع ضفدع عملاق، وجلدًا ثؤلوليًا مصابًا بالجذام، وفمًا فضفاضًا مليئًا بالدماء الطازجة. في اللحظة التالية، كان هناك اصطدام في الغابة واختفى زائرنا المخيف.

«اعتقدتُ أنّه لن يواجه النار»، قال اللورد (جون) ضاحكًا، بينما عاد وألقى بغصنه بين الحطب.

«كان ينبغي لك ألّا تخاطر بهذه الطريقة!» صرخنا جميعًا.

«لم يكن هناك أمر آخر يمكن فعله. لو كان بيننا لكنّا أطلقنا النار على بعضنا البعض في محاولة لإسقاطه. من ناحية أخرى، لو أطلقنا النار عبر السياج وأصبناه، لكان قد سقط فوقنا قريبًا- ناهيك عن كشف أنفسنا. في المجمل، أعتقد أننا خرجنا من هذا الموقف

تمامًا. ماذا كان إذن؟».

نظر رجالنا المتعلمون إلى بعضهم البعض بتردد.

«أنا شخصيًا غير قادر على تصنيف المخلوق بأي قدر من اليقين»، قال (سمرلي)، وهو يشعل غليونه من النار.

«برفضك الالتزام، فإنّك تظهر تحفظًا علميًا مناسبًا»، قال (تشالنجر)، بتعالٍ هائل. «أنا لستُ مستعدًا للذهاب إلى أبعد من القول بشكل عام أننا كنّا على اتصال شبه مؤكد الليلة مع شكل من أشكال الديناصورات آكلة اللحوم. لقد عبرتُ بالفعل عن توقعي لوجود شيء من هذا القبيل على هذه الهضبة».

«علينا أن نضع في اعتبارنا»، أشار (سمرلي)، «أنّ هناك العديد من الأشكال ما قبل التاريخية التي لم تصل إلينا قط. سيكون من المتهور أن نفترض أنّه يمكننا إعطاء اسم لكل ما من المحتمل أن نقابله».

«بالضبط. قد يكون التصنيف التقريبي هو أفضل ما يمكننا محاولة القيام به. قد تساعدنا بعض الأدلة الإضافية غدًا في تحديد الهوية. وفي غضون ذلك، لا يمكننا سوى تجديد نومنا المتقطع».

«ولكن ليس بدون حارس»، كما قال اللورد (جون)، بحزم. «لا يمكننا تحمل المخاطر في منطقة كهذه. ساعتان تكفي لكل منا».

«سأنتهي إذن من غليوني وأبدأ بالحراسة الأولى»، قال الأستاذ (سمرلي)؛ ومنذ ذلك الوقت فصاعدًا لم نعد نثق في أنفسنا بدون حارس.

في الصباح لم يمض وقت طويل قبل أن نكتشف مصدر الضجة البشعة التي أيقظتنا

في الليل. كانتْ غابة الإجوانودون مسرحًا لمذبحة مروّعة. من برك الدماء وكتل اللحم الضخمة المنتشرة في كل اتجاه فوق العشب الأخضر، تخيلنا في البداية أنّ عددًا من الحيوانات قد قُتلتْ، ولكن عند فحص البقايا عن كثب اكتشفنا أنّ كل هذه المذبحة جاءتْ من أحد هذه الوحوش الضخمة؛ والتي تمزقتْ حرفيًا إلى أشلاء بواسطة مخلوق ليس أكبر حجمًا، ربما، ولكنه أكثر شراسة.

جلس أستاذانا في نقاش عميق، يفحصان قطعة تلو الأخرى، والتي أظهرتْ علامات أسنان وحشية ومخالب ضخمة.

«لا بُد أنّ حكمنا ما زال معلقًا»، قال البروفيسور (تشالنجر)، وقد غطتْ ركبته قطعة ضخمة من اللحم الأبيض اللون. «ستكون المؤشرات متسقة مع وجود نمر ذي أسنان حادة، مثل الذي لا يزال موجودًا بين حطام كهوفنا؛ لكن المخلوق الذي شوهد بالفعل كان بلا شك أكبر حجمًا وأكثر شبهًا بالزواحف. شخصيًا، أعتقد أنّه ألوصوروس».

«أو ميغالوصوروس»، قال (سمرلي).

«بالضبط. أي من الديناصورات آكلة اللحوم الأكبر حجمًا قد يفي بالغرض. من بينها يمكن العثور على أفظع أنواع الحياة الحيوانية التي لعنتِ الأرض أو باركت متحفًا على الإطلاق». ضحك بصوت عالٍ على غروره؛ لأنّه على الرغم من أنّه لا يتمتع بحس الفكاهة، فإنّ أكثر المزاح فظاظة من شفتيه كان يدفعه دائمًا إلى زئير من التقدير.

قال اللورد (روكستون)، بفظاظة: «كلما قل الضجيج كان ذلك أفضل». «لا نعرف من أو ما الذي قد يكون بالقرب منّا. إذا عاد هذا المخلوق لتناول الإفطار وأمسك بنا هنا فلن يكون لدينا الكثير مما نضحك عليه. بالمناسبة، ما هذه العلامة على جلد الإجوانودون؟».

على الجلد الباهت المتقشر ذي اللون الرمادي في مكان ما فوق الكتف، كانتْ هناك دائرة سوداء غريبة من مادة ما تبدو وكأنّها الأسفلت. لم يستطع أي منّا أن يشرح ما تعنيه، على الرغم من أنّ (سمرلي) كان يعتقد أنّه رأى شيئًا مشابهًا على أحد الصغار قبل يومين. لم يقل (تشالنجر) شيئًا، لكنّه بدا متكبرًا ومنتفخًا، كما لو كان بإمكانه ذلك إذا أراد، حتى أنّ اللورد (جون) سأله أخيرًا عن رأيه مباشرة.

«إذا سمح لي سيادتك بلطف بفتح فمي، فسأكون سعيدًا بالتعبير عن مشاعري»، قال بسخرية متقنة. «ليس من عادتي أن أُوبخ بالطريقة التي يبدو أنّها مألوفة لدى سيادتك. لم أكن أدرك أنّه من الضروري أن أطلب إذنك قبل أن أبتسم في مجاملة غير ضارة».

لم يسمح صديقنا الحساس لنفسه بالتهدئة إلا بعد أن تلقى اعتذاره. وعندما هدأتْ مشاعره المضطربة أخيرًا، تحدث إلينا مطولًا من مقعده على شجرة ساقطة، متحدثًا، كعادته، وكأنّه ينقل معلومات ثمينة للغاية إلى صف من ألف شخص.

«فيما يتعلق بالعلامات»، قال، «فأنا أميل إلى الموافقة على رأي صديقي وزميلي، البروفيسور سمرلي، بأنّ البقع ناتجة عن الأسفلت. وبما أنّ هذه الهضبة بطبيعتها بركانية للغاية، وبما أنّ الأسفلت مادة نربطها بالقوى البلوتونية، فلا يمكنني أن أشك في وجودها في الحالة السائلة الحرة، وأنّ المخلوقات ربما تكون قد اتصلتْ بها. والمشكلة الأكثر أهمية هي مسألة وجود الوحش آكل اللحوم الذي ترك آثاره في هذه المرج. نحن نعلم تقريبًا أنّ هذه الهضبة ليستْ أكبر من مقاطعة إنجليزية متوسطة. داخل هذه المساحة الضيقة، عاش عدد معين من المخلوقات، معظمها من الأنواع التي ماتتْ في العالم أدناه، معًا لسنوات لا حصر لها. الآن، من الواضح جدًا بالنسبة لي أنّه في فترة طويلة كهذه كان من المتوقع أن تستنفد المخلوقات آكلة اللحوم، التي تتكاثر بلا رادع، إمداداتها الغذائية وتضطر إما إلى

تعديل عاداتها في أكل اللحوم أو الموت جوعًا. ولكننا نرى أنّ الأمر ليس كذلك. ومن ثَم فلا يسعنا إلا أن نتخيل أنّ توازن الطبيعة محفوظ بفضل بعض الضوابط التي تحد من أعداد هذه المخلوقات الشرسة. ومن بين المشاكل العديدة المثيرة للاهتمام التي تنتظر حلها اكتشاف ماهية هذه الضوابط وكيفية عملها .أجرؤ على الثقة بأننا قد نحظى بفرصة مستقبلية لدراسة الديناصورات آكلة اللحوم عن كثب».

«وأجرؤ على الثقة بأننا قد لا نحظى بهذه الفرصة»، أنا قلتُ.

رفع البروفسور حاجبيه الكبيرين فقط، كما التقى المدرس بالملاحظة غير ذات الصلة للصبي المشاغب.

«ربما يكون لدى البروفسور سمرلي ملاحظة ليقدمها»، قال، وصعد العالمان معًا إلى جو علمي نادر، حيث تم وزن احتمالات تعديل معدل المواليد مقابل انخفاض إمدادات الغذاء للتحقق من الصراع من أجل البقاء.

في ذلك الصباح، رسمنا خريطة لجزء صغير من الهضبة، متجنبين مستنقع الزواحف الطائرة، ومتمسكين بالشرق من جدولنا بدلًا من الغرب. في ذلك الاتجاه كانتِ الأرض لا تزال مغطاة بالأشجار الكثيفة، مع الكثير من الأشجار الكثيفة التي كانتْ تجعل تقدمنا بطيئًا للغاية.

لقد تحدثتُ حتى الآن عن أهوال أرض مابل وايت؛ ولكن كان هناك جانب آخر للموضوع؛ فطوال ذلك الصباح الذي كنّا فيه نتجول بين الزهور الجميلة- التي لاحظتُ أنّها كانتْ في الغالب بيضاء أو صفراء اللون، فهي، كما أوضح لنا أستاذانا، ظلال الزهور البدائية. في العديد من الأماكن كانتِ الأرض مغطاة بالكامل بها، وبينما كنا نسير حتى الكاحل على تلك السجادة الرائعة، كانتِ الرائحة مسكرة تقريبًا في حلاوتها وكثافتها.

كان النحل الإنجليزي الأليف يطن في كل مكان حولنا. كانتِ العديد من الأشجار التي مررنا تحتها ذات أغصان منحنية بالفاكهة، بعضها كان من أنواع مألوفة، بينما كانت أنواع أخرى جديدة. من خلال مراقبة أي منها نقرته الطيور، تجنبنا كل خطر السم وأضفنا صنفًا لذيذًا إلى احتياطينا الغذائي. في الغابة التي عبرناها كانتْ هناك العديد من المسارات الصعبة التي صنعتها الوحوش البرية، وفي الأماكن الأكثر مستنقعًا رأينا وفرة من آثار الأقدام الغريبة، بما في ذلك العديد من آثار الإيجوانودون. ذات مرة، لاحظنا في بستان العديد من هذه المخلوقات الضخمة وهي ترعى، وتمكن اللورد (جون)، من خلال منظاره، من الإبلاغ عن وجودها أيضًا تحت الأسفلت، وإن كان في مكان مختلف عن المكان الذي فحصناه في الصباح. لم نكن لنتخيل ما تعنيه هذه الظاهرة.

لقد رأينا العديد من الحيوانات الصغيرة، مثل القنافذ، وآكل النمل الحرشفي، والخنزير البري، ذو اللون الأبقع والأنياب المنحنية الطويلة. ذات مرة، من خلال فجوة في الأشجار، رأينا كتفًا واضحًا من التل الأخضر على مسافة ما، وعبر هذا كان حيوان كبير ذو لون بني يتنقل بسرعة كبيرة. مر بسرعة كبيرة لدرجة أننا لم نتمكن من تحديد ما هو؛ ولكن إذا كان غزالًا، كما ادعى اللورد (جون)، فلا بُد أنّه كان بحجم تلك الأيائل الأيرلندية الوحشية التي لا تزال تُحفر من وقت لآخر في مستنقعات وطني الأصلي.

منذ الزيارة الغامضة لمخيمنا، كنا نعود إليه دائمًا ببعض الشكوك. ومع ذلك، في هذه المناسبة وجدنا كل شيء على ما يرام.

في ذلك المساء دارتْ بيننا مناقشة كبيرة حول وضعنا الحالي وخططنا المستقبلية، والتي لا بُد أن أصفها بالتفصيل؛ لأنّها قادتنا إلى بداية جديدة تمكنا من خلالها من اكتساب معرفة أكثر اكتمالًا بأرض مابل وايت مقارنة بما كان من الممكن أن نحصل عليه في أسابيع

عديدة من الاستكشاف. كان (سمرلي) هو من افتتح المناقشة. فقد كان طوال اليوم متذمرًا، والآن أثارتْ بعض ملاحظات اللورد (جون) حول ما ينبغي لنا أن نفعله غدًا كل مرارته.

«ما ينبغي لنا أن نفعله اليوم وغدًا وفي كل الأوقات»، قال، «هو إيجاد طريقة ما للخروج من الفخ الذي وقعنا فيه. أنتم جميعًا تتجهون بعقولكم نحو دخول هذه المنطقة. أقول إنّنا يجب أن نخطط لكيفية الخروج منها».

«لقد فوجئتُ يا سيدي»، صاح (تشالنجر) وهو يمسح لحيته المهيبة، «أنّ أي رجل من رجال العلم يلتزم بمثل هذه المشاعر الدنيئة. أنت في أرض تقدم مثل هذا الحافز لعالم الطبيعة الطموح كما لم يفعل أي شخص منذ بداية العالم، وأنت تقترح أن نتركها قبل أن نكتسب أكثر من المعرفة السطحية عنها أو عن محتوياتها. كنتُ أتوقع أشياء أفضل منك يا بروفسور سمرلي».

«يجب أن تتذكر»، قال (سمرلي) بحدة، «أنّ لدي فئة كبيرة في لندن هم في الوقت الحاضر تحت رحمة وكيل غير كفء للغاية. وهذا يجعل موقفي مختلفًا عن موقفكيا بروفسور تشالنجر؛ حيث أنّه، على حد علمي، لم يتم تكليفك بأي عمل تعليمي مسؤول».

«بالضبط»، قال (تشالنجر). «لقد شعرتُ أنّه من التدنيس تحويل عقل قادر على إجراء أعلى الأبحاث الأصلية إلى أي هدف أقل. ولهذا السبب وجهتُ نفسي بشدة ضد أي تعيين دراسي معروض».

«على سبيل المثال؟» سأل (سمرلي) بسخرية؛ لكن اللورد (جون) سارع إلى تغيير الحديث.

«يجب أن أقول»، قال، «أعتقد أنّه سيكون من السيئ جدًا أن أعود إلى لندن قبل أن أعرف الكثير عن هذا المكان أكثر مما أعرفه حاليًا».

«لن أجرؤ على دخول المكتب الخلفي لجريدتي ومواجهة ماكاردل العجوز»، أنا قلتُ. (سوف تعذرني على صراحة هذا التقرير، أليس كذلك يا سيدي؟) «لن يسامحني أبدًا على ترك مثل هذه النسخة غير المستنفدة خلفي. علاوة على ذلك، بقدر ما أستطيع أن أرى، فإنّ الأمر لا يستحق المناقشة، لأنّنا لا نستطيع النزول، حتى لو أردنا ذلك».

علق (تشالنجر) قائلًا: «إن صديقنا الشاب يعوض عن العديد من الثغرات العقلية الواضحة بقدر من الفطرة السليمة البدائية. إنّ مصالح مهنته المزرية لا أهمية لها بالنسبة لنا؛ ولكن كما أشار، لا يمكننا النزول في أي حال؛ لذا فإنّ مناقشة الأمر مضيعة للطاقة».

«إنّ القيام بأي شيء آخر مضيعة للطاقة»، هدر (سمرلي) من خلف غليونه. «اسمحوا لي أن أذكركم بأننا أتينا إلى هنا في مهمة محددة تمامًا، عُهِد بها إلينا في اجتماع معهد علم الحيوان في لندن. كانتْ تلك المهمة اختبار صحة تصريحات البروفيسور تشالنجر. وأنا مضطر إلى الاعتراف بأنّ هذه التصريحات أصبحتِ الآن في وضع يسمح لنا بتأييدها. وبالتالي فإنّ عملنا الظاهري قد انتهى. أما فيما يتعلق بالتفاصيل التي لا تزال بحاجة إلى العمل عليها على هذه الهضبة، فهي ضخمة للغاية بحيث لا يمكن إلا لبعثة كبيرة، بمعدات خاصة للغاية، أن تأمل في التعامل معها. وإذا حاولنا القيام بذلك بأنفسنا، فإنّ النتيجة الوحيدة المحتملة هي أننا لن نعود أبدًا بالمساهمة المهمة التي اكتسبناها بالفعل في العلم. لقد ابتكر البروفيسور تشالنجر وسائل لإيصالنا إلى هذه الهضبة عندما بدا أنّها غير قابلة للوصول؛ وأعتقد أنّه يتعين علينا الآن أن نطلب منه استخدام نفس الإبداع في إعادتنا إلى العالم الذي أتينا منه».

أعترف أنّه كما ذكر (سمرلي) وجهة نظره قد بدتْ لي معقولة تمامًا. حتى (تشالنجر) تأثر بالاعتبار بأنّ أعداءه لن يصمدوا أبدًا إذا لم يصل تأكيد تصريحاته أبدًا إلى أولئك الذين شككوا فيها.

«إنّ مشكلة النزول تبدو للوهلة الأولى مشكلة هائلة»، قال، «ومع ذلك لا أستطيع أن أشك في أنّ العقل يمكنه حلها. أنا مستعد للموافقة مع زميلنا على أنّ الإقامة الطويلة في مابل وايت لاند غير مستحبة في الوقت الحالي، وأنّ مسألة عودتنا سوف يتعين مواجهتها قريبًا. ومع ذلك، أرفض تمامًا المغادرة، على أية حال، حتى ننتهي على الأقل من فحص سطحي لهذا المنطقة، ونكون قادرين على حمل شيء ما في طبيعة المخطط معنا».

أطلق البروفيسور (سمرلي) زفرة من نفاد الصبر.

«لقد أمضينا يومين طويلين في الاستكشاف»، قال، «ولم نعد نعرف الجغرافيا الفعلية للمكان أكثر مما كنّا نعرفه عندما بدأنا. من الواضح أنّ المكان مغطى بأشجار كثيفة، وسيستغرق الأمر شهورًا لاختراقه ومعرفة العلاقات بين جزء وآخر. لو كانتْ هناك قمة مركزية لكان الأمر مختلفًا، لكن كل شيء ينحدر إلى أسفل، بقدر ما نستطيع أن نرى. وكلما ابتعدنا، قل احتمال حصولنا على أي رؤية عامة».

في تلك اللحظة، جاءني الإلهام. وقعتْ عيناي بالصدفة على جذع شجرة الجنكة الضخم الملتوي الذي ألقى بأغصانه الضخمة علينا. بالتأكيد، إذا كان طول جذعها يتجاوز طول كل الجذع الأخرى، فلا بُد أن يكون ارتفاعها كذلك. إذا كانتْ حافة الهضبة هي أعلى نقطة بالفعل، فلماذا لا تكون هذه الشجرة العظيمة برج مراقبة يتحكم في المنطقة بأكملها؟ الآن، منذ أن كنتُ شابًا أمارس رياضة الجري في أيرلندا، كنتُ متسلقًا شجاعًا ماهرًا للأشجار. ربما يكون رفاقي هم أسيادي على الصخور، لكنني كنتُ أعلم أنني

سأكون الأعظم بين تلك الأغصان. لو استطعتُ أن أضع ساقي فقط على أدنى الفروع العملاقة، لكان من الغريب حقًا ألا أتمكن من شق طريقي إلى القمة. لقد سُرَّ رفاقي بفكرتي.

قال (تشالنجر) وهو يجمع تفاحتي وجنتيه الحمراوين: «صديقنا الشاب قادر على القيام بجهود بهلوانية من المستحيل أن يقوم بها رجل ذو مظهر أكثر صلابة، وإن كان ربما أكثر قوة. وأنا أشيد بقراره».

قال اللورد (جون) وهو يربتُ على ظهري: «بحق جورج، أيها الشاب، لقد وضعتَ يدك عليها»، «لا أستطيع أن أتخيل كيف لم نفكر في الأمر من قبل! لم يتبق سوى ساعة من ضوء النهار، ولكن إذا أخذتَ دفتر ملاحظاتك، فقد تتمكن من الحصول على رسم تخطيطي تقريبي للمكان. إذا وضعنا صناديق الذخيرة الثلاث هذه تحت الفرع، فسأرفعك عليها قريبًا».

وقف على الصناديق بينما كنتُ أواجه الجذع، وكان يرفعني برفق عندما قفز (تشالنجر) إلى الأمام وأعطاني دفعة قوية بيده الضخمة حتى أنّه أطلقني على الشجرة. وبإمساك كلتا ذراعي بالفرع، زحفتُ بقوة بقدمي حتى تمكنتُ أولًا بجسدي، ثم ركبتي، عليه. كانتْ هناك ثلاثة فروع ممتازة، مثل درجات السلم الضخمة، فوق رأسي، ومجموعة متشابكة من الفروع الملائمة خلفها، لذلك تسلقتُ إلى الأمام بسرعة لدرجة أنني فقدتُ رؤية الأرض قريبًا ولم يكن لدي سوى أوراق الشجر تحتي. في بعض الأحيان، كنتُ أواجه شجرًا، وفي إحدى المرات، كان عليّ أن أتسلق شجرة متسلقة لمسافة ثمانية أو عشرة أقدام، لكنني أحرزتُ تقدمًا ممتازًا، وبدا صوت (تشالنجر) القوي وكأنه من مسافة بعيدة تحتي. ومع ذلك، كانتِ الشجرة ضخمة، وعندما نظرتُ إلى الأعلى، لم أستطع أن أرى أي ترقق

في الأوراق فوق رأسي. كانتْ هناك كتلة كثيفة تشبه الشجيرات، بدتْ وكأنّها طفيلي على فرع كنتُ أتسلقه. أدرتُ رأسي حولها لأرى ما هو أبعد من ذلك، وكدتُ أسقط من الشجرة من دهشتي ورعبي مما رأيته. كان هناك وجه يحدق في وجهي- على مسافة قدم أو قدمين فقط. كان المخلوق الذي يمتلكه يختبئ خلف الطفيلي، وقد نظر حوله في نفس اللحظة التي نظرتُ فيها.

كان وجهًا بشريًا- أو على الأقل كان أكثر إنسانية من أي وجه قرد رأيته على الإطلاق. كان طويلًا، أبيض اللون، وملطخًا بالبثور، وكان أنفه مسطحًا، وفكه السفلي بارزًا، مع شعيرات من الشوارب الخشنة حول الذقن. كانتْ عيناه، اللتان كانتا تحت حاجبين كثيفين وثقيلين، وحشتين ووحشيتين، وعندما فتح فمه ليزمجر بها بدا وكأنّه لعنة عليّ، لاحظتُ أنّه كان لديه أنياب منحنية حادة. للحظة قرأتُ الكراهية والتهديد في عينيه الشريرتين. ثم، بسرعة البرق، جاء تعبير عن الخوف الساحق. كان هناك اصطدام بأغصان مكسورة بينما غاص بعنف إلى أسفل في تشابك اللون الأخضر. لمحتُ جسدًا مشعرًا مثل خنزير محمر، ثم اختفى وسط دوامة من الأوراق والأغصان.

صاح (روكستون) من الأسفل: «ما الأمر؟»، «هل أصابك مكروه؟».

صرختُ، وذراعي حول الفرع وكل أعصابي ترتعش: «هل رأيته؟».

«سمعنا صوتًا وكأنّ قدمك انزلقتْ. ماذا كان؟».

لقد صدمتُ من الظهور المفاجئ والغريب لهذا الرجل القرد لدرجة أنني ترددتُ في النزول مرة أخرى وإخبار رفاقي بما حدث. ولكنني كنتُ قد وصلتُ بالفعل إلى أعلى الشجرة العظيمة لدرجة أنني شعرتُ بالإهانة إن عدتُ دون أن أنفذ مهمتي.

بعد فترة طويلة توقفتُ لاستعادة أنفاسي وشجاعتي، واصلتُ الصعود. وفي إحدى المرات وضعتُ وزني على فرع متعفن وتأرجحتُ بيدي لبضع ثوان، ولكن في الأساس كان التسلق سهلًا. وبدأتِ الأوراق تتساقط من حولي تدريجيًا، وأدركتُ من الرياح التي كانتْ تهب على وجهي أنني قد وصلتُ إلى قمة كل أشجار الغابة. ولكنني كنتُ مصممًا على عدم النظر حولي قبل أن أصل إلى أعلى نقطة، لذا فقد واصلتُ الصعود حتى وصلتُ إلى الحد الذي انحنى فيه الفرع الأعلى تحت وزني. وهناك استقررتُ في مفترق مناسب، وبعد أن تمكنتُ من الحفاظ على توازني بأمان، وجدتُ نفسي أنظر إلى الأسفل إلى منظر بانورامي رائع للغاية لهذه المنطقة الغريبة التي وجدنا أنفسنا فيها.

كانتِ الشمس فوق الأفق الغربي مباشرة، وكان المساء ساطعًا وواضحًا بشكل خاص، حتى أنّه كان من الممكن رؤية امتداد الهضبة بالكامل من تحتي. كانتْ، كما نراها من هذا الارتفاع، ذات شكل بيضاوي، بعرض حوالي ثلاثين ميلًا وعرض عشرين ميلًا. كان شكلها العام عبارة عن قمع ضحل، تنحدر جميع جوانبه إلى بحيرة كبيرة في المنتصف. ربما كان محيط هذه البحيرة عشرة أميال، وكانتْ خضراء وجميلة للغاية في ضوء المساء، مع هامش سميك من القصب على حوافها، وسطحها مكسور بعدة أكوام رملية صفراء، التي كانتْ تلمع باللون الذهبي في ضوء الشمس اللطيف. كان هناك عدد من الأجسام الطويلة الداكنة، والتي كانت كبيرة جدًا بالنسبة للتماسيح وطويلة جدًا بالنسبة للقوارب، ملقاة على حواف هذه البقع الرملية. باستخدام منظاري، كان بإمكاني أن أرى بوضوح أنّها كانتْ حية، لكنني لم أستطع تخيل طبيعتها.

من جانب الهضبة التي كنّا عليها، كانتْ منحدرات الغابات، مع مساحات خضراء متفرقة، تمتد إلى أسفل لمسافة خمسة أو ستة أميال حتى البحيرة المركزية. كان بوسعي أن أرى عند قدمي مساحة خضراء تسكنها حيوانات الإيجوانودون، وعلى مسافة أبعد

كان هناك فتحة مستديرة في الأشجار تميز مستنقعات الديناصورات الطائرة. ولكن على الجانب المواجه لي، كانتِ الهضبة تقدم مظهرًا مختلفًا تمامًا. هناك كانتِ المنحدرات البازلتية من الخارج تنتشر إلى الداخل، لتشكل منحدرًا يبلغ ارتفاعه حوالي مائتي قدم، مع منحدر خشبي تحته. وعلى طول قاعدة هذه المنحدرات الحمراء، على مسافة ما فوق الأرض، كان بوسعي أن أرى عددًا من الثقوب المظلمة من خلال الزجاج، والتي خمنتُ أنّها أفواه الكهوف. وعند فتحة أحد هذه الكهوف كان هناك شيء أبيض يلمع، لكنني لم أتمكن من تحديد ماهيته. جلستُ أرسم خريطة للمنطقة حتى غربتِ الشمس وكان الظلام دامسًا لدرجة أنني لم أعد أستطيع التمييز بين التفاصيل. ثم نزلتُ إلى رفاقي الذين كانوا ينتظرونني بشغف في أسفل الشجرة العظيمة. لقد أصبحتُ بطل الرحلة الاستكشافية لأول مرة. لقد فكرتُ في الأمر بمفردي، وقمتُ به بمفردي؛ وها هي الخريطة التي ستوفر علينا شهرًا من البحث الأعمى وسط مخاطر مجهولة. لقد صافحني كل منهم بجدية، ولكن قبل أن يناقشوا تفاصيل خريطتي، كان عليّ أن أخبرهم بمواجهتي مع رجل القرد بين الأغصان.

«لقد كان هناك طوال الوقت»، قلتُ.

«كيف عرفتَ ذلك؟» سأل اللورد (جون).

«لأنني لم أكن أبدًا بدون ذلك الشعور بأنّ شيئًا خبيثًا يراقبنا. لقد ذكرتُ ذلك لك، بروفسور تشالنجر».

«لقد قال صديقنا الشاب شيئًا من هذا القبيل بالتأكيد. وهو أيضًا الوحيد بيننا الذي يتمتع بالمزاج السلتي الذي يجعله حساسًا لمثل هذه الانطباعات».

بدأ (سمرلي)، وهو يملأ غليونه: «إنّ نظرية التخاطر بأكملها...».

«إنّها واسعة جدًا بحيث لا يمكن مناقشتها الآن»، قال (تشالنجر)، بحزم. «أخبرني الآن»، أضاف، بمظهر أسقف يخاطب مدرسة الأحد، «هل لاحظتَ بالصدفة ما إذا كان المخلوق يستطيع أن يتقاطع إبهامه فوق راحة يده؟».

«لا، بالتأكيد».

«هل كان له ذيل؟».

«لا».

«هل كانتِ القدم قابلة للإمساك بشيء ما؟».

«لا أظن أنّه كان ليتمكن من الهرب بهذه السرعة بين الأغصان لو لم يكن بوسعه الإمساك بقدميه».

«في أمريكا الجنوبية، إذا كانتْ ذاكرتي لا تخونني- ستتحقق من الملاحظة يا بروفسور سمرلي- يوجد نحو ستة وثلاثين نوعًا من القرود، لكن القرد الشبيه بالإنسان غير معروف. من الواضح، مع ذلك، أنّه موجود في هذه المنطقة، وأنّه ليس من النوع المشعر الشبيه بالغوريلا، الذي لا يُرى أبدًا خارج إفريقيا أو الشرق». (كنتُ أميل إلى الاستنتاج، وأنا أنظر إليه، أنني رأيتُ ابن عمه الأول في كنسينغتون). «هذا النوع ذو الشارب وعديم اللون، وتشير هذه الخاصية الأخيرة إلى حقيقة أنّه يقضي أيامه في عزلة بين الأشجار. والسؤال الذي يتعين علينا مواجهته هو ما إذا كان يقترب أكثر من القرد أم الإنسان. في الحالة الأخيرة، قد يقترب من ما أطلق عليه العامة (الحلقة المفقودة). وحل هذه المشكلة هو واجبنا الفوري».

«ليس الأمر كذلك»، قال (سمرلي) فجأة. «الآن، بفضل ذكاء ونشاط السيد مالون

(لا يسعني إلا أن أقتبس الكلمات)، حصلنا على خريطتنا، وواجبنا الوحيد والمباشر هو أن نخرج أنفسنا سالمين من هذا المكان الرهيب».

«أواني لحم الحضارة»، تأوه (تشالنجر).

«أواني حبر الحضارة، سيدي. مهمتنا هي تسجيل ما رأيناه، وترك الاستكشاف الإضافي للآخرين. لقد وافقتم جميعًا على ذلك قبل أن يحصل لنا السيد مالون على الخريطة».

«حسنًا»، قال (تشالنجر)، «أعترف بأنّ عقلي سيكون أكثر راحة عندما أتأكد من أنّ نتيجة رحلتنا قد تم نقلها إلى أصدقائنا. لا أملك حتى الآن فكرة عن كيفية النزول من هذا المكان. ومع ذلك، لم أواجه أي مشكلة حتى الآن لم يتمكن عقلي المبدع من حلها، وأعدك أنني سأوجه انتباهي غدًا إلى مسألة هبوطنا». وهكذا سُمح للأمر بالتوقف عند هذا الحد.

ولكن في ذلك المساء، وعلى ضوء النار وشمعة واحدة، تم رسم أول خريطة للعالم المفقود. وتم رسم كل التفاصيل التي لاحظتها تقريبًا من برج المراقبة الخاص بي في مكانها النسبي. وظل قلم (تشالنجر) يحوم فوق الفراغ الكبير الذي يحدد البحيرة.

«ماذا سنسميها؟» سأل.

«لماذا لا تخاطر بتخليد اسمك؟» قال (سمرلي)، بلهجته المعتادة اللاذعة.

«أثق، سيدي، أن اسمي سيكون له ادعاءات أخرى وأكثر شخصية على الأجيال القادمة»، قال (تشالنجر)، بصرامة. «أي جاهل يمكنه أن يورث ذكراه عديمة القيمة عن طريق فرضها على جبل أو نهر. لستُ بحاجة إلى مثل هذا النصب التذكاري».

كان (سمرلي)، بابتسامة ملتوية، على وشك شن هجوم جديد عندما سارع اللورد

(جون) للتدخل.

«الأمر متروك لك، أيها الشاب، لتسمية البحيرة»، قال. «لقد رأيتَها أولًا، وبحق جورج، إذا اخترتَ وضع (بحيرة مالون) عليها، فلا أحد لديه الحق الأفضل».

«بكل تأكيد. دع صديقنا الشاب يطلق عليها اسمًا»، قال (تشالنجر).

«إذن»، قلتُ، وأنا أخجل، كما أجرؤ على القول، وأنا أقول ذلك، «فليُطلق عليها بحيرة جلاديس».

«ألا تعتقد أنّ البحيرة المركزية ستكون أكثر وصفًا؟» علّق (سمرلي).

«أفضل بحيرة جلاديس».

نظر إليّ (تشالنجر) بتعاطف، وهز رأسه الكبير في استنكار مصطنع. «الأولاد سيبقون أولادًا»، قال. «لتكن بحيرة جلاديس».

الفصل الثاني عشر

كان الأمر مروّعًا في الغابة

لقد قلتُ- أو ربما لم أقل؛ لأنّ ذاكرتي تلعب بي حيلًا حزينة هذه الأيام- إنني كنتُ أتوهج بالفخر عندما يشكرني ثلاثة من رفاقي على إنقاذ الموقف، أو على الأقل مساعدتي فيه إلى حد كبير. وبصفتي أصغر أفراد المجموعة، ليس فقط من حيث السن، بل وأيضًا من حيث الخبرة والشخصية والمعرفة وكل ما يلزم لتكوين رجل، فقد طغى عليّ منذ البداية. والآن بدأتُ أستعيد نفسي. لقد شعرتُ بالدفء عند التفكير في ذلك. يا للأسف! على الفخر الذي يسبق السقوط! إنّ ذلك التوهج الضئيل من الرضا عن الذات؛ ذلك القدر الإضافي من الثقة بالنفس، كان ليقودني في تلك الليلة بالذات إلى أكثر التجارب رعبًا في حياتي، والتي انتهتْ بصدمة تجعل قلبي يمرض عندما أفكر فيها.

لقد حدث ذلك بهذه الطريقة. فقد كنتُ متحمسًا بشكل مفرط لمغامرة الشجرة، وبدا النوم مستحيلًا. كان (سمرلي) يحرس المكان، جالسًا منحنيًا فوق نارنا الصغيرة، وكان شكله غريبًا وزاويًا، وبندقيته فوق ركبتيه ولحيته المدببة التي تشبه لحية الماعز تهتز مع كل إيماءة متعبة من رأسه. كان اللورد (جون) مستلقيًا في صمت، ملفوفًا بالبونشو الأمريكي الجنوبي الذي كان يرتديه، بينما كان (تشالنجر) يشخر بصوت يتردد صداه عبر الغابة. كان القمر المكتمل ساطعًا، وكان الهواء باردًا للغاية. يا لها من ليلة رائعة للتنزه! ثم فجأة جاءتِ الفكرة، «لمَ لا؟» لنفترض أنني تسللتُ بهدوء، لنفترض أنني شققتُ طريقي إلى البحيرة المركزية، لنفترض أنني عدتُ لتناول الإفطار مع بعض سجلات المكان- ألن أكون في هذه الحالة رفيقًا أكثر جدارة؟ ثم، إذا فاز (سمرلي) وتم العثور على وسيلة للهروب،

فسنعود إلى لندن بمعرفة مباشرة للغموض المركزي للهضبة، والتي كنتُ وحدي، من بين جميع الرجال، لأخترقها. لقد فكرتُ في (جلاديس)؛ التي قالتْ: «تحيطنا البطولات من كل جانب». وبدا لي أنني سمعتُ صوتها وهي تقول ذلك. كما فكرتُ في (مكاردل). يا له من مقال من ثلاثة أعمدة في الصحيفة! يا له من أساس لمهنة! ربما تكون مراسلة في الحرب العظمى القادمة في متناول يدي. لقد أمسكتُ بمسدس- كانتْ جيوبي مليئة بالخراطيش- وخرجتُ بسرعة وأنا أفرق بين شجيرات الأشواك عند بوابة زريبة. لقد أظهرتْ لي آخر نظرة لي أنّ (سمرلي) فاقد الوعي، أكثر الحراس عبثًا، ما زال يغفو مثل لعبة ميكانيكية غريبة أمام النار المشتعلة.

لم أقطع مائة ياردة حتى ندمتُ بشدة على تهوري. ربما قلتُ في مكان ما في هذه الوقائع أنني أتمتع بقدر كبير من الخيال لأكون رجلًا شجاعًا حقًا، لكن لدي خوفًا كبيرًا من أن أبدو خائفًا. كانتْ هذه هي القوة التي حملتني الآن إلى الأمام. لم أستطع ببساطة التراجع دون أن أفعل شيئًا. حتى لو لم يفتقدني رفاقي، ولم يعرفوا بضعفي أبدًا، فسيظل هناك بعض الخجل الذاتي الذي لا يطاق في نفسي. ومع ذلك، ارتجفتُ في الموقف الذي وجدتُ نفسي فيه، وكنتُ لأعطي كل ما أملك في تلك اللحظة لأكون حرًا بشرف من كل هذا العمل.

كان الأمر مروّعًا في الغابة. كانتِ الأشجار تنمو بكثافة، وانتشرتْ أوراقها على نطاق واسع حتى أنني لم أستطع رؤية أي شيء من ضوء القمر باستثناء الفروع العالية التي كانتْ تتشابك هنا وهناك في السماء المرصعة بالنجوم. ومع اعتياد العينين على الظلام، يدرك المرء أنّ هناك درجات مختلفة من الظلام بين الأشجار- بعضها كان خافتًا، بينما كانتْ هناك بقع سوداء مظلمة بينها، مثل أفواه الكهوف، والتي كنتُ أرتجف من الرعب عندما أمر بها. فكرتُ في الصراخ اليائس للإيجوانودون المعذب- تلك الصرخة المروعة

التي ترددتْ عبر الغابة. فكرتُ أيضًا في لمحة خاطفة لي في ضوء شعلة اللورد (جون) لتلك الأنف المتضخمة المليئة بالثآليل والتي تستعبد الدماء. حتى الآن كنتُ في أرض صيده. في أي لحظة قد يقفز عليّ من الظلال- هذا الوحش المجهول والرهيب. توقفتُ، وأخذتُ خرطوشة من جيبي، وفتحتُ مؤخرة بندقيتي. عندما لمستُ الرافعة قفز قلبي بداخلي. لقد كان المسدس، وليس البندقية، هو الذي أخذته!

مرة أخرى اجتاحني الدافع للعودة. هنا، بالتأكيد، كان هناك سبب ممتاز لفشلي- وهو سبب لن يفكر فيه أحد أقل مني. ولكن مرة أخرى قاوم الكبرياء الأحمق هذه الكلمة ذاتها. لا يمكنني- يجب ألّا- أفشل. بعد كل شيء، ربما كانتْ بندقيتي عديمة الفائدة مثل المسدس ضد مثل هذه المخاطر التي قد أواجهها. إذا عدتُ إلى المخيم لتغيير سلاحي، فمن غير المرجح أن أتوقع الدخول والخروج مرة أخرى دون أن يراني أحد. في هذه الحالة، سيكون هناك تفسيرات، ولن تكون محاولتي خاصة بي بعد الآن. بعد قليل من التردد، استجمعتُ شجاعتي وواصلتُ طريقي، وبندقيتي عديمة الفائدة تحت ذراعي.

كان ظلام الغابة مقلقًا، ولكن الأسوأ من ذلك كان ضوء القمر الأبيض الساكن في المرج المفتوح من الإغوانودون. اختبأتُ بين الشجيرات، ونظرتُ إليه. لم يكن هناك أي من الوحوش الضخمة في الأفق. ربما دفعتِ المأساة التي حلتْ بأحدهم إلى ترك أرض التغذية الخاصة بهم. في الليل الضبابي الفضي لم أستطع رؤية أي علامة على وجود أي كائن حي. لذا، اكتسبتْ الشجاعة، وانزلقتُ بسرعة عبره، وبين الغابة على الجانب الأبعد اتخذتُ مرة أخرى الجدول الذي كان دليلي. كان رفيقًا مبتهجًا، يقرقر ويضحك أثناء جريانه، مثل جدول سمك السلمون المرقط القديم العزيز في ويست كانتري حيث كنتُ أصطاد في الليل في طفولتي. طالما كنتُ أتبعه إلى أسفل، فلا بُد أن أصل إلى البحيرة، وطالما كنتُ أتبعه عائدًا فلا بُد أن أصل إلى المخيم. في كثير من الأحيان كنتُ لأفقد نظري بسبب

خشب الشجيرات المتشابكة، لكنني كنتُ دائمًا في مدى سمع رنينها ورذاذها.

وعندما نزلتُ المنحدر، أصبحتِ الغابات أقل كثافة، وحلّتِ الشجيرات، مع الأشجار العالية أحيانًا، محل الغابة. وبالتالي، تمكنتُ من إحراز تقدم جيد، وتمكنتُ من الرؤية دون أن يراني أحد. مررتُ بالقرب من مستنقع البترواداكتيل، وبينما كنتُ أفعل ذلك، وبجناحيه الجافين والجلديين، ارتفع أحد هذه المخلوقات الضخمة- كان طوله عشرين قدمًا على الأقل من طرفه إلى طرفه- من مكان قريب مني وحلق في الهواء. وبينما مر عبر وجه القمر، أشرق الضوء بوضوح من خلال الأجنحة الغشائية، وبدا وكأنّه هيكل عظمي طائر في مواجهة الشعاع الاستوائي الأبيض. انحنيتُ بين الشجيرات؛ لأنني كنتُ أعلم من تجربتي السابقة أنّه بصرخة واحدة يمكن لهذا المخلوق أن يجلب مئات من رفاقه البغيضين حول أذني. ولم أجرؤ على التسلل إلى الأمام في رحلتي إلا بعد أن استقر مرة أخرى.

كانتِ الليلة هادئة للغاية، ولكن بينما كنتُ أتقدم، أدركتُ صوتًا منخفضًا مدويًا، همهمة مستمرة، في مكان ما أمامي. ازدادتْ قوة هذا الصوت كلما تقدمتُ، حتى أصبح في النهاية قريبًا مني بوضوح. عندما وقفتُ ساكنًا كان الصوت مستمرًا، بحيث بدا وكأنّه يأتي من سبب ثابت. كان مثل غلاية تغلي أو فقاعات قدر كبير. سرعان ما وصلتُ إلى مصدره، ففي وسط فسحة صغيرة وجدتُ بحيرة- أو بالأحرى بركة؛ لأنّها لم تكن أكبر من حوض نافورة ميدان ترافالغار- من مادة سوداء تشبه القار، يرتفع سطحها وينخفض في بثور كبيرة من الغاز المتفجر. كان الهواء فوقها يلمع بالحرارة، وكانتِ الأرض المحيطة بها ساخنة لدرجة أنني بالكاد كنتُ أتحمل وضع يدي عليها. كان من الواضح أنّ الانفجار البركاني العظيم الذي رفع هذه الهضبة الغريبة منذ سنوات عديدة لم يستنفد قوته بالكامل بعد. لقد رأيتُ بالفعل صخورًا مسودّة وتلالًا من الحمم البركانية في كل مكان تطل من

بين النباتات المورقة التي كانتْ تغطيها، لكن هذه البركة الإسفلتية في الغابة كانتْ أول علامة على وجود نشاط فعلي على منحدرات الحفرة القديمة. لم يكن لدي وقت لفحصها بشكل أكبر لأنني كنتُ بحاجة إلى الإسراع إذا كنتُ سأعود إلى المخيم في الصباح.

كانتْ رحلة مخيفة، وسوف تظل عالقة في ذاكرتي ما دامتْ ذكراها باقية. في المساحات المفتوحة الكبيرة تحت ضوء القمر، تسللتُ بين الظلال على الحافة. وفي الغابة، زحفتُ إلى الأمام، وتوقفتُ بقلب ينبض كلما سمعتُ، كما كنتُ أفعل غالبًا، صوت سقوط الأغصان المكسورة عندما يمر حيوان بري. بين الحين والآخر، كانتْ ظلال عظيمة تلوح في الأفق للحظة ثم تختفي- ظلال عظيمة صامتة تبدو وكأنّها تتجول على أقدام مبطنة. كم مرة توقفتُ بنية العودة، ومع ذلك، في كل مرة تغلب كبريائي على خوفي، وأرسلني مرة أخرى حتى أحقق هدفي.

أخيرًا (أظهرتْ ساعتي أنّ الوقت كان واحدة صباحًا) رأيتُ وميض الماء وسط فتحات الغابة، وبعد عشر دقائق كنتُ بين القصب على حدود البحيرة المركزية. كنتُ جافًا للغاية، لذلك استلقيتُ وأخذتُ جرعة طويلة من مياهها؛ التي كانتْ عذبة وباردة. كان هناك طريق واسع به العديد من المسارات عليه في المكان الذي وجدته، لذلك كان من الواضح أنّه أحد أماكن شرب الحيوانات. بالقرب من حافة المياه كانتْ هناك كتلة ضخمة منعزلة من الحمم البركانية. صعدتُ إلى أعلى هذه الكتلة، واستلقيتُ على القمة، وكان لدي منظر ممتاز في كل اتجاه.

أول شيء رأيته ملأني بالدهشة. عندما وصفتُ المنظر من قمة الشجرة العظيمة، قلتُ إنّه على الجرف الأبعد يمكنني رؤية عدد من البقع الداكنة، والتي بدتْ وكأنّها أفواه الكهوف. الآن، عندما نظرتُ إلى نفس المنحدرات، رأيت أقراصًا من الضوء في

كل اتجاه، بقع حمراء محددة بوضوح، مثل فتحات السفن في الظلام. للحظة اعتقدتُ أنّها توهج الحمم البركانية من بعض النشاط البركاني؛ لكن هذا لا يمكن أن يكون كذلك. أي نشاط بركاني سيكون بالتأكيد في الوادي وليس مرتفعًا بين الصخور. ما هو البديل إذن؟ لقد كان الأمر رائعًا، ولا بُد أن يكون كذلك. لا بُد وأن تكون هذه البقع الحمراء انعكاسًا لنيران مشتعلة داخل الكهوف- نيران لا يمكن إشعالها إلا بيد الإنسان. كان هناك بشر، إذن، على الهضبة. يا لها من رحلة رائعة كانتْ مبررة! لقد كانتْ هذه أخبارًا بالفعل لنحملها معنا إلى لندن!

لقد استلقيتُ لفترة طويلة وأنا أراقب هذه البقع الحمراء المرتعشة من الضوء. أظن أنّها كانتْ على بعد عشرة أميال مني، ولكن حتى على هذه المسافة كان من الممكن أن يلاحظ المرء كيف كانتْ تتلألأ أو تختفي من وقت لآخر عندما يمر شخص ما أمامها. ما الذي كنت لأفعله لأتمكن من الزحف إليها، والتجسس عليها، وإخبار رفاقي ببعض المعلومات حول مظهر وطبيعة العرق الذي يعيش في مثل هذا المكان الغريب؟! كان الأمر مستحيلًا في الوقت الحالي، ومع ذلك بالتأكيد لم نتمكن من مغادرة الهضبة حتى نحصل على بعض المعرفة المؤكدة حول هذه النقطة.

كانتْ بحيرة (جلاديس)-بحيرتي الخاصة- تقع مثل ورقة من الزئبق أمامي، مع قمر منعكس يضيء بشكل ساطع في وسطها. كانتْ ضحلة؛ حيث رأيتُ في العديد من الأماكن ضفاف رملية منخفضة تبرز فوق الماء. في كل مكان على السطح الهادئ، كنتُ أرى علامات الحياة، أحيانًا مجرد حلقات وتموجات في الماء، وأحيانًا بريق سمكة فضية ضخمة في الهواء، وأحيانًا ظهر مقوس بلون الأردواز لوحش عابر. ذات مرة، رأيتُ على ضفة رملية صفراء مخلوقًا يشبه بجعة ضخمة، بجسم أخرق ورقبة عالية مرنة، يتجول على الحافة. على الفور غطس، ولبعض الوقت، تمكنتُ من رؤية الرقبة المقوسة والرأس

المنطلق يتمايلان فوق الماء. ثم غطس، ولم أعد أراه بعد ذلك.

سرعان ما انحرف انتباهي عن هذه المشاهد البعيدة وعاد إلى ما كان يحدث عند قدمي. كان مخلوقان مثل حيوان الأرماديلو الكبير قد نزلا إلى مكان الشرب، وكانا يجلسان على حافة الماء، وألسنتهما الطويلة المرنة مثل الشرائط الحمراء تنطلق للداخل والخارج أثناء لسعهما. نزل غزال ضخم ذو قرون متفرعة، وهو مخلوق رائع يحمل نفسه مثل الملك، مع ظبيته وصغاره وشرب بجانب حيوانات المدرع. لا يوجد مثل هذا الغزال في أي مكان آخر على وجه الأرض، لأنّ الموظ أو الأيائل التي رأيتها بالكاد تصل إلى كتفيه. على الفور أطلق غزال تحذيرًا، وانطلق مع عائلته بين القصب، بينما ركضتْ حيوانات المدرع أيضًا بحثًا عن مأوى. كان وافد جديد، حيوان وحشي للغاية، قادمًا على طول الطريق.

لقد تساءلتُ للحظة أين كان بوسعي أن أرى ذلك الشكل القبيح، ذلك الظهر المقوّس ذو الحواف المثلثة على طوله، ذلك الرأس الغريب الذي يشبه رأس الطائر والذي كان ملتصقًا بالأرض. ثم عاد إليّ. كان ذلك الديناصور ستيجوصوروس- ذلك المخلوق الذي احتفظ به مابل وايت في دفتر الرسم الخاص به، والذي كان أول شيء لفتَ انتباه تشالنجر! لقد كان هناك- ربما العينة ذاتها التي صادفها الفنان الأمريكي. لقد اهتزتِ الأرض تحت ثقله الهائل، وترددتْ أصوات رشفاته من الماء في هدوء الليل. لمدة خمس دقائق كان قريبًا جدًا من صخرتي لدرجة أنني لو مددتُ يدي لتمكنتُ من لمس شعره المموج البشع على ظهره. ثم ابتعد ببطء وضاع بين الصخور.

وعندما نظرتُ إلى ساعتي، رأيتُ أنّها كانتِ الثانية والنصف، وبالتالي فقد حان الوقت لبدء رحلتي إلى الملجأ. لم أواجه أي صعوبة فيما يتعلق بالاتجاه الذي يجب أن أعود إليه، فقد كنتُ طوال الوقت أحافظ على مجرى النهر الصغير على يساري، وكان ينفتح

على البحيرة المركزية على مرمى حجر من الصخرة التي كنتُ مستلقيًا عليها. لذا انطلقتُ في حالة معنوية عالية؛ لأنني شعرتُ بأنني قمتُ بعمل جيد وأنني أحمل ميزانية جيدة من الأخبار لرفاقي. كان أول ما أدهشني بالطبع هو رؤية الكهوف النارية واليقين من أنّ بعض الأجناس البدائية كانتْ تسكنها. ولكن إلى جانب ذلك، يمكنني التحدث من تجربتي في البحيرة المركزية. يمكنني أن أشهد بأنّها كانتْ مليئة بمخلوقات غريبة، وقد رأيتُ العديد من أشكال الحياة البدائية التي لم نصادفها من قبل. فكرتُ أثناء سيري أن قِلة من الرجال في العالم يمكنهم قضاء ليلة غريبة أو إضافة المزيد إلى المعرفة البشرية في سياقها.

كنتُ أصعد المنحدر بصعوبة، وأفكر في هذه الأفكار، ووصلتُ إلى نقطة ربما كانتْ في منتصف الطريق إلى الملجأ، عندما أعادني صوت غريب خلفي إلى موقعي. كان الصوت بين الشخير والهدير، منخفضًا وعميقًا ومخيفًا للغاية. كان من الواضح أنّ هناك مخلوقًا غريبًا بالقرب مني، لكن لم يكن من الممكن رؤية أي شيء، لذا أسرعتُ في طريقي بسرعة أكبر. كنتُ قد قطعتُ نصف ميل أو نحو ذلك عندما تكرر الصوت فجأة، لا يزال خلفي، لكنّه أعلى وأكثر تهديدًا من ذي قبل. توقف قلبي في داخلي عندما لمعتْ أمامي فكرة مفادها أنّ الوحش، أيًا كان، لا بُد أن يلاحقني بالتأكيد. أصبح جلدي باردًا وانتصب شعري عند التفكير. كان أن تمزق هذه الوحوش بعضها البعض جزءًا من الصراع الغريب من أجل البقاء، لكن أن تتجه نحو الإنسان الحديث، وأن تتعقب وتطارد الإنسان السائد عمدًا، كانتْ فكرة مذهلة ومخيفة. تذكرتُ مرة أخرى الوجه الملطخ بالدماء الذي رأيناه في وهج شعلة اللورد (جون)، وكأنّه رؤية مروّعة من أعمق دائرة في جحيم دانتي. وبينما كانتْ ركبتاي ترتجفان تحتي، وقفتُ ونظرتُ بعينين مذهولتين إلى أسفل الطريق المضاء بالقمر والذي كان يمتد خلفي. كان كل شيء هادئًا كما لو كنتُ في مشهد حلم. لم أستطع رؤية

أي شيء آخر سوى المساحات المفتوحة الفضية والبقع السوداء من الشجيرات. ثم من وسط الصمت، الوشيك والمهدد، جاء مرة أخرى ذلك النقيق المنخفض الأجش، أعلى وأقرب بكثير من ذي قبل. لم يعد هناك شك. كان هناك شيء ما يتتبعني، وكان يقترب مني كل دقيقة.

وقفتُ كرجل مشلول وأنا لا أزال أتأمل الأرض التي عبرتها. وفجأة رأيته. كانتْ هناك حركة بين الشجيرات في الطرف البعيد من الأرض التي عبرتها للتو. ثم انفصل ظل داكن ضخم وقفز إلى ضوء القمر الصافي. أقول «قفز» بحذر؛ لأنّ الوحش كان يتحرك مثل الكنغر، يقفز في وضع منتصب على رجليه الخلفيتين القويتين، بينما كانتْ رجلاه الأماميتان مثنيتين أمامه. كان ضخمًا وقويًا للغاية، مثل الفيل المنتصب، لكن حركاته، على الرغم من ضخامته، كانتْ يقظة للغاية. للحظة، عندما رأيتُ شكله، تمنيتُ أن يكون إجوانودونًا، والذي كنتُ أعرف أنّه غير مؤذٍ، ولكن على الرغم من جهلي، سرعان ما أدركتُ أنّ هذا كان مخلوقًا مختلفًا تمامًا. لقد كان لهذا الوحش وجه عريض قصير يشبه وجه الضفدع، بدلًا من رأسه اللطيف الذي يشبه شكل الغزال، والذي كان يشبه وجه آكل الأوراق ذي الأصابع الثلاثة، مثل ذلك الذي أزعجنا في معسكرنا. لقد أكدتْ لي صرخته الشرسة وطاقته الرهيبة في مطاردته أنّه كان بالتأكيد أحد الديناصورات آكلة اللحوم العظيمة، وهو أفظع الوحوش التي سارتْ على هذه الأرض على الإطلاق. وبينما كان الوحش الضخم يركض، كان ينحني للأمام على مخالبه الأمامية ويقترب من الأرض كل عشرين ياردة أو نحو ذلك. كان يشم رائحة أثري. وفي بعض الأحيان، كان يخطئ للحظة. ثم يلحق به مرة أخرى ويعود قافزًا بسرعة على طول المسار الذي سلكته.

حتى الآن، عندما أفكر في ذلك الكابوس، يتصبب العرق من جبيني. ماذا يمكنني أن أفعل؟ كانتْ قطعة الصيد عديمة الفائدة في يدي. ما المساعدة التي يمكنني الحصول

عليها من ذلك؟ نظرتُ حولي يائسًا بحثًا عن صخرة أو شجرة، لكنني كنتُ في غابة كثيفة الأشجار لا شيء أعلى من شتلة صغيرة في الأفق، بينما كنتُ أعلم أنّ المخلوق الذي خلفي يمكنه تدمير شجرة عادية كما لو كان قصبًا. كانتْ فرصتي الوحيدة الممكنة تكمن في الهروب. لم أستطع التحرك بسرعة على الأرض الوعرة المكسورة، ولكن عندما نظرتُ حولي في يأس، رأيتُ مسارًا صعبًا وواضح المعالم يمر أمامي. لقد رأينا العديد من هذا النوع، مسارات حيوانات برية مختلفة، أثناء رحلاتنا الاستكشافية. ربما تمكنتُ من الصمود على طول هذا المسار؛ لأنني كنتُ عداءً سريعًا وفي حالة ممتازة. ألقيتُ بندقيتي عديمة الفائدة بعيدًا، وقررتُ أن أقطع نصف ميل لم أفعله من قبل أو منذ ذلك الحين. كانتْ أطرافي تؤلمني، وصدري يرتجف، وشعرتُ أنّ حلقي سينفجر من شدة نقص الهواء، ومع ذلك، ومع هذا الرعب الذي خلف ظهري، ركضتُ وركضتُ وركضتُ. وفي النهاية توقفتُ، بالكاد قادرًا على الحركة. للحظة، اعتقدتُ أنني أسقطته عن الطريق. كان الطريق ساكنًا خلفي. ثم فجأة، مع ارتطام وتمزق، وضربات أقدام عملاقة وتنفس رئتي الوحش، هاجمني الوحش مرة أخرى. كان يلاحقني. لقد ضللتُ الطريق.

يا لي من مجنون أن أتأخر طويلًا قبل أن أهرب! حتى ذلك الحين، كان يصطادني بالرائحة، وكانتْ حركته بطيئة. لكنّه رآني بالفعل عندما بدأتُ في الركض. ومنذ ذلك الحين فصاعدًا، كان يصطادني بالبصر؛ لأنّ الطريق أظهر له إلى أين ذهبت. والآن، عندما دار حول المنحنى، كان يقفز بقفزات كبيرة. أشرق ضوء القمر على عينيه الضخمتين البارزتين، وعلى صف الأسنان الضخمة في فمه المفتوح، وعلى هامش المخالب اللامعة على ساعديه القصيرين القويين. وبصرخة رعب، استدرتُ واندفعتُ بعنف على طول الطريق. وخلفي، كان صوت تنفس المخلوق الكثيف المتقطع أعلى وأعلى. كانتْ خطواته الثقيلة بجانبي. كنتُ أتوقع في كل لحظة أن أشعر بقبضته على ظهري. ثم فجأة حدث

اصطدام- كنتُ أسقط في الفضاء، وكل شيء بعد ذلك كان ظلامًا وسكونًا.

عندما خرجتُ من فقداني للوعي- والذي لم يكن من الممكن، كما أعتقد، أن يستمر لأكثر من بضع دقائق- شعرتُ برائحة مروّعة ونفاذة للغاية. ومددتُ يدي في الظلام، فصادفتُ شيئًا بدا وكأنّه كتلة ضخمة من اللحم، بينما أطبقتُ يدي الأخرى على عظمة كبيرة. كانتْ هناك دائرة من السماء المرصعة بالنجوم فوقي، ممّا أظهر لي أنني مستلقٍ في قاع حفرة عميقة. تعثرتُ ببطء على قدمي وشعرتُ بنفسي في كل مكان. كنتُ متيبسًا ومتألمًا من رأسي إلى قدمي، لكن لم يكن هناك طرف لا يتحرك، ولا مفصل لا ينثني. وبينما عادتِ الظروف التي أدتْ إلى سقوطي إلى ذهني المرتبك، نظرتُ إلى أعلى في رعب، متوقعًا أن أرى ذلك الرأس المخيف يلوّح في السماء الشاحبة. ومع ذلك، لم يكن هناك أي أثر للوحش، ولم أستطع سماع أي صوت من الأعلى. بدأتُ أسير ببطء، لذلك، تحسستُ كل الاتجاهات لمعرفة ما قد يكون هذا المكان الغريب الذي أُلقيتُ إليه في الوقت المناسب.

لقد كان هذا المكان، كما قلتُ، حفرة ذات جدران شديدة الانحدار وقاع مستوٍ يبلغ عرضه حوالي عشرين قدمًا. وكان هذا القاع مليئًا بقطع كبيرة من اللحم، وكان معظمها في حالة تحلل تام. وكان الجو سامًا ومروّعًا. وبعد السقوط والتعثر فوق هذه الكتل المتحللة، اصطدمتُ فجأة بشيء صلب، ووجدتُ عمودًا مستقيمًا مثبتًا بقوة في وسط الحفرة. كان مرتفعًا لدرجة أنني لم أستطع الوصول إلى قمته بيدي، وبدا وكأنّه مغطى بالشحم.

وفجأة تذكرتُ أنني أحمل صندوقًا من الصفيح به شمع فيستاس في جيبي. وعندما أشعلتُ أحدها، تمكنتُ أخيرًا من تكوين فكرة عن هذا المكان الذي سقطتُ فيه. لم يكن هناك شك في طبيعته. لقد كان فخًا- من صنع يد الإنسان. كان العمود الموجود في المنتصف، بطول تسعة أقدام تقريبًا، حادًا عند الطرف العلوي، وكان أسود اللون

بسبب الدماء الفاسدة للمخلوقات التي تم طعنها عليه. كانتِ البقايا المتناثرة هنا وهناك عبارة عن أجزاء من الضحايا، والتي تم قطعها من أجل إخلاء الوتد لمن قد يرتكب خطأً آخر. تذكرتُ أنّ (تشالنجر) كان قد أعلن أنّ الإنسان لا يستطيع البقاء على الهضبة؛ لأنّه بأسلحته الضعيفة لا يستطيع أن يصمد في وجه الوحوش التي تجوبها. ولكن الآن أصبح من الواضح كيف يمكن القيام بذلك. في كهوفهم الضيقة، كان السكان الأصليون، أيًا كانوا، لديهم ملاجئ لا تستطيع الديناصورات الضخمة اختراقها، بينما كانوا قادرين بأدمغتهم المتطورة على نصب مثل هذه الفخاخ المغطاة بالأغصان عبر المسارات التي تحدد مسار الحيوانات والتي من شأنها أنتدمرها على الرغم من كل قوتها ونشاطها. كان الإنسان دائمًا السيد.

لم يكن تسلق الجدار المنحدر للحفرة بالأمر الصعب على رجل نشط، ولكنني ترددتُ طويلًا قبل أن أضع بنفسي في متناول المخلوق الرهيب الذي كاد أن يقضي عليّ. كيف عرفتُ أنّه لم يكن مختبئًا في أقرب مجموعة من الشجيرات، منتظرًا ظهوري مرة أخرى؟ ومع ذلك، شعرتُ بالتفاؤل عندما تذكرتُ محادثة بين (تشالنجر) و (سمرلي) حول عادات الديناصورات العظيمة. اتفق كلاهما على أنّ الوحوش كانتْ عديمة العقل عمليًا، وأنّه لا يوجد مجال للعقل في تجاويف جمجمتها الصغيرة، وأنّه إذا اختفتْ من بقية العالم فذلك بالتأكيد بسبب غبائها؛ ممّا جعل من المستحيل عليها التكيّف مع الظروف المتغيرة.

إنّ انتظاري الآن يعني أنّ المخلوق قد أدرك ما حدث لي، وهذا بدوره من شأنه أن يثبتَ وجود قوة تربط بين السبب والنتيجة. من المؤكد أنّه كان من المرجح أن يتخلى مخلوق بلا عقل، يتصرف فقط بغريزة افتراسية غامضة، عن المطاردة عندما أختفي، وبعد فترة من الدهشة، يتجول بعيدًا بحثًا عن فريسة أخرى؟ تسلقتُ إلى حافة الحفرة ونظرتُ من فوقها. كانتِ النجوم تتلاشى، والسماء أصبحتْ بيضاء، وهبّتْ رياح الصباح الباردة

على وجهي بشكل لطيف. لم أستطع رؤية أو سماع أي شيء من عدوي. تسلقتُ ببطء وجلستُ لبعض الوقت على الأرض، مستعدًا للعودة إلى ملاذي إذا ظهر أي خطر.

ثم، مطمئنًا بالهدوء المطلق والضوء المتزايد، جمعتُ شجاعتي في كلتا يدي وتسللتُ على طول المسار الذي سلكته. على مسافة ما أسفله التقطتُ بندقيتي، وبعد فترة وجيزة ضربتُ الجدول الذي كان دليلي. لذلك، بعد العديد من النظرات الخائفة إلى الوراء، اتجهتُ إلى ملاذي. وفجأة ظهر شيء يذكرني برفيقي الغائبين. في هواء الصباح الصافي الهادئ، سمعتُ من بعيد صوت طلقة بندقية حادة وقوية. توقفتُ واستمعتُ، لكن لم يكن هناك شيء آخر. لقد صدمتُ للحظة من فكرة أنّ خطرًا مفاجئًا قد حل بهم. لكن بعد ذلك، خطر ببالي تفسير أبسط وأكثر طبيعية. كان الوقت الآن وضح النهار. لا شك أنّهم لاحظوا غيابي. لقد تصوروا أنني تائه في الغابة، وأطلقوا هذه الطلقة لإرشادي إلى الملجأ. صحيح أننا اتخذنا قرارًا صارمًا بعدم إطلاق النار، لكن إذا بدا لهم أنني قد أكون في خطر فلن يترددوا. كان عليّ الآن أن أسرع قدر الإمكان، وبالتالي أطمئنهم.

كنتُ متعبًا ومنهكًا، لذا لم يكن تقدمي سريعًا كما كنتُ أتمنى؛ ولكن في النهاية وصلتُ إلى مناطق كنتُ أعرفها. كان هناك مستنقع من الزواحف المجنحة على يساري؛ وهناك أمامي كانتْ مرجًا من الإغوانودون. كنتُ الآن في آخر حزام من الأشجار الذي يفصلني عن حصن (تشالنجر). رفعتُ صوتي في صرخة مبتهجة لتهدئة مخاوفهم. لم يرد عليّ أحد. غرق قلبي في هذا الهدوء المشؤوم. أسرعتُ في الركض. ارتفعتِ الزريبة أمامي، تمامًا كما تركتها، لكن البوابة كانتْ مفتوحة. اندفعتُ إلى الداخل. في ضوء الصباح البارد، كان مشهدًا مخيفًا التقيتْ به عيناي. كانتْ أمتعتنا متناثرة في ارتباك جامح على الأرض؛ اختفى رفاقي، وبالقرب من رماد نارنا المشتعلة، كان العشب ملطخًا باللون القرمزي ببركة بشعة من الدماء.

لقد أصابتني هذه الصدمة المفاجئة بالذهول إلى الحد الذي جعلني أفقد عقلي لبعض الوقت. لديّ ذكريات غامضة، كما يتذكر المرء حلمًا سيئًا، عن اندفاعي عبر الغابات حول المخيم الخاوي، وأنا أنادي رفاقي بعنف. ولم يأتني أيّ رد من الظلال الصامتة. ودفعني التفكير الرهيب في أنني قد لا أراهم مرة أخرى، وأنني قد أجد نفسي مهجورًا وحدي في ذلك المكان المروّع، دون أي وسيلة ممكنة للنزول إلى العالم السفلي، وأنني قد أعيش وأموت في ذلك البلد الكابوسي، قادني إلى اليأس. كان من الممكن أن أمزق شعري وأضرب رأسي في يأسي. الآن فقط أدركتُ كيف تعلّمتُ الاعتماد على رفاقي، وعلى الثقة بالنفس الهادئة التي يتمتع بها (تشالنجر)، وعلى الهدوء الماهر والمرح الذي يتمتع به اللورد (جون روكستون). بدونهم كنتُ مثل طفل في الظلام، عاجزًا ولا حول له ولا قوة. لم أكن أعرف إلى أي طريق أتجه أو ماذا يجب أن أفعل أولًا.

وبعد فترة جلستُ خلالها في حيرة، قررتُ أن أحاول اكتشاف أي سوء حظ مفاجئ قد أصاب رفاقي. فقد كان المظهر الفوضوي للمخيم يشير إلى وقوع نوع من الهجوم، ولا شك أنّ طلقة البندقية كانتْ تشير إلى وقت وقوع الهجوم. أمّا إطلاق طلقة واحدة فقط فقد كان يشير إلى أنّ الهجوم قد اندلع في لحظة. وكانتِ البنادق لا تزال ملقاة على الأرض، وكانتْ إحداها- بندقية اللورد (جون)- تحمل خرطوشة فارغة في مؤخرتها. وكانتِ البطانيات التي كان يسترخي عليها (تشالنجر) و (سمرلي) بجوار النار تشير إلى أنهما كانا نائمين في ذلك الوقت. وكانتْ صناديق الذخيرة والطعام مبعثرة في كل مكان، إلى جانب كاميراتنا وحاملات الصفائح المؤسفة، ولكن لم يكن أي منها مفقودًا. ومن ناحية أخرى، اختفتْ كل المؤن المكشوفة- وتذكرتُ أنّ هناك كمية كبيرة منها-. لقد كانتِ الحيوانات هي التي اقتحمتِ المخيم، وليس السكان الأصليين، لأنّ السكان الأصليين بالتأكيد لم يكونوا ليتركوا وراءهم شيئًا.

ولكن إذا كان الأمر يتعلق بحيوانات، أو أي حيوان مروّع، فماذا حدث لرفاقي؟ لا شك أنّ وحشًا شرسًا كان ليدمرهم ويترك بقاياهم. صحيح أنّ هناك بركة دماء بشعة، تنبئ بالعنف. كان بوسع وحش مثل هذا الذي طاردني أثناء الليل أن يخطف ضحية بسهولة كما تخطف القطة الفأر. في هذه الحالة، كان الآخرون ليلاحقوني. ولكنّهم كانوا ليأخذوا بنادقهم معهم بالتأكيد. وكلما حاولت أن أفكر في الأمر بعقل مرتبك ومتعب، كلما قلّتْ قدرتي على إيجاد أي تفسير معقول. بحثتُ في الغابة، لكنني لم أجد أي آثار يمكن أن تساعدني على التوصل إلى استنتاج. ذات يوم، وبمحض الصدفة، وبعد ساعة من التجوال، وجدتُ المخيم مرة أخرى.

وفجأة، خطرتْ لي فكرة جلبتْ بعض الراحة إلى قلبي. لم أكن وحدي تمامًا في العالم. في أسفل الجرف، وفي متناول يدي، كان (زامبو) المخلص ينتظرني. ذهبتُ إلى حافة الهضبة ونظرتُ من فوق. كان جالسًا القرفصاء بين بطانياته بجوار ناره في معسكره الصغير. ولكن لدهشتي، كان هناك رجل ثانٍ يجلس أمامه. للحظة قفز قلبي من الفرح، عندما اعتقدتُ أنّ أحد رفاقي قد شق طريقه بأمان إلى أسفل. لكن نظرة ثانية بددتِ الأمل. أشرقتِ الشمس الحمراء على جلد الرجل. كان هنديًا. صرختُ بصوت عالٍ ولوحتُ بمنديلي. على الفور نظر (زامبو) إلى الأعلى ولوّح بيده واستدار ليصعد إلى القمة. في وقت قصير كان يقف بالقرب مني ويستمع بحزن عميق إلى القصة التي رويتها له.

«لقد أمسك بهم الشيطان بالتأكيد، يا سيد مالون»، قال. «لقد دخلتَ إلى بلاد الشيطان، يا سيدي، وأخذكم جميعًا إليه. خذ النصيحة، يا سيد مالون، وانزل بسرعة، وإلا فإنّه سيأخذك أيضًا».

«كيف يمكنني النزول، يا زامبو؟».

«لديك نباتات متسلقة من الأشجار، يا سيد مالون. ألقِ بها إلى هنا. وأنا أثبتُ نفسي على هذا الجذع، وهكذا لديك جسر».

«لقد فكرنا في ذلك. لا توجد نباتات متسلقة هنا يمكنها أن تحملنا».

«أرسل في طلب الحبال، يا سيد مالون».

«من يمكنني إرساله، وإلى أين؟».

«أرسل إلى القرى الهندية، يا سيدي. يوجد الكثير من الحبال المخفية في القرى الهندية. هناك هندي في الأسفل؛ أرسله».

«من هو؟».

«أحد هنودنا. ضربه آخرون وسلبوه أجره. عاد إلينا، أصبح الآن مستعدًا لأخذ الخطابات، وإحضار الحبال، وأي شيء».

يأخذ خطابًا! لمَ لا؟ ربما قد يحضر المساعدة؛ ولكن على أيّ حال، كان سيضمن ألّا تذهب حياتنا سدى، وأن تصل أخبار كل ما فزنا به من أجل العلم إلى أصدقائنا في الوطن. كان لدي خطابان مكتملان في انتظاري بالفعل. كنتُ سأقضي اليوم في كتابة خطاب ثالث، والذي سيذكر تجربتي بشكل كامل. كان بإمكان الهندي أن ينقل هذا إلى العالم. لذلك، أمرتُ (زامبو) بالعودة مرة أخرى في المساء، وقضيتُ يومي البائس والوحيد في تسجيل مغامراتي الخاصة في الليلة السابقة. كما قمتُ بإعداد مذكرة، لأعطيها لأي تاجر أبيض أو قائد سفينة بخارية يمكن للهندي العثور عليهم يناشدهم أن يتأكدوا من إرسال الحبال إلينا؛ لأنّ حياتنا تعتمد على ذلك. ألقيتُ هذه الوثائق إلى (زامبو) في المساء، وكذلك محفظتي، التي تحتوي على ثلاثة جنيهات إنجليزية. كان من المقرر أن

تُعطى للهندي، ووعده بضعف المبلغ إذا عاد بالحبال.

لذا، ستفهم الآن، يا عزيزي السيد (ماكاردل)، كيف يصل إليك هذا التواصل، وستعرف أيضًا الحقيقة، في حال لم تسمع مرة أخرى عن مراسلك سيئ الحظ. هذه الليلة، أنا متعب للغاية ومكتئب للغاية بحيث لا أستطيع وضع خططي. يجب أن أفكر غدًا في طريقة ما لأظل على اتصال بهذا المعسكر، مع البحث في جميع الأنحاء عن أي أثر لأصدقائي التعساء.

الفصل الثالث عشر

مشهد لن أنساه أبدًا

بينما كانتِ الشمس تغرب في تلك الليلة الكئيبة، رأيتُ صورة الهندي المنعزل على السهل الشاسع تحتي، أملنا الضعيف الوحيد في الخلاص، راقبته حتى اختفى في ضباب المساء الذي كان وردي اللون بسبب غروب الشمس، بين النهر البعيد وبيني.

كان الظلام دامسًا عندما عدتُ أخيرًا إلى معسكرنا المنكوب، وكان آخر ما رأيته أثناء ذهابي هو الوهج الأحمر لنار (زامبو)، نقطة الضوء الوحيدة في العالم الواسع السفلي، وكذلك كان حضوره المخلص في روحي المظلمة. ومع ذلك، شعرتُ بسعادة أكبر مما شعرتُ به منذ أن سقطتْ عليّ هذه الهوة الساحقة؛ لأنّه كان من الجيد أن نفكر في أنّ العالم سيعرف ما فعلناه، حتى لا تموت أسماؤنا في أسوأ الأحوال مع أجسادنا، بل ستنتقل إلى الأجيال القادمة مرتبطة بنتيجة أعمالنا.

لقد كان النوم في ذلك المعسكر المنكوب أمرًا مريعًا؛ ومع ذلك كان الأمر أكثر إزعاجًا أن نفعل ذلك في الغابة. يجب أن يكون هذا أو ذاك. لقد حذرتني الحكمة من ناحية بأن أظل على أهبة الاستعداد، ولكن الطبيعة المنهكة من ناحية أخرى أعلنتْ لي أنني لن أفعل أي شيء من هذا القبيل. صعدتُ إلى غصن شجرة الجنكة الكبيرة، ولكن لم يكن هناك مكان آمن على سطحها المستدير، وكنتُ سأسقط بالتأكيد وأكسر عنقي في اللحظة التي بدأتُ فيها في النعاس. لذلك، نزلتُ وفكرتُ فيما يجب أن أفعله. أخيرًا، أغلقتُ باب الزريبة، وأشعلتُ ثلاث نيران منفصلة في مثلث، وبعد أن تناولتُ عشاءً دسمًا، غفوتُ في نوم عميق، استيقظتُ منه بشكل غريب وممتع للغاية. في الصباح الباكر، تمامًا كما

كان الصباح، وُضعتْ يد على ذراعي، ونهضتُ، وكل أعصابي في وخزة ويدي تبحث عن بندقية، وأطلقتُ صرخة فرح بينما رأيتُ في الضوء الرمادي البارد اللورد (جون روكستون) راكعًا بجانبي.

لقد كان هو- ومع ذلك لم يكن هو. لقد تركته هادئًا في هيئته، مستقيمًا في شخصه، أنيقًا في ملابسه. الآن هو شاحب وعينيه متوحشتين، يلهث وهو يتنفس مثل شخص ركض بعيدًا وبسرعة. كان وجهه الشاحب مخدوشًا وملطخًا بالدماء، وكانتْ ملابسه معلقة في الخرق، وقبعته مفقودة. حدقتُ فيه بدهشة، لكنه لم يمنحني فرصة للأسئلة. كان يمسك بمؤنتنا طوال الوقت الذي تحدث فيه.

«أسرع، أيها الشاب الصغير! أسرع!» صاح. «كل لحظة مهمة. أحضر البنادق، كلتاهما. لديّ الاثنتان الأخريان. الآن، كل الخراطيش التي يمكنك جمعها. املأ جيوبك. الآن، بعض الطعام. نصف دزينة من العلب ستفي بالغرض. لا بأس! لا تنتظر حتى تتحدث أو تفكر. تحرك، وإلا سننتهي!».

ما زلتُ نصف مستيقظ، وغير قادر على تصور ما قد يعنيه كل هذا، وجدتُ نفسي أسرع وراءه بجنون عبر الغابة، وبندقية تحت كل ذراع وكومة من المخازن المتنوعة في يدي. كان يتسلل إلى الداخل والخارج عبر أشد الشجيرات كثافة حتى وصل إلى كتلة كثيفة من الشجر. اندفع إلى هناك، على الرغم من الأشواك، وألقى بنفسه في قلبها، وسحبني إلى جانبه.

«هناك!» قال وهو يلهث. «أعتقد أننا آمنون هنا. سيصلون إلى المخيم بكل تأكيد. ستكون فكرتهم الأولى. لكن هذا يجب أن يحيرهم».

«ما كل هذا؟» سألتُ، بعد أن التقطتُ أنفاسي. «أين الأساتذة؟ ومن الذي يلاحقنا؟».

«رجال القردة»، صاح. «يا إلهي، يا لها من وحوش! لا ترفع صوتك؛ لأنّ لديهم آذانًا طويلة وعيونًا حادة أيضًا، ولكن ليس لديهم قوة الشم، بقدر ما أستطيع الحكم، لذلك لا أعتقد أنّهم يستطيعون شمنا. أين كنت، أيها الشاب؟ لقد كنتَ بعيدًا تمامًا عن ذلك».

همستُ في بضع جمل بما فعلته.

«سيئ جدًا»، قال، عندما سمع عن الديناصور والحفرة. «ليس هذا المكان مناسبًا تمامًا للعلاج بالراحة. ماذا؟ لكن لم يكن لدي أي فكرة عن إمكانياته حتى استولى علينا هؤلاء الشياطين. لقد هاجمني أهل بابوا آكلي البشر ذات مرة، لكنهم أشبه بتشيسترفيلد مقارنة بهذا الحشد».

«كيف حدث ذلك؟» سألتُ.

«كان ذلك في الصباح الباكر. كان أصدقاؤنا المتعلمون يتحركون للتو. لم يبدأوا حتى في الجدال بعد. فجأة أمطرتِ السماء قرودًا. نزلوا مثل التفاح من شجرة. لقد كانوا يتجمعون في الظلام، على ما أظن، حتى أصبحتْ تلك الشجرة العظيمة فوق رؤوسنا مثقلة بهم. أطلقتُ النار على أحدهم في بطنه، ولكن قبل أن نعرف أين نحن، جعلونا نفترق على ظهورنا. أسميهم قرودًا، لكنهم كانوا يحملون العصي والحجارة في أيديهم ويثرثرون مع بعضهم البعض، وانتهى بهم الأمر بربط أيدينا بالزواحف، لذا فهم متقدمون على أي وحش رأيته في تجوالي. رجال القرود- هذا ما هم عليه- روابط مفقودة، وأتمنى لو ظلوا مفقودين. لقد حملوا رفيقهم الجريح- كان ينزف مثل الخنزير- ثم جلسوا حولنا، وإذا رأيت جريمة قتل مثلجة، فقد كانتْ في وجوههم .كانوا رجالًا ضخامًا، بحجم رجل وأقوى بكثير. كانتْ لديهم عيون رمادية زجاجية غريبة، تحت خصلات حمراء، وكانوا جالسين فقط ويبتسمون. لم يكن تشالنجر جبانًا، لكنه كان خائفًا أيضًا. تمكن من

النضال على قدميه، وصاح فيهم لينتهي الأمر. أعتقد أنّه فقد عقله قليلًا بسبب هذا الأمر المفاجئ؛ لأنّه غضب ولعنهم مثل مجنون. لو كانوا صفًا من الصحفيين المفضلين لديه لما كان ليوجه إليهم شتائم أسوأ من ذلك».

«حسنًا، ماذا فعلوا؟» كنتُ مفتونًا بالقصة الغريبة التي كان رفيقي يهمس بها في أذني، بينما كانتْ عيناه الثاقبتان طوال الوقت تصوبان في كل اتجاه ويده تمسك ببندقيته المشدودة.

«اعتقدتُ أنّها نهايتنا، ولكن بدلًا من ذلك، بدأتُ بهم في خط جديد. كانوا جميعًا يثرثرون ويتحدثون معًا. ثم وقف أحدهم بجانب تشالنجر. ستبتسم، أيها الشاب، لكن صدقني، ربما كانوا أقارب. لم أكن لأصدق ذلك لو لم أره بأم عيني. كان هذا الرجل القرد العجوز- كان زعيمهم- نوعًا من تشالنجر الأحمر، مع كل نقاط جمال صديقنا، فقط أكثر قليلًا. كان قصير الجسم، وأكتاف كبيرة، وصدر مستدير، بلا رقبة، ولحية حمراء كبيرة، وحاجبين منتصبين، و «ماذا تريد، اللعنة عليك!» انظر حول العينين، والكتالوج بأكمله. عندما وقف رجل القرد بجانب تشالنجر ووضع مخلبه على كتفه، كان الأمر مكتملًا. أصيب سمرلي بالهستيريا بعض الشيء، وضحك حتى بكى. ضحك رجال القردة أيضًا- أو على الأقل أطلقوا ضحكة شيطانية- وبدأوا في العمل لسحبنا عبر الغابة. لم يلمسوا البنادق والأشياء- اعتقدوا أنّها خطيرة، كما أتوقع- لكنّهم حملوا كل طعامنا السائب. لقد تعرضتُ أنا وسمرلي لبعض المعاملة القاسية في الطريق- ها هو جلدي وملابسي لإثبات ذلك- فقد أخذونا في خط مستقيم عبر العليق، وبشرتهم مثل الجلد. لكن تشالنجر كان على ما يرام. حمله أربعة منهم على أكتافهم، وسار مثل إمبراطور روماني. ما هذا؟».

كان صوت نقر غريب في المسافة لا يختلف عن صوت الصنجات.

«ها هم ينطلقون!» قال رفيقي، وهو يدس الخراطيش في البندقية الثانية ذات

الماسورتين، «سريعًا». «قم بتلقينها كلها، أيها الشاب الصغير؛ لأننا لن نؤخذ أحياء، ألا تعتقد ذلك! هذا هو الصف الذي ينشؤونه عندما يكونون متحمسين. بحق جورج! سيكون لديهم ما يثيرهم إذا وضعونا في موقف محرج. لن يكون هناك (آخر معركة للرماديين) في ذلك. (ببنادقهم ممسوكة بأيديهم المتصلبة، وسط حلقة من الموتى والمحتضرين)، كما يغني أحد الأغبياء. هل تسمعهم الآن؟».

«بعيدون جدًا».

– لن يفيدنا هذا المكان الصغير، ولكنني أتوقع أن فرق البحث الخاصة بهم منتشرة في كل مكان. حسنًا، كنتُ أروي لك قصتي المأساوية. لقد أوصلونا قريبًا إلى هذه المدينة الخاصة بهم– حوالي ألف كوخ من الأغصان والأوراق في بستان كبير من الأشجار بالقرب من حافة الجرف. إنه يبعد ثلاثة أو أربعة أميال من هنا. لقد تحسستني الحيوانات القذرة في كل مكان، وأشعر وكأنني لن أكون نظيفًا مرة أخرى. لقد قيدونا– كان الرجل الذي تعامل معي قادرًا على ربطي مثل قبطان– وهناك استلقينا وأصابع أقدامنا مرفوعة، تحت شجرة، بينما وقف وحش ضخم يحرسنا بهراوة في يده. عندما أقول (نحن) أعني سمرلي وأنا. كان العجوز تشالنجر على شجرة، يأكل أشجار الصنوبر ويقضي وقتًا ممتعًا. لا بُد أن أقول أنّه تمكن من إحضار بعض الفاكهة إلينا، وفك قيودنا بيديه. إذا رأيته جالسًا على تلك الشجرة يختبئ مع توأمه، أخي– ويغني على أنغامه المتدحرجة (رنّوا، أجراس برية)، لأنّ الموسيقى من أي نوع بدتْ وكأنّها تجعلهم في مزاج جيد، كنتَ ستبتسم؛ لكننا لم نكن في مزاج يسمح لنا بالضحك، كما يمكنك أن تتخيل. كانوا يميلون، ضمن حدود، إلى السماح له بفعل ما يحلو له، لكنهم رسموا الخط الفاصل بيننا بشكل حاد. لقد كان من دواعي العزاء الكبير لنا جميعًا أن نعرف أنك كنت تهرب وأنّ الأرشيفات في حوزتك.

حسنًا، الآن، أيها الشاب، سأخبرك بما قد يفاجئك. تقول إنّك رأيتَ علامات على وجود رجال، ونيران، وفخاخ، وما شابه ذلك. حسنًا، لقد رأينا السكان الأصليين أنفسهم. لقد كانوا شياطين مساكين، صغارًا متجهمين، وكان لديهم ما يكفي لجعلهم كذلك. يبدو أنّ البشر يسيطرون على جانب واحد من هذه الهضبة- هناك، حيث رأيتَ الكهوف- ويسيطر رجال القردة على هذا الجانب، وهناك حرب دامية بينهم طوال الوقت. هذا هو الموقف، بقدر ما استطعتُ متابعته. حسنًا، أمس استولى رجال القردة على اثني عشر من البشر وأحضروهم كسجناء. لم تسمع مثل هذه الثرثرة والصراخ في حياتك. كان الرجال صغارًا حمر، وقد تعرضوا للعض والخدش حتى أنّهم بالكاد يستطيعون المشي. قتل رجال القردة اثنين منهم هناك وفي الحال- وسحبوا ذراع أحدهم- كان ذلك وحشيًا تمامًا. إنّهم رفاق، ولم يصدروا أي صوت تقريبًا. لكن هذا جعلنا نشعر بالغثيان تمامًا. أُغشيَ على سمرلي، وحتى تشالنجر تناول ما بوسعه. أعتقد أنّهم تعافوا، أليس كذلك؟

لقد استمعنا باهتمام شديد، ولكن لا شيء سوى نداء الطيور كان يكسر الهدوء العميق في الغابة. واصل اللورد (روكستون) سرد قصته.

- أعتقد أنّك قد نجوتَ من هذه المحنة، يا فتى. لقد هربتَ من الهنود الذين قضوا عليك، وإلا لكانوا قد عادوا إلى المعسكر من أجلك. بالطبع، كما قلت، كانوا يراقبوننا منذ البداية من تلك الشجرة، وكانوا يعرفون جيدًا أننا لم نعد بحاجة إلى شخص واحد. ومع ذلك، لم يكن بوسعهم التفكير إلا في هذه الغنيمة الجديدة؛ لذا فقد كنتُ أنا، وليس مجموعة من القردة، من هبط عليك في الصباح. حسنًا، لقد مررنا بحادثة مروّعة بعد ذلك. يا إلهي! يا له من كابوس! هل تتذكر الشعيرات الضخمة من العصي الحادة أسفل حيث وجدنا هيكل عظمي الأمريكي؟ حسنًا، هذا أسفل مدينة القردة مباشرةً، وهذا هو مكان

قفز سجنائهم. أتوقع أنّ هناك أكوامًا من الهياكل العظمية هناك، إذا بحثنا عنها. لديهم نوع من ساحة العرض الواضحة في الأعلى، ويقيمون احتفالًا مناسبًا حول ذلك. كان على الشياطين المساكين أن يقفزوا، وكانتِ اللعبة هي أن نرى ما إذا كانوا سيتحطمون إلى أشلاء أم سيطعنون بالعصي. أخذونا لنرى ذلك، واصطفتِ القبيلة بأكملها على الحافة. قفز أربعة من الهنود، واخترقتهم العصي كما تخترق إبرة الحياكة قطعة من الزبدة. لا عجب أننا وجدنا هيكل ذلك اليانكي المسكين مع نمو العصي بين أضلاعه. كان الأمر مروّعًا- لكنه كان مثيرًا للاهتمام أيضًا. لقد كنّا جميعًا مفتونين برؤيتهم وهم يغوصون، حتى عندما كنا نعتقد أن دورنا سيكون التالي على منصة القفز.

حسنًا، لم يكن الأمر كذلك. لقد أبقوا ستة من الهنود مستيقظين طوال اليوم- هكذا فهمت الأمر- ولكنني أتخيل أننا سنكون نجوم العرض. قد ينجو تشالنجر، ولكن سمرلي وأنا كنا ضمن القائمة. لغتهم أكثر من نصف الإشارات، ولم يكن من الصعب متابعتهم. لذا فقد اعتقدتُ أنّه حان الوقت لننسحب. كنتُ أخطط للأمر قليلًا، وكان لدي شيء أو اثنان واضحان في ذهني. كان الأمر كله عليّ؛ لأنّ سمرلي كان عديم الفائدة وتشالنجر لم يكن أفضل كثيرًا. في المرة الوحيدة التي اجتمعا فيها، تبادلا الشتائم لأنهما لم يتفقا على التصنيف العلمي لهذه الشياطين ذات الشعر الأحمر التي استحوذتْ علينا. قال أحدهما إنّه دريوبيثيكوس من جاوة، وقال الآخر إنّه بيثيكانثروبوس. جنون، كما أسميه- مجنونان، كلاهما. ولكن، كما قلتُ، كنتُ قد فكرتُ في نقطة أو نقطتين كانتا مفيدتين. إحداهما أنّ هذه الوحوش لا تستطيع الركض. لديهم أرجل قصيرة ومقوسة، كما ترى، وأجسام ثقيلة. حتى تشالنجر كان بإمكانه التنازل عن بضعة ياردات من مائة ياردة لأفضلهم، وأنت أو أنا سنكوّن هروب مثالي. نقطة أخرى هي أنّهم لم يعرفوا شيئًا عن البنادق. لا أعتقد أنهم فهموا أبدًا كيف أصيب الرجل الذي أطلقتُ عليه النار. إذا

تمكنا من الوصول إلى بنادقنا، فلا يوجد ما يمنعنا من فعل ذلك.

لذا، انطلقتُ في وقت مبكر من هذا الصباح، وركلت حارسي في بطنه مما أدى إلى إبعاده، وركضتُ إلى المخيم. هناك أمسكتك والبنادق، وها نحن ذا.

«لكن الأساتذة!» صرختُ في ذهول.

«حسنًا، يجب أن نعود ونحضرهم. لم أستطع إحضارهم معي. كان تشالنجر على الشجرة، ولم يكن سمرلي مناسب لهذا الجهد. كانتِ الفرصة الوحيدة هي الحصول على البنادق ومحاولة إنقاذهم. بالطبع قد يفسدونها على الفور انتقامًا. لا أعتقد أنهم سيمسون تشالنجر، لكنني لن أجيب نيابة عن سمرلي. لكنهم كانوا سيقتلونه على أي حال. أنا متأكد من ذلك. لذا لم أجعل الأمور أسوأ بالفرار. لكننا ملزمون بالشرف بالعودة وإخراجهم أو إكمال الأمر معهم. لذا يمكنك أن تعوض روحك، أيها الشاب الصغير؛ لأن الأمر سيكون على هذا النحو أو ذاك قبل المساء».

لقد حاولتُ هنا تقليد حديث اللورد (روكستون) المتوتر، وجمله القصيرة القوية، ونبرته المرحة المتهورة التي كانتْ تسود كل ذلك. لكنه كان قائدًا بالفطرة. ومع اشتداد الخطر، كانتْ طريقته المرحة تزداد، وتصبح كلماته أكثر حيوية، وتتألق عيناه الباردتان بالحياة المتحمسة، وينتصب شاربه الذي يشبه شارب دون كيخوت بإثارة بهيجة. إنّ حبه للخطر، وتقديره الشديد لدراما المغامرة- وهو ما يزداد شدة كلما كان محكمًا- ورأيه الثابت بأنّ كل خطر في الحياة هو شكل من أشكال الرياضة، لعبة شرسة بينك وبين القدر، مع الموت كخسارة، كل هذا جعله رفيقًا رائعًا في مثل هذه الساعات. ولولا مخاوفنا بشأن مصير رفاقنا، لكان من دواعي سروري أن ألقي بنفسي مع مثل هذا الرجل في مثل هذه العلاقة. كنّا ننهض من مخبئنا بين الأغصان عندما شعرتُ فجأة بقبضته على ذراعي.

«بحق جورج!» همس، «ها هم قادمون!».

من حيث كنّا نستلقي، كان بوسعنا أن ننظر إلى ممر بني، مقوّس بالخضرة، مكوّن من جذوع الأشجار والفروع. وعلى طول هذا الممر كانتْ تمر مجموعة من رجال القردة. كانوا يسيرون في صف واحد، بأرجل منحنية وظهور مدورة، وأيديهم تلامس الأرض أحيانًا، ورؤوسهم تتجه إلى اليسار واليمين أثناء هرولتهم. كانتْ مشيتهم القرفصاء تقلل من طولهم، لكنني أعتقد أنّهم كانوا يبلغون خمسة أقدام أو نحو ذلك، بأذرع طويلة وصدور ضخمة. كان العديد منهم يحملون العصي، ومن بعيد بدوا وكأنّهم صف من البشر المشعرين والمشوهين. للحظة لمحتهم بوضوح. ثم ضاعوا بين الشجيرات.

«ليس هذه المرة»، قال اللورد (جون)؛ الذي أمسك ببندقيته. «نّ أفضل فرصة لنا هي أن نسترخي حتى يتوقفوا عن البحث. ثم سنرى ما إذا كان بوسعنا العودة إلى مدينتهم وضربهم حيث يؤلمهم أكثر. امنحهم ساعة وسنسير».

ملأنا الوقت بفتح إحدى علب الطعام والتأكد من تناولنا وجبة الإفطار. لم يتناول اللورد (روكستون) سوى بعض الفاكهة منذ الصباح السابق وأكل مثل رجل جائع. ثم أخيرًا، بعد أن امتلأتْ جيوبنا بالخراطيش وبندقية في كل يد، بدأنا مهمة الإنقاذ. قبل أن نغادر، حددنا بعناية مكان اختبائنا الصغير بين الأشجار واتجاهه إلى حصن (تشالنجر)، حتى نتمكن من العثور عليه مرة أخرى إذا احتجنا إليه. تسللنا عبر الشجيرات في صمت حتى وصلنا إلى حافة الجرف، بالقرب من المخيم القديم. توقفنا هناك، وأعطاني اللورد (جون) فكرة عن خططه.

«ما دمنا بين الأشجار الكثيفة فإنّ هؤلاء الخنازير هم أسيادنا»، قال. «إنّهم يروننا ولا نستطيع أن نراهم. ولكن في العراء الأمر مختلف. هناك يمكننا أن نتحرك بسرعة أكبر

منهم. لذا يجب أن نلتزم العراء قدر استطاعتنا. حافة الهضبة بها عدد أقل من الأشجار الكبيرة مقارنة بالمناطق الداخلية. لذا فإنّ هذا هو خط تقدمنا. تحرك ببطء، وابق عينيك مفتوحتين وبندقيتك جاهزة. والأهم من ذلك كله، لا تدعهم يأسرونك بينما هناك خرطوشة متبقية- هذه كلمتي الأخيرة لك، أيها الشاب».

عندما وصلنا إلى حافة الجرف، نظرتُ من فوق ورأيتُ (زامبو) الأسود الطيب يجلس يدخن على صخرة أسفلنا. كنتُ لأدفع الكثير لو حييته وأخبرته كيف تم وضعنا، لكن الأمر كان خطيرًا للغاية، خشية أن يسمعنا أحد. بدتِ الغابة مليئة برجال القردة؛ سمعنا مرارًا وتكرارًا ثرثرتهم الفضولية. في مثل هذه الأوقات، انغمسنا في أقرب مجموعة من الشجيرات واستلقينا ساكنين حتى اختفى الصوت. لقد كان تقدمنا بطيئًا للغاية، ولا بُد أنّ ساعتين على الأقل مرتا قبل أن أرى من خلال حركات اللورد (جون) الحذرة أنّنا لا بُد وأن نكون قريبين من وجهتنا. أشار إليّ بالاستلقاء ساكنًا، فزحف هو أيضًا إلى الأمام. وفي غضون دقيقة عاد مرة أخرى، ووجهه يرتجف من الحماس.

قال: «تعال! تعال بسرعة! آمل من الرب ألّا نكون قد تأخرنا كثيرًا للتو».

وجدتُ نفسي أرتجف من الإثارة العصبية وأنا أتقدم إلى الأمام وأستلقي بجانبه، وأنظر من خلال الشجيرات إلى فسحة ممتدة أمامنا.

لقد كان مشهدًا لن أنساه أبدًا حتى يوم مماتي- غريب جدًا، ومستحيل جدًا، لدرجة أنني لا أعرف كيف أجعلك تدركه، أو كيف سأقنع نفسي به بعد بضع سنوات إذا عشتُ لأجلس مرة أخرى على أريكة في نادي سافاج وأنظر إلى صلابة الجسر الباهتة. أعلم أنّه سيبدو حينها وكأنّه كابوس جامح، أو هذيان حمى. ولكنني سأضعها الآن، وهي لا تزال حاضرة في ذاكرتي، وسيعرف شخص واحد على الأقل؛ الرجل الذي كان يرقد في

الأعشاب الرطبة بجانبي، ما إذا كنتُ قد كذبتُ.

كانتْ هناك مساحة واسعة مفتوحة أمامنا- بضع مئات من الأمتار عبرها- كلها عشب أخضر وسرخس منخفض ينمو حتى حافة الجرف. وحول هذه المساحة المفتوحة كان هناك نصف دائرة من الأشجار ذات أكواخ غريبة مبنية من أوراق الشجر مكدسة فوق بعضها البعض بين الأغصان. كان من الأفضل أن نتصور مستعمرة نحل، حيث كل عش عبارة عن منزل صغير. كانتْ فتحات هذه الأكواخ وأغصان الأشجار مكتظة بحشد كثيف من القردة؛ الذين اعتقدتُ من حجمهم أنّهم إناث وأطفال القبيلة. لقد شكلوا خلفية الصورة، وكانوا جميعًا ينظرون باهتمام شديد إلى نفس المشهد الذي أذهلنا وأربكنا.

في العراء، وبالقرب من حافة الجرف، تجمع حشد من بضع مئات من هذه المخلوقات المشعرة ذات الشعر الأحمر، وكان العديد منها ضخم الحجم، وكلها مروّعة المنظر. كان هناك نوع من الانضباط بينهم؛ حيث لم يحاول أي منهم كسر الخط الذي تم تشكيله. في المقدمة كانتْ تقف مجموعة صغيرة من الهنود- رفاق صغار، ذوو أطراف نظيفة، حمر، كانتْ جلودهم تتوهج مثل البرونز المصقول في ضوء الشمس القوي. كان يقف بجانبهم رجل أبيض طويل ونحيف، رأسه منحني، وذراعاه مطويتان، وكل موقفه يعبر عن رعبه وكآبته. لم يكن هناك خطأ في الشكل الزاوي للبروفيسور (سمرلي).

أمام وحول هذه المجموعة المحبطة من السجناء كان هناك العديد من رجال القردة؛ الذين راقبوهم عن كثب وجعلوا أي هروب مستحيلًا. ثم، بعيدًا عن جميع الآخرين وبالقرب من حافة الجرف، كان هناك شخصان، غريبان للغاية، وفي ظل ظروف أخرى مضحكة للغاية، لدرجة أنّهما استحوذا على انتباهي. كان أحدهما رفيقنا، البروفيسور

(تشالنجر). كان ما تبقى من معطفه لا يزال معلقًا على كتفيه، لكن قميصه كان ممزقًا بالكامل، ولحيته الكبيرة اندمجتْ في التشابك الأسود الذي غطى صدره الضخم. لقد فقد قبعته، وشعره الذي نما طويلًا أثناء تجوالنا كان يطير في فوضى عارمة. بدا الأمر وكأنّ يومًا واحدًا قد غيره من أعلى نتاج الحضارة الحديثة إلى أكثر المتوحشين يأسًا في أمريكا الجنوبية. بجانبه وقف سيده، ملك رجال القردة. كان في كل شيء، كما قال اللورد (جون)، صورة أستاذنا، باستثناء لونه الأحمر بدلًا من الأسود. نفس الشكل القصير العريض، نفس الكتفين الثقيلين، نفس الذراعين المتدليتين إلى الأمام، نفس اللحية الخشنة التي اندمجتْ في الصدر المشعر. فقط فوق الحاجبين؛ حيث كانتِ الجبهة المنحدرة والجمجمة المنخفضة المنحنية لرجل القرد في تناقض حاد مع الحاجب العريض والجمجمة الرائعة للأوروبي، يمكن للمرء أن يرى أي فرق واضح. في كل نقطة أخرى كان الملك محاكاة ساخرة سخيفة للبروفسور.

كل هذا؛ الذي استغرق مني وقتًا طويلاً لوصفه، انطبع في ذهني في غضون ثوانٍ قليلة. ثم كان علينا أن نفكر في أشياء مختلفة تمامًا؛ حيث كانتْ هناك دراما نشطة جارية. استولى اثنان من رجال القردة على أحد الهنود من المجموعة وسحبوه إلى الأمام إلى حافة الجرف. رفع الملك يده كإشارة. أمسكوا الرجل من ساقه وذراعه، وأرجحوه ثلاث مرات ذهابًا وإيابًا بعنف هائل. ثم، بضربة مخيفة، أطلقوا النار على البائس المسكين من فوق الهاوية. لقد ألقوا به بقوة لدرجة أنّه انحنى عاليًا في الهواء قبل أن يبدأ في السقوط. عندما اختفى عن الأنظار، اندفع الجميع، باستثناء الحراس، إلى الأمام إلى حافة الهاوية، وكان هناك توقف طويل من الصمت المطلق، كسره صرخة جنونية من البهجة. قفزوا حول بعضهم البعض، وألقوا بأذرعهم الطويلة المشعرة في الهواء وعواء من البهجة. ثم تراجعوا عن الحافة، وشكلوا صفوفهم مرة أخرى، وانتظروا الضحية التالية.

هذه المرة كان (سمرلي). أمسكه اثنان من حراسه من معصميه وسحباه بوحشية إلى الأمام. كانتْ هيئته النحيلة وأطرافه الطويلة تكافح وترفرف مثل دجاجة يتم جرها من حظيرة. استدار (تشالنجر) إلى الملك ولوّح بيديه بجنون أمامه. كان يتوسل ويتوسل ويتوسل من أجل حياة رفيقه. دفعه رجل القرد جانبًا بعنف وهز رأسه. كانتْ هذه آخر حركة واعية يقوم بها على الأرض. انكسرتْ بندقية اللورد (جون)، وسقط الملك على الأرض، مثل شيء أحمر متشابك ممتد.

«أطلق النار في وسطهم! أطلق النار! يا بني، أطلق النار!» صاح رفيقي.

هناك أعماق حمراء غريبة في روح أكثر الرجال تفاهة. أنا رقيق القلب بطبيعتي، ووجدتُ عيني دامعتين مرات عديدة على صراخ أرنب جريح. ومع ذلك، كان شغف الدم يسيطر عليّ الآن. وجدتُ نفسي على قدمي أفرغ مخزنًا واحدًا، ثم الآخر، وأفتح المؤخرة لإعادة التحميل، وأعيد تشغيلها مرة أخرى، بينما أهتف وأصرخ بشراسة خالصة وسعادة بالقتل أثناء قيامي بذلك. وببنادقنا الأربعة، أحدثنا نحن الاثنان دمارًا مروّعًا. كان الحارسان اللذان كانا يحتجزان (سمرلي) على الأرض، وكان يترنح مثل رجل مخمور في دهشته، غير قادر على إدراك أنّه رجل حر. ركض الحشد الكثيف من رجال القردة في حيرة، متعجبين من أين أتتْ عاصفة الموت هذه أو ما قد تعنيه. لوحوا، وأشاروا بأيديهم، وصرخوا، وتعثروا فوق أولئك الذين سقطوا. ثم، بدافع مفاجئ، اندفعوا جميعًا في حشد صاخب إلى الأشجار بحثًا عن مأوى، تاركين الأرض خلفهم مرقطة برفاقهم المنكوبين. تُرك السجناء في تلك اللحظة واقفين بمفردهم في الوسط.

أدرك عقل (تشالنجر) السريع الموقف. أمسك (سمرلي) المذهول من ذراعه، وركضا نحونا. وثب اثنان من حراسهما خلفهما وسقطا برصاصتين من اللورد (جون). ركضنا

إلى الأمام في العراء لمقابلة أصدقائنا، وضغطنا ببندقية محملة في أيدي كل منهما. لكن (سمرلي) كان قد استنفد قواه. بالكاد تمكن من الترنح. كان رجال القردة قد استعادوا عافيتهم بالفعل. كانوا قادمين عبر الغابة ويهددون بقطعنا. ركضتُ أنا و (تشالنجر) بـ (سمرلي) من مرفقيه، بينما غطى اللورد (جون) انسحابنا، وأطلقوا النار مرارًا وتكرارًا بينما كانت الرؤوس المتوحشة تزأر نحونا من بين الشجيرات. لمسافة ميل أو أكثر كان الوحوش الثرثارة يلاحقوننا. ثم تباطأتِ المطاردة؛ لأنّهم تعلموا قوتنا ولم يعودوا قادرين على مواجهة تلك البندقية التي لا تخطئ. عندما وصلنا أخيرًا إلى المخيم، نظرنا إلى الوراء ووجدنا أنفسنا وحدنا.

لقد بدا الأمر لنا هكذا، ولكننا كنّا مخطئين. فما إن أغلقنا باب الشجيرات الشوكية في كوخنا، وتشابكت أيدينا، وألقينا بأنفسنا على الأرض بجوار نبعنا، حتى سمعنا وقع أقدام ثم صرخة حزينة من خارج مدخلنا. اندفع اللورد (روكستون) إلى الأمام، وبندقيته في يده، وفتحها. وهناك، على وجوههم، كانتْ أجساد الهنود الأربعة الناجين الصغيرة الحمراء ترتعد من الخوف منّا، ومع ذلك تتوسل حمايتنا. وبحركة معبرة من يديه، أشار أحدهم إلى الغابات المحيطة بهم، مشيرًا إلى أنّها مليئة بالخطر. ثم اندفع إلى الأمام، وألقى بذراعيه حول ساقي اللورد (جون)، وأراح وجهه عليها.

صاح زميلنا، وهو يشد شاربه في حيرة كبيرة: «بحق جورج!»، «أقول- ماذا نفعل بهؤلاء الناس؟ انهض أيها الشاب الصغير، وارفع وجهك عن حذائي».

كان (سمرلي) جالسًا يدس بعض التبغ في غليونه القديم.

«يتعين علينا أن نراهم سالمين»، قال. «لقد أنقذتنا جميعًا من براثن الموت. يا إلهي! لقد كان عملًا جيدًا!».

صاح (تشالنجر): «رائع!». «رائع! ليس نحن فقط كأفراد، بل والعلم الأوروبي بشكل جماعي، مدينون لك بامتنان عميق لما فعلته. لا أتردد في القول إن اختفاء البروفسور سمرلي وأنا كان ليترك فجوة كبيرة في تاريخ علم الحيوان الحديث. لقد كان صديقنا الشاب هنا وأنت على درجة عالية من التميز».

أشرق وجهه بابتسامة أبوية قديمة، لكن العلم الأوروبي كان ليشعر بالدهشة إلى حد ما لو كان قد رأى طفله المختار، أمل المستقبل، برأسه المتشابك غير المهندم، وصدره العاري، وملابسه الممزقة. كان يحمل إحدى علب اللحوم بين ركبتيه، وجلس بقطعة كبيرة من لحم الضأن الأسترالي البارد بين أصابعه. نظر إليه الهندي، ثم ارتجف على الأرض بصرخة صغيرة وتمسك بساق اللورد (جون).

«لا تخف أيها الفتى الجميل»، قال اللورد (جون) وهو يربت على الرأس المتشابك أمامه. «لا يمكنه أن يتحمل مظهرك يا تشالنجر؛ وبحق جورج! لا أتعجب. حسنًا، أيها الفتى الصغير، إنّه مجرد إنسان، تمامًا مثل بقيتنا».

«حقًا، سيدي!» صاح البروفسور.

«حسنًا، من حسن حظك يا تشالنجر، أنّك خارج عن المألوف بعض الشيء. لو لم تكن مثل الملك...».

«صدقني يا لورد جون، أنت تمنح نفسك مساحة كبيرة من الحرية».

«حسنًا، إنّها الحقيقة».

«أرجوك يا سيدي أن تغير الموضوع. إنّ ملاحظاتك غير ذات صلة وغير مفهومة. والسؤال المطروح أمامنا هو ماذا نفعل بهؤلاء الهنود؟ والأمر الواضح هو مرافقتهم إلى

ديارهم، إذا كنّا نعرف مكان ديارهم».

«لا توجد صعوبة في ذلك»، قلتُ. «إنّهم يعيشون في الكهوف على الجانب الآخر من البحيرة المركزية».

«صديقنا الشاب هنا يعرف مكان إقامتهم. أستنتج أنّه على مسافة ما».

«عشرون ميلًا تقريبًا»، قلتُ.

تأوه (سمرلي): «أنا شخصيًا لن أصل إلى هناك أبدًا. بالتأكيد أسمع تلك الوحوش ما زالتْ تعوي على طريقنا».

بينما كان يتحدث، سمعنا من بعيد صرخة رجال القردة من أعماق الغابة المظلمة. أطلق الهنود مرة أخرى عويلًا ضعيفًا من الخوف.

«يجب أن نتحرك، ونتحرك بسرعة!» قال اللورد (جون). «ساعد سمرلي، أيّها الشاب. سيحمل هؤلاء الهنود المؤن. الآن، تعال قبل أن يتمكنوا من رؤيتنا».

في أقل من نصف ساعة وصلنا إلى ملجأنا بين الأدغال واختبأنا. سمعنا طوال اليوم نداء رجال القردة المتحمسين في اتجاه معسكرنا القديم، لكن لم يأت أحد منهم في طريقنا، وكان الهاربون المتعبون، الحمر والبيض، نائمين نومًا طويلًا وعميقًا. كنتُ غافيًا في المساء عندما نزع أحدهم كمي، ووجدتُ (تشالنجر) راكعًا بجانبي.

«أنت تحتفظ بمذكرات لهذه الأحداث، وتتوقع أن تنشرها في النهاية، يا سيد مالون»، قال ذلك بجدية.

«أنا هنا فقط كمراسل صحفي»، أجبتُ.

«بالضبط. ربما سمعتَ بعض التعليقات السخيفة للورد جون روكستون والتي بدتْ وكأنّها تشير إلى وجود بعض التشابه».

«نعم، سمعتها».

«لا أحتاج إلى القول بأنّ أي دعاية لمثل هذه الفكرة- أي خفة ظل في سردك لما حدث- سيكون مسيئًا للغاية بالنسبة لي».

«سأظل في حدود الحقيقة».

«ملاحظات اللورد جون غالبًا ما تكون خيالية للغاية، وهو قادر على عزو أكثر الأسباب سخافة إلى الاحترام الذي تُظهره دائمًا أكثر الأجناس تخلفًا للكرامة والشخصية. هل تفهم مقصدي؟».

«تمامًا».

«أترك الأمر لتقديرك». ثم بعد فترة توقُف طويلة أضاف: «كان ملك رجال القردة مخلوقًا متميزًا حقًا- شخصية وسيمًا وذكيًا بشكل لافت للنظر. ألم يخطر ببالك هذا؟».

قلتُ: «مخلوق رائع للغاية».

واسترخى الأستاذ في نومه مرة أخرى بعد أن هدأ ذهنه.

الفصل الرابع عشر

تلك كانتِ الفتوحات الحقيقية

كنّا نتصوّر أنّ مطاردينا، رجال القردة، لا يعرفون شيئًا عن مكان اختبائنا في الغابة، لكننا سرعان ما اكتشفنا خطأنا. لم يكن هناك صوت في الغابة- ولم تتحرك ورقة واحدة على الأشجار، وكان كل شيء هادئًا من حولنا- لكن كان يجب أن نحذر من تجربتنا الأولى من مدى دهاء وصبر هذه المخلوقات وانتظارها حتى تأتي فرصتها. أيًا كان مصيري في الحياة، فأنا متأكد تمامًا من أنني لن أكون أقرب إلى الموت أبدًا مما كنتُ عليه في ذلك الصباح. لكنني سأخبركم بالأمر بالترتيب المناسب.

استيقظنا جميعًا مرهقين بعد المشاعر الرهيبة والطعام القليل في الأمس. كان (سمرلي) لا يزال ضعيفًا لدرجة أنّه كان من الصعب عليه الوقوف؛ لكن الرجل العجوز كان مليئًا بنوع من الشجاعة القاسية التي لن تعترف بالهزيمة أبدًا. انعقد مجلس، واتفقنا على أن ننتظر بهدوء لمدة ساعة أو ساعتين حيث كنّا، ونتناول إفطارنا الذي كنّا في أمسّ الحاجة إليه، ثم نشق طريقنا عبر الهضبة وندور حول البحيرة المركزية إلى الكهوف حيث أظهرتْ ملاحظاتي أنّ الهنود يعيشون. اعتمدنا على حقيقة مفادها أنّه يمكننا الاعتماد على الكلمة الطيبة لأولئك الذين أنقذناهم لضمان الترحيب الحار من رفاقهم. بعد ذلك، بعد أن أنجزنا مهمتنا واكتسبنا معرفة أكثر اكتمالًا بأسرار أرض مابل وايت، يجب أن نوجه أفكارنا بالكامل إلى المشكلة الحيوية المتمثلة في هروبنا وعودتنا. حتى (تشالنجر) كان مستعدًا للاعتراف بأننا يجب أن نفعل كل ما أتينا من أجله، وأنّ واجبنا الأول منذ ذلك الوقت فصاعدًا هو إعادة الاكتشافات المذهلة التي توصلنا إليها إلى الحضارة.

لقد تمكنا الآن من إلقاء نظرة أكثر راحة على الهنود الذين أنقذناهم. كانوا رجالًا صغارًا، نحيفين، نشيطين، قويي البنية، بشعر أسود طويل مربوط خلف رؤوسهم بحزام جلدي، وكانتْ ملابسهم الجلدية أيضًا. كانتْ وجوههم خالية من الشعر، متناسقة، وحسنة المزاج. كانتْ شحمة آذانهم، المتدلية ممزقة وملطخة بالدماء، تشير إلى أنّهم قد ثقبوا من أجل بعض الحلي التي انتزعها آسروهم. كانتْ كلماتهم، على الرغم من أنّها غير مفهومة لنا، طليقة فيما بينهم، وبينما كانوا يشيرون إلى بعضهم البعض وينطقون بكلمة «أكالا» مرات عديدة، استنتجنا أنّ هذا هو اسم الأمة. من حين لآخر، بوجوه مرتعشة من الخوف والكراهية، كانوا يهزون أيديهم المشدودة في الغابة المحيطة ويصرخون: «دودا! دودا!» وهو بالتأكيد مصطلحهم لأعدائهم.

سأل اللورد (جون): «ماذا تعتقد بهم، تشالنجر؟»، «شيء واحد واضح جدًا بالنسبة لي، وهو أنّ الشاب الصغير الذي لديه الجزء الأمامي من رأسه المحلوق هو زعيم بينهم».

كان من الواضح أنّ هذا الرجل كان مختلفًا عن الآخرين، وأنّهم لم يجرؤوا أبدًا على مخاطبته دون إظهار كل علامات الاحترام العميق. بدا أصغرهم جميعًا، ومع ذلك، كانتْ روحه فخورة ومرتفعة لدرجة أنّه عندما وضع (تشالنجر) يده الكبيرة على رأسه، ارتجف مثل حصان محفز، وبلمحة سريعة من عينيه الداكنتين، ابتعد عن الأستاذ. ثم وضع يده على صدره وحمل نفسه بكرامة كبيرة، ونطق بكلمة «ماريتاس» عدة مرات. أمسك البروفسور، دون خجل، أقرب هندي من كتفه وشرع في محاضرته كما لو كان عينة معلبة في فصل دراسي.

قال بأسلوبه الرنان: «إنّ نوع هؤلاء الناس، سواء تم الحكم عليه من خلال سعة الجمجمة أو زاوية الوجه أو أي معيار آخر، لا يمكن اعتباره من فئة دنيًا؛ بل على العكس

من ذلك، يجب أن نضعه في مرتبة أعلى بكثير من العديد من القبائل في أمريكا الجنوبية التي يمكنني ذكرها. لا يمكننا بأي حال من الأحوال تفسير تطور مثل هذا العرق في هذا المكان. في هذا الصدد، هناك فجوة كبيرة تفصل بين هؤلاء القردة والحيوانات البدائية التي نجتْ على هذه الهضبة، بحيث لا يجوز لنا أن نتصور أنّهم قد تطوروا حيث وجدناهم».

«إذن من أين سقطوا؟» سأل اللورد (جون).

«هذا سؤال سوف يناقشه بلا شك كل مجتمع علمي في أوروبا وأمريكا». «إن قراءتي للموقف على قدر ما يستحقه الأمر»- انتفخ صدره بشكل هائل ونظر بوقاحة حوله إلى الكلمات- «هي أنّ التطور تقدم في ظل الظروف الخاصة لهذا البلد حتى مرحلة الفقاريات؛ حيث بقيت الأنواع القديمة وتعيش بصحبة الأنواع الأحدث. وهكذا نجد مخلوقات حديثة مثل التابير- وهو حيوان له نسب طويل محترم إلى حد ما- والغزال الكبير، وآكل النمل في صحبة أشكال الزواحف من النوع الجوراسي. كل هذا واضح. والآن يأتي رجال القردة والهنود. ما هو العقل العلمي الذي يفكر في وجودهم؟ لا أستطيع أن أفسر ذلك إلا بغزو من الخارج. من المحتمل أن يكون هناك قرد شبيه بالإنسان في أمريكا الجنوبية، والذي وجد طريقه في العصور الماضية إلى هذا المكان، وأنّه تطور إلى المخلوقات التي رأيناها، بعضها- (هنا نظر إليّ باهتمام)- كان له مظهر وشكل لو كان مصحوبًا بتطورات مماثلة، إنني لا أتردد في القول إن الذكاء الذي يتمتع به الهنود كان ليضفي الفضل على أي عرق حي. أما بالنسبة للهنود فلا أشك في أنهم مهاجرون حديثون من أسفل. فقد شقوا طريقهم إلى هنا تحت وطأة المجاعة أو الغزو. وفي مواجهة مخلوقات شرسة لم يسبق لهم أن رأوها من قبل، لجأوا إلى الكهوف التي وصفها صديقنا الشاب، ولكنهم بلا شك خاضوا معركة مريرة للدفاع عن أنفسهم ضد الوحوش البرية، وخاصة ضد رجال القردة الذين اعتبروهم متطفلين، وشنّوا عليهم حربًا لا هوادة فيها بمكر تفتقر إليه الوحوش الأكبر

حجمًا. ومن هنا جاءتْ حقيقة أن أعدادهم تبدو محدودة. حسنًا، أيها السادة، هل قرأتُ اللغز بشكل صحيح، أم أنّ هناك أي نقطة يمكن أن تستفسروا عنها؟».

كان البروفسور (سمرلي) مكتئبًا للغاية هذه المرة لدرجة أنّه لم يستطع الجدال، رغم أنّه هز رأسه بعنف كعلامة على الخلاف العام. اكتفى اللورد (جون) بحك خصلات شعره الهزيلة مع ملاحظة أنّه لا يستطيع مقاومة لأنّه ليس من نفس الوزن أو الفئة. ومن جانبي، قمتُ بدوري المعتاد في تقليص الأمور إلى مستوى عملي بحت من خلال ملاحظة أنّ أحد الهنود مفقود.

قال اللورد (روكستون): «لقد ذهب لإحضار بعض الماء. لقد زودناه بعلبة لحم بقري فارغة وهو الآن في طريقه».

سألتُ: «إلى المعسكر القديم؟».

«لا، إلى الجدول. إنّه بين الأشجار هناك. لا يمكن أن يكون أكثر من بضع مئات من الأمتار. لكن المتسول يأخذ وقته بالتأكيد».

«سأذهب وأهتم به»، قلتُ. التقطتُ بندقيتي وتجولتُ في اتجاه الجدول، تاركًا أصدقائي لوضع وجبة الإفطار الهزيلة. قد يبدو لك أنّه من المتهور أن أترك ملجأ غابتنا الودودة حتى لمسافة قصيرة كهذه، لكنك ستتذكر أننا كنّا على بعد أميال عديدة من بلدة القرود، وأنّ المخلوقات لم تكتشف ملاذنا بقدر ما نعلم، وأنني على أي حال مع وجود البندقية في يدي لم أكن خائفًا منهم. لم أكن قد تعلمتُ بعد مكرهم أو قوتهم.

كان بإمكاني سماع هدير جدولنا في مكان ما أمامي، لكن كان هناك تشابك من الأشجار والأخشاب بيني وبينه. كنتُ أشق طريقي عبر هذا المكان عند نقطة كانتْ

بعيدة عن أنظار رفاقي، عندما لاحظتُ تحت إحدى الأشجار شيئًا أحمر اللون متجمعًا بين الشجيرات. وعندما اقتربتُ منه، صدمتُ عندما رأيتُ أنّه كان جثة الهندي المفقود. كان مستلقيًا على جانبه، وأطرافه مشدودة، ورأسه ملتوية بزاوية غير طبيعية للغاية، بحيث بدا وكأنّه ينظر مباشرة فوق كتفه. أطلقتُ صرخة تحذيرية لأحذر أصدقائي من أنّ هناك شيئًا ما ليس على ما يرام، وركضتُ للأمام وانحنيتُ فوق الجثة. بالتأكيد كان ملاكي الحارس قريبًا جدًا مني في ذلك الوقت؛ لأنّ غريزة الخوف، أو ربما حفيف أوراق الشجر الخافت، جعلتني أنظر إلى الأعلى. من أوراق الشجر الخضراء الكثيفة التي كانتْ منخفضة فوق رأسي، كانتْ ذراعان عضليان طويلتان مغطيتان بشعر أحمر تنزلان ببطء. في لحظة أخرى، كانتِ اليدين الكبيرتين المتسللتين حول حلقي. قفزتُ إلى الوراء، ولكن على الرغم من سرعتي، كانتْ هاتان اليدين أسرع. لقد أخطأت قبضتي المميتة خلال قفزتي المفاجئة، لكن أحدهما أمسك بمؤخرة رقبتي والآخر وجهي. رفعتُ يدي لحماية حلقي، وفي اللحظة التالية انزلق المخلب الضخم على وجهي وأطبق عليهما. رُفعتُ بخفة عن الأرض، وشعرتُ بضغط لا يطاق يجبر رأسي للخلف وللخلف حتى أصبح الضغط على العمود الفقري العنقي أكثر مما أستطيع تحمله. سبحتْ حواسي، لكنني ما زلتُ أمزق اليد وأجبرها على الخروج من ذقني. نظرتُ لأعلى فرأيتُ وجهًا مخيفًا بعينين زرقاوين باردتين لا ترحمان تنظران إلى أسفل في عيني. كان هناك شيء منوم في تلك العيون الرهيبة. لم أستطع المقاومة بعد الآن. عندما شعر المخلوق بي وأنا أرتخي في قبضته، أشرقت نابتان أبيضتان للحظة على كل جانب من الفم البغيض، وشددتِ القبضة أكثر على ذقني، مما أجبرها دائمًا على الصعود والخلف. تشكل ضباب رقيق بيضاوي اللون أمام عيني ورنّ أجراس فضية صغيرة في أذني. سمعتُ صوت طلقة بندقية من مسافة بعيدة، وكنتُ مدركًا للصدمة التي أصابتني عندما سقطتُ على الأرض، حيث كنتُ مستلقيًا بلا إحساس أو

حركة.

استيقظتُ لأجد نفسي مستلقيًا على ظهري على العشب في عريننا داخل الغابة. أحضر أحدهم الماء من الجدول، وكان اللورد (جون) يرش رأسي به، بينما كان (تشالنجر) و (سمرلي) يدعمانني، والقلق بادٍ على وجوههما. للحظة، لمحتُ الأرواح البشرية خلف أقنعتها العلمية. كانتِ الصدمة حقًا، وليس أي إصابة، هي التي أضعفتني، وفي غضون نصف ساعة، وعلى الرغم من آلام الرأس والرقبة المتصلبة، كنتُ جالسًا ومستعدًا لأي شيء.

«لكنك حصلتَ على فرصة الهروب من حياتك، أيها الشاب الصغير»، قال اللورد (روكستون). «عندما سمعتُ صراخك وركضتُ للأمام، ورأيتُ رأسك ملتويًا إلى نصفه ورفرفتك في الهواء، اعتقدتُ أننا نفتقر إلى واحد. لقد أخطأتُ الوحش في اندفاعي، لكنّه أسقطك تمامًا وانطلق كالغريق. بحق جورج! أتمنى لو كان لدي خمسون رجلًا مسلحين بالبنادق. كنتُ لأقضي على العصابة الجهنمية بأكملها وأترك هذا البلد أنظف قليلًا مما وجدناه».

لقد كان من الواضح الآن أنّ رجال القردة قد وضعوا علامة علينا بطريقة ما، وأننا كنّا تحت المراقبة من كل جانب. لم يكن لدينا الكثير ممّا نخشاه منهم أثناء النهار، ولكن من المرجح جدًا أن يهاجمونا ليلًا؛ لذا فكلما ابتعدنا عن جيرتهم في وقت أقرب كان ذلك أفضل. كانتْ هناك غابة كاملة على ثلاثة جوانب منّا، وهناك قد نجد أنفسنا في كمين. ولكن على الجانب الرابع- الذي ينحدر باتجاه البحيرة- لم يكن هناك سوى شجيرات منخفضة، مع أشجار متناثرة ومروج مفتوحة عرضية. كان هذا هو الطريق الذي سلكته في رحلتي المنفردة، وقد قادنا مباشرة إلى الكهوف الهندية. لذا فلا بُد أن يكون هذا هو

طريقنا لكل الأسباب.

لقد كان من أشد أسفنا أنّه علينا ترك معسكرنا القديم، ليس فقط من أجل المؤن التي بقيتْ هناك، بل وأيضًا لأنّنا فقدنا الاتصال بـ (زامبو)، رابطتنا بالعالم الخارجي. ومع ذلك، كان لدينا إمداد جيد من الخراطيش وجميع بنادقنا، لذا، لفترة من الوقت على الأقل، تمكنا من الاعتناء بأنفسنا، وكنّا نأمل أن تتاح لنا قريبًا فرصة العودة واستعادة اتصالاتنا مع رجلنا الأسود. لقد وعدنا بأمانة بالبقاء حيث كان، ولم يكن لدينا أدنى شك في أنّه سيكون صادقًا في كلمته.

في وقت مبكر من بعد الظهر، بدأنا رحلتنا. كان الزعيم الشاب يسير على رأسنا كمرشد لنا، لكنّه رفض بغضب أن يحمل أي عبء. وخلفه جاء الهنديان الناجيان حاملين على ظهرهما ممتلكاتنا القليلة. كنّا نحن الأربعة رجال بيض نسير في المؤخرة وبنادقنا محملة وجاهزة. وعندما بدأنا في التحرك انطلقتْ فجأة زغاريد رجال القردة من الغابة الصامتة الكثيفة خلفنا، والتي ربما كانتْ هتاف انتصار لرحيلنا أو سخرية احتقارًا لهروبنا. وعندما نظرنا إلى الوراء لم نر سوى حاجز كثيف من الأشجار، لكن تلك الصرخة الطويلة أخبرتنا بعدد أعدائنا المتربصين بينهم. لكننا لم نر أي علامة على المطاردة، وسرعان ما دخلنا إلى منطقة أكثر انفتاحًا وخارج نطاق سيطرتهم.

وبينما كنتُ أسير على طول الطريق، في مؤخرة الأربعة، لم أستطع أن أمنع نفسي من الابتسام عند ظهور رفاقي الثلاثة في المقدمة. هل كان هذا هو اللورد (جون روكستون) الفاخر الذي جلس في ذلك المساء في ألباني وسط سجاده الفارسي وصوره في إشعاع وردي للأضواء الملونة؟ وهل كان هذا هو البروفسور المهيب الذي انتفخ خلف مكتبه الكبير في مكتبه الضخم في إنمور بارك؟ وأخيرًا، هل يمكن أن يكون هذا هو الشكل

الصارم المتزمت الذي نهض قبل الاجتماع في معهد علم الحيوان؟ لا يمكن لأي ثلاثة متشردين قد يقابلهم المرء في حارة ساري أن يبدوا أكثر يأسًا وإهمالاً. صحيح أننا لم نمكث على قمة الهضبة سوى أسبوع أو نحو ذلك، لكن كل ملابسنا الاحتياطية كانتْ في معسكرنا بالأسفل، وكان الأسبوع الواحد قاسيًا علينا جميعًا، على الأقل بالنسبة لي، فلم أكن مضطرًا لتحمل معاملة رجال القردة. فقد كل أصدقائي الثلاثة قبعاتهم، وربطوا الآن مناديل حول رؤوسهم، وعلقوا ملابسهم في شرائط حولهم، وكان من الصعب التعرف على وجوههم القذرة غير المحلوقة. كان كل من (سمرلي) و (تشالنجر) يعرجان بشدة، بينما كنتُ ما زلتُ أجرّ قدمي من الضعف بعد صدمة الصباح، كانتْ رقبتي متيبسة مثل لوح خشبي من القبضة القاتلة التي أمسكتُ بها. لقد كنّا طاقمًا بائسًا حقًا، ولم أتعجب من رؤية رفاقنا الهنود ينظرون إلينا من حين لآخر برعب ودهشة على وجوههم.

في وقت متأخر من بعد الظهر وصلنا إلى حافة البحيرة، وعندما خرجنا من الأدغال ورأينا طبقة المياه تمتد أمامنا، أطلق أصدقاؤنا المحليون صرخة فرح حادة وأشاروا بحماس أمامهم. لقد كان مشهدًا رائعًا حقًا أمامنا. كان هناك أسطول كبير من الزوارق يكتسح السطح الزجاجي قادمًا مباشرة إلى الشاطئ الذي وقفنا عليه. كانتْ على بعد أميال قليلة عندما رأيناهم لأول مرة، لكنهم اندفعوا إلى الأمام بسرعة كبيرة، وسرعان ما كانوا قريبين جدًا لدرجة أنّ المجدفين تمكنوا من تمييز أشخاصنا. انطلقتْ منهم على الفور صرخة مدوية من الفرح، ورأيناهم ينهضون من مقاعدهم، ويلوّحون بمجاديفهم ورماحهم بجنون في الهواء. ثم انحنوا لعملهم مرة أخرى، وطاروا عبر المياه الفاصلة، وأرسوا قواربهم على الرمال المنحدرة، واندفعوا نحونا، وسجدوا بصيحات عالية من التحية أمام الزعيم الشاب. وأخيرًا، ركض أحدهم، وهو رجل مسن، يرتدي قلادة وأسورة من خرز زجاجي لامع كبير، ويحمل على كتفيه جلد حيوان جميل مرقط بلون

العنبر، واحتضن الشاب الذي أنقذناه بحنان شديد. ثم نظر إلينا وسألنا بعض الأسئلة، وبعد ذلك صعد إلى الأمام بكل وقار واحتضنا كلًا منّا بدوره. ثم، بناءً على أمره، استلقى أفراد القبيلة بالكامل على الأرض أمامنا تكريمًا. شخصيًا، شعرتُ بالخجل وعدم الارتياح إزاء هذا التبجيل المذل، وقرأتُ نفس الشعور على وجوه (روكستون) و (سمرلي)، لكن (تشالنجر) تمدد مثل زهرة في الشمس.

قال وهو يمسح لحيته وينظر حوله إليهم: «قد يكونون من الأنواع غير المتطورة، لكن سلوكهم في حضور رؤسائهم قد يكون درسًا لبعض الأوروبيين الأكثر تقدمًا. من الغريب مدى صحة غرائز الإنسان الطبيعي!».

كان من الواضح أنّ السكان الأصليين قد خرجوا إلى درب الحرب؛ حيث كان كل رجل يحمل رمحه- وهو عبارة عن خيزران طويل بطرف عظمي- وقوسه وسهامه، ونوعًا من الهراوات أو الفؤوس الحجرية المعلقة على جانبه. كانتْ نظراتهم المظلمة الغاضبة إلى الغابة التي أتينا منها، والتكرار المتكرر لكلمة «دودا»، أوضحتْ بما فيه الكفاية أنّ هذه فرقة إنقاذ خرجتْ لإنقاذ أو الانتقام لابن الزعيم العجوز؛ لأننا اعتقدنا أنّ هذا الشاب يجب أن يكون كذلك. انعقد مجلس الآن من قبل القبيلة بأكملها في دائرة، بينما جلسنا بالقرب من لوح من البازلت وشاهدنا تصرفاتهم. تحدث اثنان أو ثلاثة من المحاربين، وأخيرًا ألقى صديقنا الشاب خطابًا حماسيًا بملامح وإيماءات بليغة لدرجة أننا استطعنا فهم كل ذلك بوضوح كما لو كنّا نعرف لغته.

قال: «ما الفائدة من العودة؟»، «عاجلًا أم آجلًا، لا بُد من إنجاز الأمر. لقد قُتل رفاقك. ماذا لو عدتَ سالمًا؟لقد لقي هؤلاء الآخرون حتفهم. لا يوجد أمان لأي منّا. لقد اجتمعنا الآن ونحن على أهبة الاستعداد». ثم أشار إلينا. «هؤلاء الرجال الغرباء

أصدقاؤنا. إنهم مقاتلون عظماء، وهم يكرهون رجال القردة تمامًا كما نكرههم نحن. إنّهم يأمرون»، ثم أشار إلى السماء، «بالرعد والبرق. متى سنحظى بمثل هذه الفرصة مرة أخرى؟ دعونا نمضي قدمًا، إما أن نموت الآن أو نعيش للمستقبل بأمان. وإلّا فكيف نعود إلى نسائنا دون خجل؟».

تعلق المحاربون الصغار الحمر بكلمات المتحدث، وعندما انتهى انفجروا في تصفيق حاد، ولوّحوا بأسلحتهم الخشنة في الهواء. تقدم الزعيم العجوز نحونا، وسألنا بعض الأسئلة، وأشار في نفس الوقت إلى الغابة. أشار إليه اللورد (جون) بأنّه يجب أن ينتظر الإجابة ثم التفتَ إلينا.

«حسنًا، الأمر متروك لك لتقول ما ستفعله»، قال؛ «من جانبي لدي حساب لأصفيه مع هؤلاء القردة، وإذا انتهى الأمر بمحوهم من على وجه الأرض، فلا أرى أنّ الأرض بحاجة إلى القلق بشأن ذلك. سأذهب مع أصدقائنا الصغار الحمر وأقصد أن أراهم خلال المعركة. ماذا تقول، أيها الشاب؟».

«بالطبع سأحضر».

«وأنت يا تشالنجر؟».

«سأتعاون بالتأكيد».

«وأنت يا سمرلي؟».

«يبدو أننا نبتعد كثيرًا عن هدف هذه الحملة يا لورد جون. أؤكد لك أنني لم أفكر كثيرًا عندما تركتُ منصبي المهني في لندن أنّ الغرض من هذه الحملة هو قيادة غارة من الوحوش على مستعمرة من القردة الشبيهة بالإنسان».

قال اللورد (جون) مبتسمًا: «لقد أتينا إلى مثل هذه الأغراض الحقيرة. لكننا نواجهها، فما القرار إذن؟».

قال (سمرلي)، وهو يجادل حتى النهاية: «يبدو أنّ هذه خطوة مشكوك فيها للغاية، ولكن إذا كنتم جميعًا ذاهبين، فلا أرى كيف يمكنني البقاء في الخلف».

«إذن فقد حُسم الأمر»، قال اللورد (جون)، واستدار إلى الزعيم وأومأ برأسه وصفع بندقيته.

صافح الرجل العجوز أيدينا، كل واحد بدوره، بينما كان رجاله يهتفون بصوت أعلى من أي وقت مضى. لقد فات الأوان للتقدم تلك الليلة، لذا استقر الهنود في معسكر مؤقت. بدأتْ نيرانهم تتوهج وتتصاعد من كل جانب. لقد عاد بعض هؤلاء الذين اختفوا في الغابة وهم يقودون أمامهم إجوانودونًا صغيرًا. ومثله كمثل الآخرين، كان على كتفه طبقة من الإسفلت، ولم نفهم في النهاية أنّ هذه المخلوقات العظيمة كانتْ ملكية خاصة مثلها كمثل قطيع من الماشية، وأنّ هذه الرموز التي حيرتنا كثيرًا لم تكن أكثر من علامات المالك. فقد كان من الممكن تجميع هذه المخلوقات العاجزة والخاملة والنباتية، ذات الأطراف الضخمة والدماغ الصغير، وقيادتها بواسطة طفل. وفي غضون دقائق قليلة، تم تقطيع الوحش الضخم وتعليق أجزاء منه فوق عشرات النيران المشتعلة، إلى جانب أسماك قشورية كبيرة تم طعنها بالرماح في البحيرة.

استلقى (سمرلي) ونام على الرمال، لكننا نحن الآخرون تجولنا حول حافة المياه، سعيًا لمعرفة المزيد عن هذا البلد الغريب. لقد وجدنا مرتين حفرًا من الطين الأزرق، مثل تلك التي رأيناها بالفعل في مستنقع الزواحف الطائرة. كانتْ هذه فتحات بركانية قديمة، ولسبب ما أثارتْ اهتمام اللورد (جون) بشكل كبير. من ناحية أخرى، كان ما

جذب (تشالنجر) هو نافورة طينية تتدفق وتتدفق، حيث شكلتْ بعض الغازات الغريبة فقاعات كبيرة متفجرة على السطح. فدفع بقصبة مجوفة فيها وصاح بفرح مثل تلميذ المدرسة، ثم تمكن، عند لمسها بعود ثقاب مشتعل، من إحداث انفجار حاد وشعلة زرقاء في الطرف البعيد من الأنبوب. وكان أكثر سرورًا عندما قلب كيسًا جلديًا فوق نهاية القصبة، وملأه بالغاز، وتمكن من إرساله عاليًا في الهواء.

«غاز قابل للاشتعال، وأخف وزنًا بشكل ملحوظ من الغلاف الجوي. أستطيع أن أقول دون أدنى شك أنّه يحتوي على نسبة كبيرة من الهيدروجين الحر.

إنّ موارد G.E.C لم تنفد بعد، يا صديقي الشاب. قد أريك كيف يوجه العقل العظيم كل الطبيعة لاستخدامها». لقد انتفخ بغرض سري، لكنّه لم يرغب في قول المزيد.

لم يكن هناك شيء يمكننا رؤيته على الشاطئ يبدو لي رائعًا مثل اللوح المائي الكبير أمامنا. لقد أخاف عددنا وضجيجنا جميع الكائنات الحية، وباستثناء عدد قليل من الزواحف الطائرة التي كانتْ تحلق عاليًا فوق رؤوسنا بينما كانتْ تنتظر الجيفة، كان كل شيء لا يزال حول المخيم. لكن الأمر كان مختلفًا فوق المياه الوردية للبحيرة المركزية. كانتْ تغلي وتتدفق بحياة غريبة. ارتفعتْ ظهور كبيرة بلون الأردواز وزعانف ظهرية مسننة عالية مع هامش فضي، ثم تدحرجتْ إلى الأعماق مرة أخرى. كانتْ ضفاف الرمال البعيدة مرصعة بأشكال زاحفة غير مألوفة، وسلاحف ضخمة، وزواحف غريبة، ومخلوق كبير مسطح مثل حصيرة ملتوية ذو جلد دهني أسود، والتي شقتْ طريقها ببطء إلى البحيرة. هنا وهناك، كانتْ رؤوس الأفاعي العالية تبرز من الماء، وتشقه بسرعة بطوق صغير من الرغوة في المقدمة، وخلفها موجة طويلة من الأمواج، ترتفع وتهبط في تموجات رشيقة تشبه تموجات البجعة أثناء سيرها. ولم يكن الأمر كذلك إلّا عندما تسلل أحد

هذه المخلوقات إلى ضفة رملية على بعد بضع مئات من الأمتار منّا، وكشف عن جسم على شكل برميل وزعانف ضخمة خلف عنق الأفعى الطويل، حتى انفجر (تشالنجر) و (سمرلي)؛ اللذان انضما إلينا، في ثنائي من الدهشة والإعجاب.

«بليزيوصور! بليزيوصور يعيش في المياه العذبة!» صاحتْ (سمرلي). «لقد عشتُ لأرى مثل هذا المنظر! لقد سعدنا، يا عزيزي تشالنجر، أكثر من أي علماء حيوان منذ بداية العالم!».

ولم يكن من الممكن أن ينجرف رجلا العلم بعيدًا عن سحر تلك البحيرة البدائية إلا بعد حلول الليل، وتوهج نيران حلفائنا المتوحشين باللون الأحمر في الظلال. حتى في الظلام بينما كنّا مستلقين على الشاطئ، كنّا نسمع من وقت لآخر شخير وهدير المخلوقات الضخمة التي تعيش هناك.

في وقت مبكر من الفجر كان معسكرنا في حالة تأهب وبعد ساعة بدأنا رحلتنا التي لا تنسى. غالبًا ما كنتُ أفكر في أحلامي أنني قد أعيش لأكون مراسلًا حربيًا. في أيّ شخص أعنف يمكنني أن أتخيل طبيعة الحملة التي سيكون من نصيبي أن أبلغ عنها! ها هي إذن أول رسالة لي من ساحة المعركة:

تم تعزيز أعدادنا أثناء الليل بدفعة جديدة من السكان الأصليين من الكهوف، وربما كنّا بقوة أربعمائة أو خمسمائة عندما تقدمنا. تم إرسال مجموعة من الكشافة في المقدمة، وخلفهم شقتِ القوة بأكملها في عمود صلب طريقها إلى المنحدر الطويل لمنطقة الأدغال حتى اقتربنا من حافة الغابة. هنا انتشروا في خط طويل متناثر من الرماح والرماة. اتخذ (روكستون) و (سمرلي) موقعهما على الجانب الأيمن، بينما كنتُ أنا و (تشالنجر) على اليسار. كان جيش من العصر الحجري هو الذي رافقنا إلى المعركة- كنّا نحمل آخر ما

توصل إليه فن صناعة الأسلحة النارية من شارع سانت جيمس وستراند.

ولم يكن أمامنا وقت طويل لننتظر عدونا. فقد ارتفعتْ صرخة حادة من حافة الغابة وفجأة اندفعتْ مجموعة من القردة حاملة العصي والحجارة، واتجهتْ نحو وسط الخط الهندي. كانتْ خطوة شجاعة ولكنّها كانتْ حمقاء؛ لأنّ المخلوقات الضخمة ذات الأرجل المنحنية كانتْ بطيئة الحركة، في حين كان خصومها نشطين مثل القطط. كان من المروّع أن نرى الوحوش الشرسة ذات الأفواه الرغوية والعيون المتوهجة، وهي تندفع وتمسك بالأشياء، ولكنّها تخطئ إلى الأبد أعداءها المراوغين، بينما تغوص السهام تلو السهام في جلودها. ركض رجل ضخم أمامي وهو يزأر من الألم، وقد اخترق صدره وضلوعه عشرات السهام. وفي رحمتي أطلقتُ رصاصة على جمجمته، فسقط ملقى بين الصبار. ولكن هذه كانتِ الطلقة الوحيدة التي أطلقتْ؛ لأنّ الهجوم كان في منتصف الخط، ولم يكن الهنود هناك في حاجة إلى مساعدتنا في صد الهجوم. ولا أعتقد أنّ أحدًا من بين كل رجال القردة الذين اندفعوا إلى العراء تمكن من العودة إلى الاختباء.

لكن الأمر كان أشد فتكًا حين دخلنا بين الأشجار. فبعد ساعة أو أكثر من دخولنا الغابة دارتْ معركة يائسة لم نستطع أن نقاومها لبعض الوقت. فبعد أن خرج رجال القردة من بين الشجيرات، هاجموا الهنود بعصي ضخمة، وكثيرًا ما أسقطوا ثلاثة أو أربعة منهم قبل أن يتمكنوا من طعنهم بالرماح. وكانتْ ضرباتهم المروّعة تحطم كل ما يسقطون عليه. وأسقط أحدهم بندقية (سمرلي) إلى أعواد الثقاب، وكان الثاني ليحطم جمجمته لولا أن طعنه هندي في قلبه. وكان رجال قردة آخرون في الأشجار فوقنا يلقون الحجارة وجذوع الأشجار، ويسقطون أحيانًا على صفوفنا ويقاتلون بشراسة حتى يسقطوا. وبمجرد أن ينهار حلفاؤنا تحت الضغط، ولولا الإعدام الذي نفذته بنادقنا لكانوا قد فرُّوا من المعركة. ولكن زعيمهم القديم حشدهم بشجاعة، وهاجموا بسرعة كبيرة حتى بدأ رجال القردة

بدورهم في التراجع. كان (سمرلي) بلا سلاح، لكنني كنتُ أفرغ مخزني بأسرع ما أستطيع، وعلى الجانب الآخر سمعنا طقطقة مستمرة لبنادق رفيقنا.

ثم في لحظة جاء الذعر والانهيار. صرختِ المخلوقات العظيمة وعوتْ في كل الاتجاهات عبر الأدغال، بينما صاح حلفاؤنا في فرحتهم الوحشية، متبعين بسرعة أعدائهم الهاربين. كان من المقرر أن يتم تطهير كل عداوات الأجيال التي لا تعد ولا تحصى، وكل الكراهية والقسوة في تاريخهم الضيق، وكل ذكريات سوء المعاملة والاضطهاد في ذلك اليوم. أخيرًا أصبح الإنسان هو الأسمى وسيجد الإنسان الوحش مكانه المخصص له إلى الأبد. على الرغم من أنّهم كانوا يطيرون، إلا أنّ الهاربين كانوا بطيئين للغاية في الهروب من المتوحشين النشطين، ومن كل جانب في الغابة المتشابكة سمعنا صراخًا مبتهجًا، ورنين الأقواس، وارتطام البشر القردة وهم ينزلون من مخابئهم في الأشجار.

كنتُ أتبع الآخرين، عندما وجدتُ أنّ اللورد (جون) و (تشالنجر) قد جاءا للانضمام إلينا.

قال اللورد (جون): «لقد انتهى الأمر. أعتقد أنّه يمكننا ترك الترتيب لهم. ربما كلما قل ما رأيناه كان ذلك أفضل لنا».

كانتْ عينا (تشالنجر) تلمعان برغبة في القتل.

صاح وهو يتبختر مثل ديك الصيد: «لقد حظينا بامتياز أن نكون حاضرين في واحدة من المعارك الحاسمة النموذجية في التاريخ- المعارك التي حددتْ مصير العالم. ما هو يا أصدقائي، غزو أمة لأخرى؟ إنّه لا معنى له. كل منهما ينتج نفس النتيجة. لكن تلك المعارك الشرسة، عندما صمد سكان الكهوف في فجر العصور ضد شعب النمر، أو عندما اكتشفتِ الأفيال لأول مرة أنّ لديها سيدًا، كانتْ تلك هي الفتوحات الحقيقية-

الانتصارات التي تحسب. من خلال هذا التحول الغريب في القدر رأينا وساعدنا في حسم مثل هذه المنافسة. الآن على هذه الهضبة يجب أن يكون المستقبل للإنسان دائمًا».

لقد كان لزامًا علينا أن نمتلك إيمانًا قويًا في النهاية لتبرير مثل هذه الوسائل المأساوية. وبينما كنّا نتقدم معًا عبر الغابة وجدنا رجال القردة ممددين على الأرض، وقد أصابتهم الرماح أو السهام. وهنا وهناك كانتْ مجموعة صغيرة من الهنود المحطمين يشيرون إلى المكان الذي انحرف فيه أحد القردة إلى الخليج وباع حياته غاليًا. وكنّا نسمع دائمًا أمامنا الصراخ والهدير اللذين كانا يشيران إلى اتجاه المطاردة. لقد طُرد رجال القردة إلى مدينتهم، ووقفوا هناك لآخر مرة، ومرة أخرى تحطموا، والآن أصبحنا في الوقت المناسب لرؤية المشهد المخيف الأخير. فقد طُرد نحو ثمانين أو مائة من الذكور، وهم آخر الناجين، عبر نفس المساحة الصغيرة التي تؤدي إلى حافة الجرف، مسرح مغامرتنا قبل يومين. وعندما وصلنا، كان الهنود، وهم نصف دائرة من حاملي الرماح، قد اقتربوا منهم، وفي غضون دقيقة واحدة انتهى الأمر، فقد مات ثلاثون أو أربعون منهم حيث كانوا واقفين. أما الآخرون، وهم يصرخون ويخدشون، فقد قُذفوا فوق الهاوية، واندفعوا إلى الأسفل، كما فعل سجناؤهم قديمًا، على الخيزران الحاد على ارتفاع ستمائة قدم أدناه. لقد كان الأمر كما قال (تشالنجر)، وتم ضمان حكم الإنسان إلى الأبد في أرض مابل وايت. لقد تم إبادة الذكور، ودُمرتْ بلدة القرود، وطُردتِ الإناث والصغار للعيش في عبودية، ووصل التنافس الطويل الذي دام قرونًا لا تُحصى إلى نهايته الدموية.

لقد جلب النصر لنا الكثير من المزايا. مرة أخرى تمكنّا من زيارة معسكرنا والحصول على مخازننا. ومرة أخرى تمكنّا أيضًا من التواصل مع (زامبو)؛ الذي كان مرعوبًا من مشهد انهيار جليدي من القرود من حافة الجرف من بعيد. «ابتعدوا يا سادة، ابتعدوا!» صاح، وعيناه تنطلقان من رأسه. «سيقتلكم الشيطان إذا بقيتم هناك».

«إنّه صوت العقل!» قال (سمرلي) باقتناع. «لقد خضنا ما يكفي من المغامرات، وهي لا تناسب شخصيتنا ولا مكانتنا. أتعهد لك بكلمتك يا تشالنجر. من الآن فصاعدًا، كرّس طاقاتك لإخراجنا من هذه البلاد الرهيبة وإعادتنا مرة أخرى إلى الحضارة».

الفصل الخامس عشر

رأتْ أعيننا عجائب عظيمة

أكتب هذا من يوم لآخر، ولكنني أثق أنّه قبل أن أصل إلى نهايته، قد أكون قادرًا على القول أنّ الضوء يشرق أخيرًا من خلال سحبنا. نحن محتجزون هنا دون وسيلة واضحة للفرار، ونحن نتألم بشدة بسبب ذلك. ومع ذلك، يمكنني أن أتخيل جيدًا أنّ اليوم قد يأتي عندما قد نكون سعداء لأنّنا محتجزون، رغمًا عنّا، لرؤية المزيد من عجائب هذا المكان الفريد، والمخلوقات التي تسكنه.

لقد كان انتصار الهنود وإبادة رجال القردة نقطة تحول في مصيرنا. منذ ذلك الحين، أصبحنا في الحقيقة سادة الهضبة، حيث نظر إلينا السكان الأصليون بمزيج من الخوف والامتنان؛ لأنّنا ساعدناهم بقوانا الغريبة في تدمير عدوّهم الوراثي. ربما كانوا يسعدون من أجل مصلحتهم الخاصة برؤية رحيل مثل هذا الشعب الهائل الذي لا يمكن حسابه، لكنّهم لم يقترحوا بأنفسهم أي طريقة يمكننا من خلالها الوصول إلى السهول أدناه. لقد كان هناك، بقدر ما استطعنا أن نتتبع إشاراتهم، نفق يمكن من خلاله الوصول إلى المكان، وكان المخرج السفلي منه قد رأيناه من الأسفل. ومن خلال هذا، لا شك أنّ كلًا من القردة والهنود قد وصلوا إلى القمة في عصور مختلفة، وقد سلك مابل وايت ورفيقه نفس الطريق. ولكن في العام السابق فقط، حدث زلزال مروّع، وسقط الطرف العلوي من النفق واختفى تمامًا. والآن لم يعد بوسع الهنود سوى هز رؤوسهم وأكتافهم عندما عبرنا بالإشارات عن رغبتنا في النزول. ربما لا يستطيعون، ولكن ربما لن يساعدونا أيضًا، في الهروب.

في نهاية الحملة المنتصرة، تم طرد القردة الناجين عبر الهضبة (كان عويلهم مروّعًا) واستقروا بالقرب من الكهوف الهندية؛ حيث سيصبحون من الآن فصاعدًا عِرقًا خاضعًا تحت أعين أسيادهم. لقد كانتْ نسخة بدائية فظة وخشنة من اليهود في بابل أو بني إسرائيل في مصر. في الليل كنّا نسمع من بين الأشجار صرخة طويلة، كما حزن (حزقيال) البدائي على العظمة المتساقطة وتذكر أمجاد بلدة القرود الراحلة. لقد كانوا من الآن فصاعدًا يقطعون الخشب ويجلبون الماء.

لقد عدنا عبر الهضبة مع حلفائنا بعد يومين من المعركة، وأقمنا معسكرنا عند سفح منحدراتهم. لقد أرادوا أن نشاركهم كهوفهم، لكن اللورد (جون) لم يوافق على ذلك بأي حال من الأحوال نظرًا لأنّ القيام بذلك من شأنه أن يضعنا في قبضتهم إذا كانوا ميالين إلى الخيانة. لقد حافظنا على استقلالنا، وأعددنا أسلحتنا لأي طارئ، مع الحفاظ على العلاقات الودية للغاية. كما زرنا كهوفهم باستمرار، والتي كانتْ أماكن رائعة للغاية، على الرغم من أننا لم نتمكن أبدًا من تحديد ما إذا كان من صنع الإنسان أو الطبيعة. كانوا جميعًا على طبقة واحدة، مجوفة من بعض الصخور الناعمة التي تقع بين البازلت البركاني الذي يشكل المنحدرات الحمراء فوقهم، والجرانيت الصلب الذي يشكل قاعدتهم.

كانتِ الفتحات على ارتفاع ثمانين قدمًا فوق سطح الأرض، وكانتْ تؤدي إليها سلالم حجرية طويلة، ضيقة وشديدة الانحدار لدرجة أنّ أي حيوان كبير لا يستطيع الصعود إليها. كانتْ دافئة وجافة من الداخل، وتمتد في ممرات مستقيمة ذات أطوال مختلفة إلى جانب التل، بجدران رمادية ناعمة مزينة بالعديد من الصور الرائعة المرسومة بالعصي المحروقة والتي تمثل الحيوانات المختلفة في الهضبة. إذا تم إزالة كل الكائنات الحية من البلاد، فسيجد المستكشف المستقبلي على جدران هذه الكهوف أدلة كافية على الحيوانات الغريبة- الديناصورات، والإيجوانودون، والسحالي السمكية- التي عاشتْ مؤخرًا على

الأرض.

بما أننا علمنا أنّ الإيجوانودون الضخمة كانتْ تُربى كقطعان أليفة من قبل أصحابها، وكانتْ مجرد مخازن للحوم، فقد تصورنا أنّ الإنسان، حتى بأسلحته البدائية، قد رسّخ هيمنته على الهضبة. سرعان ما اكتشفنا أنّ الأمر ليس كذلك.

لقد وقعتِ المأساة في اليوم الثالث بعد أن نصبنا معسكرنا بالقرب من الكهوف الهندية. فقد ذهب (تشالنجر) و (سمرلي) معًا في ذلك اليوم إلى البحيرة حيث كان بعض السكان الأصليين، تحت إشرافهما، منشغلين في صيد عينات من السحالي الضخمة. وظل اللورد (جون) وأنا في معسكرنا، بينما كان عدد من الهنود منتشرين على المنحدر العشبي أمام الكهوف منشغلين بطرق مختلفة.

وفجأة، سمعتْ صرخة إنذار حادة، وكلمة «ستوا» تتردد من مائة لسان. ومن كل جانب، كان الرجال والنساء والأطفال يهرعون بجنون بحثًا عن مأوى، ويصعدون السلالم ويدخلون الكهوف في تدافع جنوني.

عندما نظرنا إلى الأعلى، رأيناهم يلوّحون بأذرعهم من فوق الصخور أعلاه ويشيرون إلينا للانضمام إليهم في ملجأهم. وقد أمسكنا ببنادقنا وخرجنا لنرى ما قد يكون الخطر. وفجأة، من حزام الأشجار القريب، خرجتْ مجموعة من اثني عشر أو خمسة عشر هنديًا، يركضون لإنقاذ حياتهم، وفي أعقابهم اثنان من تلك الوحوش المخيفة التي أزعجتْ معسكرنا وطاردتني في رحلتي المنفردة. كانتْ في شكلها مثل الضفادع الرهيبة، وكانتْ تتحرك في سلسلة من الينابيع، ولكن في حجمها كانتْ ضخمة بشكل لا يصدق، أكبر من أكبر فيل. لم نرها من قبل إلا في الليل، وهي في الواقع حيوانات ليلية إلا عندما يتم إزعاجها في أوكارها، كما كانتْ هذه. وقفنا الآن مذهولين من المنظر؛ لأنّ جلودها المبقعة

والمتقرحة كانتْ ذات بريق غريب يشبه سمكة، وكانتْ أشعة الشمس تضربها بقوس قزح متغير باستمرار أثناء تحركهم.

لم يكن لدينا الوقت الكافي لمراقبتهم؛ ففي لحظة واحدة لحقوا بالهاربين وراحوا يرتكبون مذبحة مروّعة بينهم. وكانتْ طريقتهم هي أن ينقضوا على كل واحد منهم بكامل ثقلهم، فيتركونه مسحوقًا ومشوهًا، فيركض وراء الآخرين. صرخ الهنود البائسون في رعب، ولكنّهم كانوا عاجزين، فركضوا كما يحلو لهم، أمام العزم الدؤوب والنشاط المروّع لهذه المخلوقات الوحشية. وسقطوا واحدًا تلو الآخر، ولم ينجُ منهم سوى نصف دزينة عندما تمكنتُ أنا ورفيقي من مساعدتهم. ولكن مساعدتنا لم تكن ذات فائدة تذكر ولم تعرضنا إلا لنفس الخطر. وعلى مسافة مائتي ياردة، أفرغنا مخازن ذخيرتنا، وأطلقنا رصاصة تلو الأخرى على الوحوش، ولكن دون أن يكون تأثيرنا أكبر من تأثير رشقها بكرات الورق. كانتْ طبيعتهم الزاحفة البطيئة لا تهتم بالجروح، ولم يكن من الممكن استغلال ينابيع حياتهم؛ التي لا تحتوي على مركز دماغي خاص ولكنّها متناثرة في جميع أنحاء النخاع الشوكي، بأي أسلحة حديثة. كان أقصى ما يمكننا فعله هو إيقاف تقدمهم من خلال تشتيت انتباههم بوميض وهدير بنادقنا، وبالتالي إعطاء كل من السكان الأصليين وأنفسنا الوقت للوصول إلى الدرجات التي تؤدي إلى الأمان. ولكن حيث لم تكن الرصاصات المتفجرة المخروطية للقرن العشرين ذات فائدة، فقد نجحتِ السهام المسمومة للسكان الأصليين، المغموسة في عصير ستروفانثوس ثم المنقوعة بعد ذلك في الجيف المتعفنة. كانتْ مثل هذه السهام ذات فائدة ضئيلة للصياد الذي هاجم الوحش؛ لأنّ عملها في تلك الدورة الخاملة كان بطيئًا، وقبل أن تفشل قواه، كان بإمكانه بالتأكيد اللحاق بمهاجمه وقتله. ولكن الآن، بينما كان الوحشان يطاردانا حتى أسفل الدرج، جاء صفير من السهام من كل شق في الجرف فوقهما. وفي لحظة واحدة، غطّتهم

الريش، ومع ذلك، دون أي علامة على الألم، خدشوا وسال لعابهم بغضب عاجز على الدرجات التي ستقودهم إلى ضحاياهم، وصعدوا بشكل أخرق لبضعة أمتار ثم انزلقوا مرة أخرى إلى الأرض. ولكن في النهاية نجح السم. أطلق أحدهم أنينًا عميقًا مدويًا وأسقط رأسه الضخم القرفصاء على الأرض. وثب الآخر في دائرة شاذة مع صرخات حادة وعويل، ثم استلقى متألمًا لبضع دقائق قبل أن تصلب هو الآخر ويظل ساكنًا. مع صيحات الانتصار، نزل الهنود من كهوفهم ورقصوا رقصة جنونية للنصر حول الجثث، في فرح مجنون لأنّ اثنين آخرين من أخطر أعدائهم قد قُتلوا. في تلك الليلة، قاموا بتقطيع الجثث ونقلها، ليس لتناولها- لأنّ السم كان لا يزال نشطًا- ولكن خشية أن يتسبب في تكاثر الطاعون. ولكن قلوب الزواحف الضخمة؛ التي كان حجم كل منها يضاهي حجم الوسادة، ظلتْ راقدة هناك، تنبض ببطء وثبات، مع ارتفاع وانخفاض لطيفين، في حياة مستقلة مروّعة. ولم تتوقف العقد العصبية عن العمل إلّا في اليوم الثالث، وهدأتِ الأشياء المروّعة.

يوم ما عندما يكون لدي مكتب أفضل من علبة اللحوم وأدوات أكثر فائدة من قِطَع قلم رصاص مهترئ ودفتر ملاحظات ممزق أخير، سأكتب بعض القصص الكاملة عن هنود أكالا- عن حياتنا بينهم، وعن اللمحات التي رأيناها عن الظروف الغريبة لأرض مابل وايت الرائعة. على الأقل، لن تخذلني الذاكرة أبدًا، طالما أنّ نفس الحياة في داخلي، فإنّ كل ساعة وكل فعل من تلك الفترة سيبرز بقوة ووضوح مثل الأحداث الغريبة الأولى في طفولتنا. لا يمكن لأي انطباعات جديدة أن تمحو تلك التي تم قطعها بعمق. عندما يحين الوقت، سأصف تلك الليلة المقمرة الرائعة على البحيرة الكبرى عندما علق إكثيوصوروس صغير- مخلوق غريب، نصفه فقمة ونصفه الآخر سمكة، بعينين مغطيتين بالعظام على كل جانب من أنفه، وعين ثالثة مثبتة على قمة رأسه- في شبكة هندية، وكاد

يقلب قاربنا قبل أن نسحبه إلى الشاطئ؛ في نفس الليلة التي انطلق فيها ثعبان مائي أخضر من بين الأعشاب وحمل في لفائفه قائد زورق (تشالنجر). وسأخبركم أيضًا عن الشيء الأبيض الليلي الضخم- لا نعرف حتى يومنا هذا ما إذا كان حيوانًا أم زاحفًا- الذي عاش في مستنقع حقير إلى الشرق من البحيرة، وكان يرفرف حوله بريق فوسفوري خافت في الظلام. كان الهنود مرعوبين منه لدرجة أنهم لم يقتربوا من المكان، وعلى الرغم من أننا قمنا برحلات استكشافية مرتين ورأيناه في كل مرة، إلا أننا لم نتمكن من شق طريقنا عبر المستنقع العميق الذي عاش فيه. لا أستطيع إلا أن أقول أنّه بدا أكبر من بقرة وله رائحة مسكية غريبة. سأخبركم أيضًا عن الطائر الضخم الذي طارد (تشالنجر) إلى ملجأ الصخور ذات يوم- طائر كبير يركض، أطول بكثير من النعامة، برقبة تشبه رقبة النسر ورأس قاسي جعله موتًا سائرًا. وبينما كان (تشالنجر) يتسلق إلى بر الأمان، أصاب سهم من ذلك المنقار المتوحش المنحني كعب حذائه وكأنّه قُطِع بإزميل. وهذه المرة على الأقل سادتِ الأسلحة الحديثة، وسقط المخلوق الضخم الذي يبلغ طوله اثني عشر قدمًا من الرأس إلى القدم- وهو اسمه فوروراكوس، وفقًا لأستاذنا الذي كان يلهث ولكنّه مبتهج- أمام بندقية اللورد (روكستون) في موجة من الريش الملوّح والأطراف الراكلة، مع عينين صفراوين لا ترحمان تتلألآن من وسطها. أتمنى أن أعيش لأرى تلك الجمجمة الشريرة المسطحة في مكانها الخاص وسط جوائز ألباني. وأخيرًا، سأقدم بالتأكيد بعض المعلومات عن توكسودون، خنزير غينيا العملاق الذي يبلغ طوله عشرة أقدام، ذو الأسنان البارزة التي تشبه الإزميل، والذي قتلناه وهو يشرب في الصباح الرمادي بجانب البحيرة.

سوف أكتب كل هذا في يوم من الأيام بالتفصيل، وفي خضم هذه الأيام الأكثر إثارة، سوف أرسم برقة هذه الأمسيات الصيفية الجميلة، عندما كنّا نستلقي في رفقة طيبة بين

الأعشاب الطويلة بجانب الغابة، تحت سماء زرقاء عميقة، ونتعجب من الطيور الغريبة التي كانتْ تحلق فوقنا، والكائنات الجديدة الغريبة التي تسللتْ من جحورها لمراقبتنا، بينما كانتْ أغصان الشجيرات فوقنا مثقلة بالفاكهة اللذيذة، وتحتنا كانتِ الزهور الغريبة الجميلة تتلصص علينا من بين الأعشاب؛ أو تلك الليالي الطويلة المقمرة عندما كنّا نستلقي على السطح اللامع للبحيرة الكبرى ونراقب بدهشة وذهول الدوائر الضخمة التي تتدفق من رذاذ مفاجئ لبعض الوحوش الخيالية؛ أو اللمعان الأخضر، بعيدًا في المياه العميقة، لبعض المخلوقات الغريبة على حدود الظلام. هذه هي المشاهد التي سيتأملها عقلي وقلمي بكل تفاصيلها في يوم من الأيام في المستقبل.

لكنكم قد تسألون لما هذه التجارب وهذا التأخير، بينما كان من المفترض أن تنشغل أنت ورفاقك ليل نهار في ابتكار بعض الوسائل التي تمكنك من العودة إلى العالم الخارجي؟ إجابتي هي أنّه لم يكن هناك أحد منّا لم يعمل من أجل هذه الغاية، ولكن عملنا كان بلا جدوى. لقد اكتشفنا حقيقة واحدة بسرعة كبيرة: أنّ الهنود لن يفعلوا أي شيء لمساعدتنا. في كل الأحوال كانوا أصدقاءنا- يمكن للمرء أن يقول تقريبًا عبيدنا المخلصين- ولكن عندما اقترحنا أن يساعدونا في صنع وحمل لوح خشبي يمكن أن يسد الفجوة، أو عندما أردنا الحصول منهم على أربطة من الجلد أو ليانا لنسج الحبال التي قد تساعدنا، قوبلنا برفض مرح ولكنه لا يقهر. كانوا يبتسمون، ويومضون بأعينهم، ويهزون رؤوسهم وهنا ينتهي الأمر. حتى الزعيم العجوز استقبلنا بنفس الإنكار العنيد، ولم يكن سوى (ماريتاس)، الشاب الذي أنقذناه، نظر إلينا بحسرة وأخبرنا من خلال حركاته أنه حزين لرغباتنا التي أحبطتْ. فمنذ انتصارهم المتوج على رجال القردة، نظروا إلينا باعتبارنا رجالًا خارقين، نحمل النصر في أنابيب أسلحة غريبة، وكانوا يعتقدون أنّه طالما بقينا معهم فإنّ الحظ السعيد سيكون لهم. وقد عرضوا علينا زوجة صغيرة حمراء

البشرة وكهفًا خاصًا بنا مجانًا إذا نسينا شعبنا وسكنّا إلى الأبد على الهضبة. حتى الآن كان الجميع لطفاء، بغض النظر عن مدى تباعد رغباتنا؛ لكننا شعرنا بثقة تامة في أن خططنا الفعلية للنزول يجب أن تظل سرية؛ لأنّنا كان لدينا سبب للخوف من أنّهم قد يحاولون في النهاية احتجازنا بالقوة.

على الرغم من الخطر الذي تشكله الديناصورات (وهو ليس بالخطر الكبير إلا في الليل، وذلك لأنّ الديناصورات، كما قلت من قبل، تنشط في الغالب ليلًا)، فقد ذهبتُ مرتين خلال الأسابيع الثلاثة الماضية إلى معسكرنا القديم من أجل رؤية الزنجي الذي ما زال يراقب ويحرس أسفل الجرف. وظللتُ أتأمل السهل العظيم بشغف على أمل أن أرى من بعيد المساعدة التي صلينا من أجلها. ولكن المستويات الطويلة المليئة بالصبار ما زالتْ ممتدة، خاوية وعارية، إلى خط قصب السكر البعيد.

«سوف يأتون قريبًا الآن، سيد مالون. قبل أن يمر أسبوع آخر، عد أيها الهندي واحضر حبلًا، وأحضرك إلى الأسفل». كانتْ هذه هي الصرخة المبهجة التي أطلقها (زامبو) الرائع.

لقد مررتُ بتجربة غريبة عندما عدتُ من هذه الزيارة الثانية التي تضمنتِ ابتعادي عن رفاقي ليلة واحدة. كنتُ عائدًا على طول الطريق الذي أتذكره جيدًا، وقد وصلتُ إلى مكان على بعد ميل أو نحو ذلك من مستنقع الزواحف الطائرة، عندما رأيتُ شيئًا غير عادي يقترب مني. كان رجلًا يسير داخل إطار مصنوع من قصب معوج بحيث كان محاطًا من جميع الجوانب بقفص على شكل جرس. عندما اقتربتُ، شعرتُ بالدهشة أكثر عندما رأيتُ أنّه اللورد (جون روكستون). عندما رآني أنزلق من تحت حمايته الغريبة وجاء نحوي ضاحكًا، ومع ذلك، كما اعتقدتُ، كان بعض الارتباك في سلوكه.

«حسنًا، أيها الشاب الصغير»، قال، «من كان ليفكر في مقابلتك هنا؟».

«ماذا تفعل؟» سألتُ.

«أزور أصدقائي، الزواحف الطائرة»، قال.

«ولكن لماذا؟».

«وحوش مثيرة للاهتمام، ألا تعتقد ذلك؟ لكنّها غير اجتماعية! طرق وقحة سيئة مع الغرباء، كما قد تتذكر. لذا فقد جهزتُ هذا الإطار الذي يمنعهم من أن يكونوا أكثر إلحاحًا في انتباههم».

«ولكن ماذا تريد في المستنقع؟».

نظر إليّ بعين متسائلة للغاية، وقرأتُ التردد على وجهه.

«ألا تعتقد أنّ أشخاصًا آخرين غير الأساتذة قد يرغبون في معرفة الأشياء؟» قال أخيرًا. «أنا أدرس الفتيات الجميلات. هذا يكفيك».

«لا أقصد الإساءة»، قلتُ.

عاد إليه حس الدعابة وضحك.

«لا أريد أن أسيء إليك يا فتى. سأحضر فتاة شيطانية صغيرة لتشالنجر. هذه إحدى وظائفي. لا، لا أريد صحبتك. أنا آمن في هذا القفص، وأنت لست كذلك. إلى اللقاء، وسأعود إلى المخيم بحلول الليل».

استدار وتركته يتجول في الغابة مع قفصه غير العادي حوله.

إذا كان سلوك اللورد (جون) في هذا الوقت غريبًا، فإنّ سلوك (تشالنجر) كان أكثر

غرابة. يمكنني القول أنّه بدا وكأنّه يمتلك سحرًا غير عادي تجاه النساء الهنديات، وأنّه كان يحمل دائمًا غصن نخيل كبير ممتد يضربهنّ به كما لو كنّ ذبابًا، عندما يصبح انتباههنّ شديد الضغط. إنّ رؤيته وهو يمشي مثل سلطان الأوبرا الكوميدي، حاملًا شارة السلطة في يده، ولحيته السوداء منتصبة أمامه، وأصابع قدميه تشير إلى كل خطوة، وخلفه مجموعة من الفتيات الهنديات ذوات العيون الواسعة، يرتدين ثيابهنّ الرقيقة المصنوعة من لحاء الشجر، هي واحدة من أكثر الصور غرابة التي سأحملها معي. أما بالنسبة لـ (سمرلي)، فقد كان منغمسًا في حياة الحشرات والطيور في الهضبة، وقضى كل وقته (باستثناء ذلك الجزء الكبير الذي كرسه لإساءة معاملة تشالنجر لأنه لم ينقذنا من الصعوبات التي واجهناها) في تنظيف وتركيب عيناته.

كان (تشالنجر) معتادًا على السير بمفرده كل صباح والعودة من وقت لآخر بنظرات مهيبة، كمن يحمل على كتفيه ثقل مشروع كبير بالكامل. ذات يوم، وفي يده غصن نخيل، وخلفه حشد من المريدين المتعبدين، قادنا إلى ورشة عمله المخفية وأخذنا إلى سر خططه.

كان المكان عبارة عن مساحة صغيرة مفتوحة في وسط بستان نخيل. وكان هناك أحد تلك السخانات الطينية المغلية التي وصفتها من قبل. وعلى حافتها كانتْ متناثرة عدد من الأربطة الجلدية المقطوعة من جلد الإجواندون، وغشاء كبير منهار ثبتَ أنّه معدة جافة ومكشطة لواحدة من السحالي السمكية الضخمة من البحيرة. وقد تم خياطة هذا الكيس الضخم من أحد طرفيه ولم يتبق سوى فتحة صغيرة في الطرف الآخر. وتم إدخال عدة أعواد من الخيزران في هذه الفتحة وكانتِ الأطراف الأخرى لهذه الأعواد على اتصال بقمع طين مخروطي الشكل يجمع الغاز المتصاعد من خلال طين السخان. وسرعان ما بدأ العضو المترهل في التمدد ببطء وإظهار مثل هذا الميل إلى التحرك إلى الأعلى حتى أنّ (تشالنجر) ربط الحبال التي كانتْ تمسكه بجذوع الأشجار المحيطة. وفي غضون

نصف ساعة، تم تشكيل كيس غاز بحجم جيد، وأظهر الارتعاش والشد على الأربطة أنّه قادر على الرفع بشكل كبير. كان (تشالنجر)، كأب سعيد في حضور مولوده الأول، يقف مبتسمًا ويداعب لحيته، في صمت ورضا عن الذات وهو يحدق في إبداع عقله. كان (سمرلي) هي أول من كسر الصمت:

«ألا تقصد أن نصعد إلى ذلك الشيء، تشالنجر؟» قال بصوت لاذع.

«أعني، يا عزيزي سمرلي، أن أقدم لك عرضًا لقوته بحيث بعد رؤيته، أنا متأكد من أنك لن تتردد في الاعتماد عليه».

«يمكنك أن تخرجه من رأسك الآن، على الفور»، قال (سمرلي) بحزم، «لا شيء على وجه الأرض من شأنه أن يدفعني لارتكاب مثل هذه الحماقة. يا لورد جون، أنا أثق في أنك لن تتسامح مع مثل هذا الجنون؟».

«أسميه عبقريًا»، قال زميلنا. «أود أن أرى كيف يعمل».

«ستفعل ذلك»، قال تشالنجر. «لقد بذلتُ كل طاقتي العقلية لعدة أيام في التفكير في كيفية النزول من هذه المنحدرات. لقد أقنعنا أنفسنا بأننا لا نستطيع النزول وأنّه لا يوجد نفق. كما أننا غير قادرين على بناء أي نوع من الجسور التي قد تعيدنا إلى القمة التي أتينا منها. فكيف إذن أجد وسيلة لنقلنا؟ لقد ذكرتُ منذ فترة قصيرة لصديقنا الشاب هنا أنّ الهيدروجين الحر قد تطور من السخان. وتبع ذلك بطبيعة الحال فكرة البالون. أعترف أنني كنتُ حائرًا بعض الشيء بسبب صعوبة اكتشاف غلاف يحتوي على الغاز، لكن التأمل في الأحشاء الضخمة لهذه الزواحف زودني بحل للمشكلة. انظر إلى النتيجة!».

وضع إحدى يديه في مقدمة سترته الممزقة وأشار بفخر باليد الأخرى.

بحلول هذا الوقت، انتفخ كيس الغاز إلى حد كبير وكان يهتز بقوة على أربطة.

«جنون منتصف الصيف!» زفر (سمرلي).

لقد كان اللورد (جون) مسرورًا بالفكرة برمتها. «عزيزي العجوز الذكي، أليس كذلك؟» همس لي، ثم بصوت أعلى لـ (تشالنجر). «ماذا عن العربة؟».

«ستكون العربة همي التالي. لقد خططتُ بالفعل لكيفية صنعها وربطها. وفي غضون ذلك، سأريك ببساطة مدى قدرة جهازي على تحمل وزن كل منّا».

«كلنا، بالتأكيد؟».

«لا، إنّه جزء من خطتي أن ينزل كل منّا بدوره كما لو كان في مظلة، ويتم سحب البالون للخلف بوسائل لن أجد صعوبة في إتقانها. إذا كان قادرًا على تحمل وزن شخص واحد وينزله برفق، فسيكون قد فعل كل ما هو مطلوب منه. سأريك الآن قدرته في هذا الاتجاه».

أخرج كتلة من البازلت بحجم كبير، تم بناؤها في المنتصف بحيث يمكن ربط حبل بها بسهولة. كان هذا الحبل هو الذي أحضرناه معنا إلى الهضبة بعد أن استخدمناه لتسلق القمة. كان طوله أكثر من مائة قدم، ورغم أنّه كان رقيقًا إلا أنّه كان قويًا جدًا. كان قد أعد نوعًا من طوق من الجلد به العديد من الأشرطة التي تعتمد عليه. تم وضع هذا الطوق فوق قبة البالون، وتم تجميع الأربطة المعلقة معًا في الأسفل، بحيث يتم توزيع ضغط أي وزن على سطح كبير. ثم تم ربط كتلة البازلت بالأربطة، وتم السماح للحبل بالتعليق من نهايته، وتم تمريره ثلاث مرات حول ذراع البروفيسور.

قال (تشالنجر) بابتسامة من الترقب السعيد: «سأوضح الآن قوة حمل بالوني». وبينما

قال ذلك، قطع بسكين الأربطة المختلفة التي كانتْ تمسكه.

لم تكن رحلتنا الاستكشافية في خطر وشيك للفناء التام مثل هذا. انطلق الغشاء المنتفخ بسرعة مخيفة في الهواء. في لحظة تم سحب (تشالنجر) من قدميه وسحبه خلفه. كان لديّ الوقت الكافي لألقي ذراعي حول خصره الصاعد عندما تم رفعي بنفسي في الهواء. كان اللورد (جون) يمسكني بساقيَّ بقبضة من الفخاخ، ولكنني شعرتُ أنّه كان ينهض عن الأرض أيضًا. للحظة، كانتْ لدي رؤية لأربعة مغامرين يطفون مثل سلسلة من النقانق فوق الأرض التي استكشفوها. ولكن لحسن الحظ، كانتْ هناك حدود للإجهاد الذي يمكن أن يتحمله الحبل، رغم أنّه لا يوجد حد على ما يبدو لقوى الرفع التي تتمتع بها هذه الآلة الجهنمية. كان هناك شق حاد، وكنّا في كومة على الأرض مع لفائف من الحبل في كل مكان حولنا. عندما تمكنا من الترنح على أقدامنا، رأينا بعيدًا في السماء الزرقاء العميقة بقعة مظلمة حيث كانتْ كتلة البازلت تسرع في طريقها.

«رائع!» صاح (تشالنجر) الشجاع وهو يفرك ذراعه المصابة. «عرض شامل ومرضٍ للغاية! لم أكن لأتوقع مثل هذا النجاح. في غضون أسبوع، أيها السادة، أعدكم بتجهيز بالون ثانٍ، وأنّكم يمكنكم الاعتماد على الأمان والراحة في المرحلة الأولى من رحلتنا إلى الوطن».

حتى الآن كتبتُ كل الأحداث السابقة كما حدثتْ. الآن أختتم سرد قصتي من المخيم القديم؛ حيث انتظر (زامبو) طويلًا، مع كل الصعوبات والمخاطر التي واجهناها والتي تركتْ خلفنا مثل الحلم على قمة تلك المنحدرات الضخمة الحمراء التي ترتفع فوق رؤوسنا. لقد نزلنا بأمان، وإن كان بطريقة غير متوقعة أبدًا، وكان كل شيء على ما يرام معنا. في غضون ستة أسابيع أو شهرين سنكون في لندن، ومن المحتمل ألّا تصل

إليكم هذه الرسالة قبل وقت طويل من وصولنا نحن أنفسنا. بالفعل تتوق قلوبنا وتطير أرواحنا نحو المدينة الأم العظيمة التي تحمل الكثير مما هو عزيز علينا.

لقد حدث التغيير في أحوالنا في نفس مساء مغامرتنا الخطيرة مع منطاد (تشالنجر) المصنوع منزليًا. لقد قلتُ إنّ الشخص الوحيد الذي تلقينا منه بعض إشارات التعاطف في محاولاتنا للهروب كان الزعيم الشاب الذي أنقذناه. لم يكن لديه الرغبة الوحيدة في احتجازنا ضد إرادتنا في أرض غريبة. لقد أخبرنا بذلك من خلال لغة الإشارات المعبرة. في ذلك المساء، بعد الغسق، نزل إلى معسكرنا الصغير، وسلمني (لسبب ما كان يبدي اهتمامه بي دائمًا؛ ربما لأنّني كنتُ الأقرب سنًا منه) لفافة صغيرة من لحاء شجرة، ثم أشار بوقار إلى صف الكهوف فوقه، ووضع إصبعه على شفتيه كعلامة على السرية وسرق مرة أخرى إلى شعبه.

أخذتُ قطعة اللحاء إلى النار وفحصناها معًا. كانتْ مساحتها حوالي قدم مربعة، وعلى الجانب الداخلي كان هناك ترتيب غريب للخطوط، والتي أعيد تقديمها هنا:

كانتْ مرسومة بدقة بالفحم على السطح الأبيض، وبدتْ لي للوهلة الأولى وكأنّها نوع من النوتة الموسيقية الخام.

«مهما كان الأمر، أقسم أنّه مهم بالنسبة لنا»، قلتُ. «لقد قرأتُ ذلك على وجهه عندما قدمها».

«ما لم نصادف مزاحًا عمليًا بدائيًا»، اقترح (سمرلي)، «وهو ما أعتقد أنّه سيكون أحد أكثر تطورات الإنسان بدائية».

«من الواضح أنّه نوع من النصوص»، قال (تشالنجر).

«يبدو وكأنّه مسابقة أحجية غينيا»، علّق اللورد (جون)، وهو يمد رقبته لإلقاء نظرة عليها. ثم فجأة مدّ يده وأمسك بالأحجية.

«بحق جورج!» صاح، «أعتقد أنني فهمتُ الأمر. لقد خمن الصبي بشكل صحيح في المرة الأولى. انظر هنا! كم عدد العلامات الموجودة على هذه الورقة؟ ثمانية عشر. حسنًا، إذا فكرت في الأمر، فهناك ثمانية عشر فتحة كهف على جانب التل فوقنا».

«أشار إلى الكهوف عندما أعطاني إياها»، قلتُ.

«حسنًا، حسم الأمر. هذه خريطة للكهوف. ماذا! ثمانية عشر منها كلها في صف واحد، بعضها قصير، وبعضها عميق، وبعضها متفرع، تمامًا كما رأيناها. إنّها خريطة، وهنا صليب عليها. ما الغرض من الصليب؟ لقد تم وضعه لتحديد كهف أعمق بكثير من الآخرين».

«كهف يمكن عبوره؟»، صرختُ.

«أعتقد أنّ صديقنا الشاب قد قرأ اللغز»، قال تشالنجر. «إذا لم يعبر الكهف، فأنا لا أفهم لماذا لفتَ هذا الشخص؛ الذي لديه كل الأسباب ليُحسن ظننا، انتباهنا إليه؟ ولكن إذا عبر الكهف وخرج من النقطة المقابلة على الجانب الآخر، فلن يكون أمامنا أكثر من مائة قدم للنزول».

«مائة قدم!» تذمر (سمرلي).

«حسنًا، لا يزال حبلنا أطول من مائة قدم»، صرختُ. «بالتأكيد يمكننا النزول!».

«ماذا عن الهنود في الكهف؟» اعترض (سمرلي).

«لا يوجد هنود في أي من الكهوف فوق رؤوسنا»، قلتُ. «تُستخدم جميعها كحظائر

ومخازن. لماذا لا نصعد الآن على الفور ونتعرف على الأرض؟».

هناك خشب قار جاف على الهضبة- نوع من أشجار الأراوكاريا، وفقًا لعالم النبات لدينا- يستخدمه الهنود دائمًا للمشاعل. أخذ كل منّا حزمة من هذه الحشيش، وصعدنا درجات مغطاة بالأعشاب البحرية إلى الكهف المحدد الذي تم تحديده في الرسم. كان، كما قلت، خاليًا باستثناء عدد كبير من الخفافيش الضخمة؛ التي كانتْ ترفرف حول رؤوسنا أثناء تقدمنا داخله. ولأننا لم نرغب في لفتَ انتباه الهنود إلى خطواتنا، فقد تعثرنا في الظلام حتى انحرفنا عدة مرات وتسللنا مسافة كبيرة إلى الكهف. ثم أشعلنا أخيرًا مشاعلنا. كان نفقًا جافًا جميلًا بجدران رمادية ناعمة مغطاة برموز محلية، وسقف منحني مقوس فوق رؤوسنا، ورمل أبيض لامع تحت أقدامنا. هرعنا على طوله بلهفة حتى توقفنا، مع أنين عميق من خيبة الأمل المريرة. ظهر جدار صخري شديد الانحدار أمامنا، بدون شق يمكن أن يتسلل منه فأر. لم يكن هناك مفر لنا هناك.

وقفنا بقلوب مريرة نحدق في هذه العقبة غير المتوقعة. لم يكن ذلك نتيجة لأي اضطراب، كما في حالة النفق الصاعد. كان الجدار النهائي يشبه تمامًا الجدران الجانبية. كان، وكان دائمًا، طريقًا مسدودًا.

قال (تشالنجر) الذي لا يقهر: «لا بأس يا أصدقائي. لا يزال لديكم وعدي الثابت بالحصول على بالون».

تذمر (سمرلي).

«هل يمكن أن نكون في الكهف الخطأ؟» أنا اقترحتُ.

«لا فائدة، أيها الشاب»، قال اللورد (جون)، بإصبعه على الخريطة.

«سبعة عشر من اليمين والثاني من اليسار. هذا هو الكهف بالتأكيد».

نظرتُ إلى العلامة التي أشار إليها بإصبعه، وأطلقتُ صرخة فرح مفاجئة.

«أعتقد أنني وجدتها! اتبعني! اتبعني!».

هرعتُ عائدًا على طول الطريق الذي أتينا منه، ومصباحي في يدي. قلتُ وأنا أشير إلى بعض أعواد الثقاب على الأرض: «هنا حيث أشعلنا».

«بالضبط».

«حسنًا، إنها علامة كهف متشعب، وفي الظلام مررنا بالتشعب قبل إشعال المشاعل. على الجانب الأيمن عند خروجنا يجب أن نجد الذراع الأطول».

كان الأمر كما قلتُ. لم نقطع ثلاثين ياردة حتى ظهرتْ فتحة سوداء كبيرة في الجدار. انعطفنا إليها لنكتشف أننا في ممر أكبر بكثير من ذي قبل. سارعنا على طوله في نفاد صبر لاهث لمئات الأمتار. ثم فجأة، في الظلام الأسود للقوس أمامنا رأينا وميضًا من الضوء الأحمر الداكن. حدقنا في دهشة. بدا الأمر وكأن طبقة من اللهب الثابت تعبر الممر وتمنع طريقنا. سارعنا نحوه. لم يصدر منه أي صوت أو حرارة أو حركة، ولكن الستارة المضيئة الضخمة كانتْ لا تزال تتوهج أمامنا، فتلون الكهف بأكمله بالفضة وتحول الرمال إلى جواهر مسحوقة، حتى عندما اقتربنا منها اكتشفنا حافة دائرية.

صاح اللورد جون: «القمر، بحق جورج! لقد عبرناه يا أولاد! لقد عبرنا!».

لقد كان القمر المكتمل هو الذي أشرق مباشرة عبر الفتحة التي انفتحتْ على المنحدرات. كان شقًا صغيرًا، لا يزيد حجمه عن حجم النافذة، لكنّه كان كافيًا لجميع أغراضنا. وبينما كنّا نمد أعناقنا عبره، رأينا أنّ النزول لم يكن صعبًا للغاية، وأنّ الأرض

المستوية لم تكن بعيدة جدًا أسفلنا. فلا عجب أننا لم نلاحظ المكان من الأسفل؛ حيث كانتِ المنحدرات منحنية فوقنا وكان الصعود إلى المكان يبدو مستحيلًا لدرجة تمنعنا من التفتيش الدقيق. لقد تأكدنا من أنّه بمساعدة حبلنا يمكننا العثور على طريقنا إلى الأسفل، ثم عدنا فرحين إلى معسكرنا لإجراء استعداداتنا للمساء التالي.

كان علينا أن نفعل ما فعلناه بسرعة وفي سرية تامة؛ وذلك لأنّ الهنود قد يمنعوننا حتى في هذه الساعة الأخيرة. لقد تركنا مخازننا خلفنا، باستثناء بنادقنا وخراطيشنا فقط. ولكن (تشالنجر) كان لديه بعض الأشياء غير القابلة للحمل والتي كان يرغب بشدة في أخذها معه، وحزمة واحدة معينة، لا أستطيع أن أتحدث عنها، والتي كلفتنا جهدًا أكبر من أي شيء آخر. مر اليوم ببطء، ولكن عندما حل الظلام كنّا مستعدين للرحيل. وبعد الكثير من الجهد، حملنا أغراضنا على الدرج، ثم نظرنا إلى الوراء، وقمنا بمسح أخير طويل لتلك الأرض الغريبة؛ التي أخشى أن يتم تبسيطها قريبًا، فريسة للصيادين والمنقبين، ولكنها بالنسبة لكل منّا أرض أحلام مليئة بالسحر والرومانسية، أرض تجرأنا فيها كثيرًا، وعانينا كثيرًا، وتعلمنا الكثير- أرضنا، كما سنسميها دائمًا بحب. على يسارنا، ألقتْ كل الكهوف المجاورة ضوءها الناري المبهج في الظلام. من المنحدر أسفلنا ارتفعتْ أصوات الهنود وهم يضحكون ويغنون. كان خلفنا مساحة واسعة من الغابات، وفي الوسط، كانتِ البحيرة العظيمة، التي تتلألأ بشكل غامض في الظلام، أم الوحوش الغريبة. وبينما كنا ننظر، سمعنا صرخة عالية، نداء حيوان غريب، يرن بوضوح من الظلام. كان صوت أرض مابل وايت يودعنا. استدرنا ودخلنا الكهف الذي يقودنا إلى الديار.

بعد ساعتين، كنا نحن وحقائبنا وكل ما نملك عند سفح الجرف. باستثناء أمتعة (تشالنجر)، لم نواجه أي صعوبة. تركنا كل شيء حيث نزلنا، وانطلقنا على الفور إلى معسكر (زامبو). في الصباح الباكر اقتربنا منه، ولكننا لم نجد سوى اثنتي عشرة نارًا على

السهل، لدهشتنا. لقد وصلت فرقة الإنقاذ. كان هناك عشرون هنديًا من النهر، ومعهم أوتاد وحبال وكل ما يمكن أن يكون مفيدًا لسد الفجوة. على الأقل لن نواجه أي صعوبة الآن في حمل أمتعتنا، عندما نبدأ غدًا في العودة إلى الأمازون.

وبهذا، وفي مزاج متواضع وشاكر، أختتم هذه القصة. لقد رأتْ أعيننا عجائب عظيمة وتأدبتْ أرواحنا بما تحملناه. كل منّا هو رجل أفضل وأعمق بطريقته الخاصة. قد نتوقف عند وصولنا إلى بارا لإعادة ترتيب الأشياء. وإذا فعلنا ذلك، فسوف تكون هذه الرسالة في المقدمة. وإذا لم يحدث ذلك، فسوف تصل إلى لندن في نفس اليوم الذي سأصل فيه. وفي كلتا الحالتين، عزيزي السيد (مكاردل)، آمل أن أصافحك قريبًا جدًا.

الفصل السادس عشر

موكب! موكب!

أود أن أسجل هنا امتناننا لجميع أصدقائنا في الأمازون على اللطف الكبير والضيافة التي أظهروها لنا في رحلة العودة. وأود أن أشكر بشكل خاص السيد (بينالوسا) وغيره من المسؤولين في الحكومة البرازيلية على الترتيبات الخاصة التي ساعدتنا في طريقنا، والسيد (بيريرا) من بارا؛ الذي ندين له بتدبيره الكامل للظهور اللائق في العالم المتحضر والذي وجدناه جاهزًا لنا في تلك المدينة. بدا الأمر وكأنّه رد سيئ لكل المجاملة التي واجهناها بأن نخدع مضيفينا ومحسنينا، ولكن في ظل الظروف لم يكن لدينا حقًا أي بديل، وأقول لهم بهذا أنّهم لن يضيعوا وقتهم وأموالهم إلا إذا حاولوا تتبع آثارنا. حتى الأسماء تم تغييرها في تقاريرنا، وأنا متأكد تمامًا من أنه لا يمكن لأحد، من خلال الدراسة الأكثر دقة لها، أن يقترب على بعد ألف ميل من أرضنا المجهولة.

لقد تصورنا أن الإثارة التي أحدثتها تلك الأجزاء من أمريكا الجنوبية التي كان علينا أن نعبرها كانتْ محلية بحتة، وأستطيع أن أؤكد لأصدقائنا في إنجلترا أننا لم نكن ندرك الضجة التي أحدثتها مجرد شائعة عن تجاربنا في أوروبا. ولم نكن نعلم مدى توتر انتباه العالم العلمي فحسب بل وعامة الناس أيضًا إلا بعد أن أصبحتْ سفينة إيفيرنيا على بعد خمسمائة ميل من ساوثهامبتون، وذلك بعد أن أُرسلتْ لنا الرسائل اللا سلكية من صحيفة تلو الأخرى ووكالة تلو الأخرى، والتي عرضتْ علينا أسعارًا باهظة مقابل رسالة قصيرة حول نتائجنا الفعلية. ومع ذلك، فقد اتفقنا على عدم إعطاء بيان محدد للصحافة حتى نلتقي بأعضاء معهد علم الحيوان؛ حيث كان من واجبنا كمندوبين تقديم

تقريرنا الأول إلى الهيئة التي تلقينا منها لجنة التحقيق الخاصة بنا. وعلى هذا، ورغم أننا وجدنا ساوثهامبتون مليئة بالصحفيين، فقد رفضنا تمامًا إعطاء أي معلومات، الأمر الذي كان له التأثير الطبيعي في تركيز انتباه الجمهور على الاجتماع الذي تم الإعلان عنه في مساء السابع من نوفمبر. بالنسبة لهذا التجمع، وجدنا أنّ قاعة علم الحيوان التي كانتْ مسرحًا لبدء مهمتنا كانتْ صغيرة جدًا، ولم يكن من الممكن العثور على مكان إلا في قاعة كوين في شارع ريجنت. ومن المعروف الآن أنّ المنظمين ربما غامروا بزيارة قاعة ألبرت ومع ذلك وجدوا أنّ مكانهم ضئيل للغاية.

لقد تم تحديد موعد اللقاء الكبير في المساء الثاني بعد وصولنا. أمّا في المساء الأول، فقد كان كل منّا مشغولًا بأموره الشخصية الملحة التي لا شك أنّها تشغلنا. أمّا عن أموري الشخصية فلا أستطيع أن أتحدث عنها بعد. وربما أستطيع أن أفكر فيها، بل وأتحدث عنها، بقدر أقل من الانفعال. لقد أوضحتُ للقارئ في بداية هذه القصة أين تكمن ينابيع عملي. ولعل من الصواب أن أواصل القصة وأن أعرض النتائج أيضًا. ولكن قد يأتي اليوم الذي لا أريد فيه أن أعيش حياتي على هذا النحو. على الأقل فقد تم دفعي للمشاركة في مغامرة رائعة، ولا يسعني إلا أن أكون شاكرًا للقوة التي دفعتني إلى ذلك. والآن أنتقل إلى آخر لحظة من مغامرتنا. وبينما كنتُ أحاول جاهدًا أن أصفها على أفضل نحو، وقعتْ عيني على عدد مذكراتي الخاص الصادر في صباح الثامن من نوفمبر/ تشرين الثاني، والذي تضمن رواية كاملة وممتازة لصديقي وزميلي الصحفي (ماكدونا). ما الذي يمكنني أن أفعله بشكل أفضل من نسخ روايته- العناوين الرئيسية وكل شيء؟ أعترف بأنّ الصحيفة كانتْ مندفعة في هذا الأمر، من باب الثناء على مبادرتها بإرسال مراسل، لكن الصحف اليومية الكبرى الأخرى لم تكن أقل انغماسًا في روايتها. لذلك، يقول الصديق ماك في تقريره:

العالم الجديد

الاجتماع العظيم في قاعة كوين

مشاهد من صخب

حادثة غير عادية

ماذا كان؟

أعمال شغب ليلية في شارع ريجنت

(خاص)

«لقد انعقد اجتماع معهد علم الحيوان الذي نوقش كثيرًا، لسماع تقرير لجنة التحقيق المرسلة العام الماضي إلى أمريكا الجنوبية لاختبار التأكيدات التي قدمها البروفيسور (تشالنجر) بشأن استمرار وجود الحياة ما قبل التاريخ على تلك القارة، في الليلة الماضية في قاعة كوين الكبرى، ومن الآمن أن نقول أنّه من المرجح أن يكون تاريخًا مهمًا في تاريخ العلوم؛ لأنّ الإجراءات كانتْ ذات طابع رائع ومثير لدرجة أنّه من غير المرجح أن ينساها أي شخص حاضر على الإطلاق. (يا أخي الكاتب ماكدونا، ما أفظع هذه الجملة الافتتاحية!). كانت التذاكر محصورة نظريًا بالأعضاء وأصدقائهم، ولكن هذا المصطلح مرن، وقبل وقت طويل من الساعة الثامنة، وهي الساعة المحددة لبدء الإجراءات، كانتْ جميع أجزاء القاعة الكبرى مكتظة بالناس. ومع ذلك، اقتحم عامة الناس؛ الذين شعروا بالشكوى بشكل غير معقول بسبب استبعادهم، الأبواب في الساعة الثامنة إلا ربعًا، بعد مشاجرة طويلة أصيب فيها العديد من الأشخاص، بما في ذلك المفتش (سكوبل) من القسم H؛ الذي كسرتْ ساقه للأسف. بعد هذا الغزو غير المبرر؛ الذي لم يملأ كل ممر

فحسب، بل حتى اقتحم المساحة المخصصة للصحافة، يُقدر أنّ ما يقرب من خمسة آلاف شخص كانوا ينتظرون وصول المسافرين. وعندما ظهروا أخيرًا، اتخذوا أماكنهم في مقدمة منصة تضم بالفعل جميع العلماء البارزين، ليس فقط من هذا البلد، بل ومن فرنسا وألمانيا. كما كانتِ السويد ممثلة، في شخص البروفيسور (سيرجيوس)، عالم الحيوان الشهير من جامعة أوبسالا. كان دخول أبطال المناسبة الأربعة بمثابة إشارة إلى مظاهرة ترحيبية رائعة؛ حيث وقف الحضور بالكامل وهتفوا لعدة دقائق. ومع ذلك، ربما كان المراقب الفطن ليكتشف بعض علامات الاختلاف وسط التصفيق، ويستنتج أنّ الإجراءات من المرجح أن تصبح أكثر حيوية من الانسجام. ومع ذلك، يمكننا أن نتنبأ بأمان أنّه لا يمكن لأحد أن يتنبأ بالتحوّل غير العادي الذي كان من المقرر أن يتخذوه بالفعل.

لا داعي للحديث كثيرًا عن مظهر المتجولين الأربعة؛ حيث أنّ صورهم كانتْ تظهر منذ فترة طويلة في جميع الصحف. وهم لا يحملون سوى القليل من آثار المشاق التي قيل أنّهم عانوا منها. ربما كانتْ لحية البروفيسور (تشالنجر) أكثر شعثًا، وملامح البروفيسور (سمرلي) أكثر تقشفًا، وجسد اللورد (جون روكستون) أكثر نحافة، وربما كان الثلاثة قد احترقوا حتى أصبح لونهم أغمق مما كانوا عليه عندما غادروا شواطئنا، لكن كل واحد منهم بدا في صحة ممتازة للغاية. أما ممثلنا، الرياضي الشهير ولاعب كرة القدم الدولي، إي. دي. مالون؛ فهو يبدو مدربًا حتى شعره، وبينما كان يفحص الحشد، كانتِ ابتسامة الرضا المرحة تملأ وجهه الصادق ولكن البسيط. (حسنًا، ماك، انتظر حتى أجعلك بمفردك!).

بعد أن عاد الهدوء وعاد الحضور إلى مقاعدهم بعد التصفيق الحار الذي قدموه للمسافرين، ألقى رئيس الاجتماع، (دوق دورهام)، كلمة في الاجتماع. قال: «إنه لن يقف لأكثر من لحظة بين هذا الجمع الضخم والوجبة التي تنتظرهم. لم يكن من شأنه أن يتوقع ما سيقوله لهم البروفيسور سمرلي، الذي كان المتحدث باسم اللجنة، ولكن

كانت هناك شائعة مفادها أن رحلتهم قد توجت بنجاح غير عادي». (تصفيق)، «يبدو أنّ عصر الرومانسية لم ينته بعد، وكان هناك أرضية مشتركة يمكن أن تلتقي عليها أكثر خيالات الروائي جنونًا بالتحقيقات العلمية الفعلية للباحث عن الحقيقة. لم يضف إلا قبل أن يجلس أنّه كان مسرورًا- وأنّهم جميعًا سيفرحون- لأنّ هؤلاء السادة عادوا سالمين من مهمتهم الصعبة والخطيرة؛ لأنّه لا يمكن إنكار أنّ أي كارثة لمثل هذه البعثة كانتْ ستلحق خسارة لا يمكن تعويضها تقريبًا لقضية علم الحيوان». (تصفيق كبير، لوحظ أنّ البروفيسور تشالنجر انضم إليه).

كان صعود البروفيسور (سمرلي) بمثابة إشارة لاندلاع آخر غير عادي من الحماس، والذي اندلع مرة أخرى على فترات طوال خطابه. لن يتم تقديم هذا الخطاب بالتفصيل في هذه الأعمدة، وذلك لأنّ سردًا كاملًا لمغامرات البعثة بأكملها يتم نشره كملحق بقلم مراسلنا الخاص. لذلك ستكون بعض المؤشرات العامة كافية. وبعد أن وصف نشأة رحلتهم، وأشاد بصديقه البروفيسور (تشالنجر)، إلى جانب اعتذاره عن عدم التصديق الذي قوبلتْ به تأكيداته؛ التي ثبتتْ صحتها الآن تمامًا، قدم المسار الفعلي لرحلتهم، متجنبًا بعناية أي معلومات من شأنها أن تساعد الجمهور في أي محاولة لتحديد موقع هذه الهضبة الرائعة. وبعد أن وصف، بشكل عام، مسارهم من النهر الرئيسي حتى الوقت الذي وصلوا فيه بالفعل إلى قاعدة المنحدرات، أذهل السامعين بروايته للصعوبات التي واجهتها البعثة في محاولاتها المتكررة لتسلق المنحدرات، وأخيرًا وصف كيف نجحوا في مساعيهم اليائسة، والتي كلفتْ أرواح خادميهم الهجينين المخلصين البالغ عددهم ١٩٠ شخصًا. (كانت هذه القراءة المذهلة للقضية نتيجة لجهود سمرلي لتجنب إثارة أي مسألة مشكوك فيها في الاجتماع).

بعد أن قاد البروفسور أتباعه إلى القمة، وحاصرهم هناك بسبب سقوط جسرهم، شرع

في وصف كل من أهوال وجاذبية تلك الأرض الرائعة. ولم يتحدث كثيرًا عن المغامرات الشخصية، لكنّه أكد على الحصاد الوفير الذي حصدته العلوم من خلال ملاحظاتها على الحيوانات الرائعة والطيور والحشرات والنباتات في الهضبة. فقد تم اكتشاف ستة وأربعين نوعًا جديدًا من النوع الأول وأربعة وتسعين نوعًا من النوع الثاني في غضون بضعة أسابيع، وهي غنية بشكل خاص بالخنافس والحشرات القشرية. ومع ذلك، فقد تركز اهتمام الجمهور بشكل طبيعي على الحيوانات الأكبر حجمًا، وخاصة الحيوانات الأكبر حجمًا التي يُفترض أنّها انقرضتْ منذ فترة طويلة. وقد تمكن من تقديم قائمة جيدة بهذه الحيوانات، لكنه لم يكن لديه أدنى شك في أنّها ستتوسع إلى حد كبير عندما يتم التحقيق في المكان بشكل أكثر دقة. لقد رأى هو ورفاقه ما لا يقل عن اثني عشر مخلوقًا، معظمهم من مسافة بعيدة، وهو ما لا يتوافق مع أي شيء معروف حاليًا للعلم. لقد قام بتصنيف هذه الكائنات وفحصها على النحو اللائق في الوقت المناسب. لقد ذكر ثعبانًا، كان جلده المصبوغ باللون الأرجواني الداكن، يبلغ طوله واحدًا وخمسين قدمًا، وذكر مخلوقًا أبيض، يُفترض أنّه من الثدييات، والذي كان يصدر ضوءًا فسفوريًا واضحًا في الظلام؛ كما ذكر أيضًا عثة سوداء كبيرة، كان الهنود يعتقدون أنّ لدغتها سامة للغاية. بصرف النظر عن هذه الأشكال الجديدة تمامًا من الحياة، كانتِ الهضبة غنية جدًا بالأشكال المعروفة التي تعود إلى عصور ما قبل التاريخ، والتي يعود تاريخها في بعض الحالات إلى أوائل العصر الجوراسي. من بين هذه الأشكال، ذكر ستيجوصوروس العملاق الغريب، الذي رآه السيد (مالون) ذات مرة في مكان للشرب بجانب البحيرة، ورسمه في دفتر الرسم الخاص بذلك الأمريكي المغامر الذي اخترق هذا العالم المجهول لأول مرة. كما وصف أيضًا الإجواندون والبترودكتيل- اثنان من أوائل العجائب التي واجهوها. ثم أثار حماس الحاضرين برواية عن الديناصورات آكلة اللحوم الرهيبة؛ التي طاردتْ أعضاء

المجموعة أكثر من مرة، والتي كانتِ الأكثر رعبًا بين كل المخلوقات التي واجهوها. ومن ثم انتقل إلى الطائر الضخم الشرس، الفوروراكوس، والأيل الكبير الذي لا يزال يتجول في هذه المرتفعات. ومع ذلك، لم يكن الاهتمام والحماس الكاملين للجمهور حتى رسم أسرار البحيرة الوسطى. كان على المرء أن يقرص نفسه للتأكد من أنّه مستيقظ بينما يسمع هذا البروفسور العاقل والعملي بنبرة باردة مدروسة يصف السحالي السمكية الوحشية ذات العيون الثلاثة والثعابين المائية الضخمة التي تسكن هذه الطبقة المسحورة من الماء. ثم تحدث بعد ذلك عن الهنود، وعن المستعمرة غير العادية من القردة الشبيهة بالإنسان، والتي قد ينظر إليها باعتبارها تقدمًا على القردة الشبيهة بالإنسان في جاوة، وبالتالي فإنّها تقترب أكثر من أي شكل معروف من ذلك الخلق الافتراضي، الحلقة المفقودة. وأخيرًا وصف، بين بعض المرح، الاختراع الجوي البارع ولكن الخطير للغاية الذي ابتكره البروفيسور (تشالنجر)، وأنهى خطابًا لا يُنسى بسرد الأساليب التي استخدمتها اللجنة أخيرًا في العودة إلى الحضارة.

كان من المأمول أن تنتهي الإجراءات عند هذا الحد، وأن يتم تأييد التصويت بالشكر والتهنئة الذي تقدم به البروفيسور (سيرجيوس) من جامعة أوبسالا؛ ولكن سرعان ما اتضح أنّ مجرى الأحداث لم يكن مقدرًا له أن يسير بسلاسة. كانتْ أعراض المعارضة واضحة من وقت لآخر أثناء المساء، والآن وقف الدكتور (جيمس إلينجورث) من إدنبرة في وسط القاعة. سأل الدكتور (إلينجورث) ما إذا كان ينبغي تقديم تعديل قبل القرار.

الرئيس: «نعم سيدي، إذا كان لا بُد من تقديم تعديل».

الدكتور (إلينجورث): «صاحب السمو، لا بُد من تقديم تعديل».

الرئيس: «إذن فلنتناوله على الفور».

الأستاذ سمرلي (ينهض على قدميه): «هل لي أن أشرح، يا صاحب السمو، أنّ هذا الرجل عدوي الشخصي منذ جدالنا في المجلة الفصلية للعلوم حول الطبيعة الحقيقية لباثيبيوس؟».

الرئيس: «أخشى ألا أتمكن من الخوض في الأمور الشخصية. تابع».

لم يُسمَع الدكتور (إلينجورث) بشكل كامل في جزء من ملاحظاته بسبب المعارضة الشديدة من جانب أصدقاء المستكشفين. كما بُذِلتْ بعض المحاولات لإسقاطه. ومع ذلك، نظرًا لكونه رجلًا ضخم البنية، ويمتلك صوتًا قويًا للغاية، فقد سيطر على الضجيج ونجح في إنهاء خطابه. كان من الواضح، منذ لحظة نهضته، أنّه كان لديه عدد من الأصدقاء والمتعاطفين في القاعة، على الرغم من أنّهم شكلوا أقلية في الجمهور. يمكن وصف موقف الجزء الأكبر من الجمهور بأنّه موقف حيادي يقظ.

بدأ الدكتور (إلينجورث) كلمته بالتعبير عن تقديره الكبير للعمل العلمي لكل من البروفيسور (تشالنجر) والبروفيسور (سمرلي). وأعرب عن أسفه الشديد لأي تحيز شخصي قد تم تفسيره في ملاحظاته، والتي كانتْ مدفوعة بالكامل برغبته في الحقيقة العلمية. في الواقع، كان موقفه هو نفس الموقف الذي تبناه البروفيسور (سمرلي) في الاجتماع الأخير. في ذلك الاجتماع الأخير، أدلى البروفيسور (تشالنجر) ببعض التأكيدات التي شكك فيها زميله. والآن تقدم هذا الزميل بنفسه بنفس التأكيدات وتوقع أن تظل دون شك. هل كان هذا معقولًا؟ (نعم، لا، ومقاطعة مطولة، سمع خلالها البروفيسور تشالنجر من مقصورة الصحافة يطلب الإذن من الرئيس بإخراج الدكتور إيلينجورث إلى الشارع). قبل عام قال رجل أشياء معينة. والآن قال أربعة رجال أشياء أخرى وأكثر إثارة للدهشة. هل كان هذا ليشكل دليلًا نهائيًا على أنّ الأمور المعنية كانتْ ذات طابع

ثوري غير قابل للتصديق؟ كانتْ هناك أمثلة حديثة لمسافرين وصلوا من المجهول ببعض القصص التي تم قبولها بسهولة. هل كان معهد لندن لعلم الحيوان ليضع نفسه في هذا الموقف؟ لقد اعترف بأنّ أعضاء اللجنة من الرجال ذوي الشخصية القوية. ولكن الطبيعة البشرية معقدة للغاية. حتى الأساتذة قد يضللون برغبتهم في الشهرة. فمثل العث، نحب جميعًا أن نرفرف في الضوء. كان الصيادون المحترفون يحبون أن يكونوا في وضع يمكنهم من تغطية حكايات منافسيهم، ولم يكن الصحافيون يهانعون في الانقلابات المثيرة، حتى عندما كان الخيال ضروريًا لمساعدة الحقيقة في هذه العملية. كان لكل عضو في اللجنة دوافعه الخاصة لتحقيق أقصى استفادة من نتائجه. (عار! عار!) لم يكن لديه أي رغبة في الإساءة. (أنت كذلك! ومقاطعة). كان إثبات هذه القصص العجيبة في الواقع من أضعف الأوصاف. ماذا كان الأمر؟ بعض الصور الفوتوغرافية. «هل كان من الممكن في هذا العصر من التلاعب البارع أن نقبل الصور الفوتوغرافية كدليل؟»، ماذا بعد؟ لدينا قصة عن رحلة ونزول بالحبال مما حال دون إنتاج عينات أكبر. لقد كان هذا عبقريًا، لكنّه لم يكن مقنعًا. فقد كان من المفهوم أن اللورد (جون روكستون) ادعى أنه يمتلك جمجمة فوروراكوس. ولم يستطع إلا أن يقول أنّه يرغب في رؤية تلك الجمجمة.

اللورد (جون روكستون): «هل هذا الرجل ينادي بالكاذب؟» (ضجة).

الرئيس: «النظام! النظام! دكتور إلينجورث، يجب أن أوجهك إلى إنهاء ملاحظاتك وتقديم تعديلك».

دكتور (إلينجورث): «سماحتك، لدي المزيد لأقوله، لكنني أنحني لحكمك».

«أقترح إذن أنّه بينما نشكر البروفيسور سمرلي على خطابه المثير للاهتمام، يجب اعتبار الأمر برمته (غير مثبت)، ويجب إعادته إلى لجنة تحقيق أكبر وربما أكثر موثوقية».

من الصعب وصف الارتباك الناجم عن هذا التعديل. أعرب قسم كبير من الجمهور عن سخطهم من مثل هذه الإهانة للمسافرين بصيحات صاخبة من المعارضة وصيحات، «لا تضعه!»، «انسحب!»، «أخرجه!». من ناحية أخرى، هتف الساخطون- ولا يمكن إنكار أنّهم كانوا كثيرين إلى حد ما- للتعديل، وهتفوا «النظام!»، و «الرئيس!»، و «اللعب النظيف!». اندلع شجار في المقاعد الخلفية، وتبادل طلاب الطب الضربات بحرية بين ذلك الجزء من القاعة. ولم يمنع التأثير المعتدل لوجود أعداد كبيرة من السيدات من حدوث شغب مطلق. ولكن فجأة، كان هناك توقف، ثم صمت، ثم صمت تام. كان البروفيسور (تشالنجر) على قدميه. كان مظهره وسلوكه مثيرين للانتباه بشكل غريب، وعندما رفع يده من أجل النظام، جلس الحضور بالكامل في انتظار الاستماع إليه.

قال البروفيسور (تشالنجر): «سيظل في أذهان العديد من الحاضرين أنّ مثل هذه المشاهد الحمقاء وغير اللائقة كانتْ بمثابة آخر اجتماع تمكنتُ فيه من مخاطبتهم. في تلك المناسبة كان البروفيسور (سمرلي) هو المذنب الرئيسي، ورغم أنه أصبح الآن معاقبًا ونادمًا، إلا أنّه لا يمكن نسيان الأمر تمامًا. لقد سمعتُ الليلة مشاعر مماثلة، ولكنّها أكثر إساءة، من الشخص الذي جلس للتو، ورغم أنّ الأمر يتطلب جهدًا واعيًا من التضحية بالنفس للوصول إلى المستوى العقلي لذلك الشخص، إلا أنني سأحاول القيام بذلك؛ من أجل تبديد أي شك معقول يمكن أن يوجد في أذهان أي شخص». (ضحك ومقاطعة)، «لا أحتاج إلى تذكير هذا الجمهور بأنّه على الرغم من أنّ البروفيسور سمرلي، بصفته رئيس لجنة التحقيق، قد تم تعيينه للتحدث الليلة، إلا أنني ما زلتُ المحرك الرئيسي الحقيقي في هذا العمل، وأنّ أي نتيجة ناجحة يجب أن تُعزى إليّ بشكل أساسي. لقد قمتُ بإرشاد هؤلاء السادة الثلاثة بأمان إلى المكان المذكور، وقد أقنعتهم، كما سمعتم، بدقة روايتي السابقة. كنّا نأمل أن نجد عند عودتنا أنّه لا يوجد أحد غبي لدرجة أن

يجادل في استنتاجاتنا المشتركة. ومع ذلك، حذرتني تجربتي السابقة، ولم آت بدون مثل هذه الأدلة التي قد تقنع الرجل المعقول. وكما أوضح البروفيسور سمرلي، فقد تم العبث بكاميراتنا من قبل رجال القردة عندما نهبوا معسكرنا، ودمروا معظم السلبيات لدينا». (السخرية والضحك، و «أخبرنا بأمر آخر!» من الخلف)، «لقد ذكرتُ رجال القردة، ولا أستطيع أن أمتنع عن القول إنّ بعض الأصوات التي تصل إلى أذني الآن تعيد إلى ذاكرتي بوضوح تجاربي مع تلك المخلوقات المثيرة للاهتمام». (ضحك). «على الرغم من تدمير العديد من الصور السلبية التي لا تقدر بثمن، لا يزال في مجموعتنا عدد معين من الصور التي تؤكد ظروف الحياة على الهضبة. هل اتهموهم بتزوير هذه الصور؟». (صوت، «نعم»، ومقاطعة كبيرة انتهتْ بطرد العديد من الرجال من القاعة). «كانتِ الصور السلبية مفتوحة لفحص الخبراء. ولكن ما الدليل الآخر الذي لديهم؟ في ظل ظروف هروبهم، كان من المستحيل بطبيعة الحال إحضار كمية كبيرة من الأمتعة، لكنّهم أنقذوا مجموعات البروفيسور سمرلي من الفراشات والخنافس، التي تحتوي على العديد من الأنواع الجديدة. أليس هذا دليلًا؟». (أصوات عديدة، «لا»). «من قال لا؟».

دكتور إيلينجورث (ينهض): «وجهة نظرنا هي أنّ مثل هذه المجموعة ربما تكون قد تم جمعها في أماكن أخرى غير هضبة ما قبل التاريخ». (تصفيق).

الأستاذ (تشالنجر): «لا شك، سيدي، أننا يجب أن ننحني لسلطتك العلمية، رغم أنني يجب أن أعترف بأنّ الاسم غير مألوف. بعد أن مررت بالصور والمجموعة الحشرية، توصلت إلى المعلومات المتنوعة والدقيقة التي نحملها معنا حول نقاط لم يتم توضيحها من قبل. على سبيل المثال، حول العادات المنزلية للطائر المجنح-(صوت: «هراء» وضجيج)- أقول، أنّه يمكننا إلقاء طوفان من الضوء على العادات المنزلية للطائر المجنح. يمكنني أن أعرض عليك من محفظتي صورة لهذا المخلوق مأخوذة من الحياة والتي من

شأنها أن تقنعك».

دكتور (إيلينجورث): «لا يمكن لأي صورة أن تقنعني بأي شيء».

الأستاذ (تشالنجر): «هل تريد أن ترى الشيء نفسه؟».

دكتور (إيلينجورث): «بلا شك».

الأستاذ (تشالنجر): «وهل تقبل ذلك؟».

دكتور إيلينجورث (ضاحكًا): «بلا شك».

في هذه اللحظة نشأ إحساس المساء- إحساس درامي للغاية لدرجة أنّه لا يمكن مقارنته أبدًا في تاريخ التجمعات العلمية. رفع البروفيسور (تشالنجر) يده في الهواء كإشارة، وعلى الفور لوحظ زميلنا السيد إي. دي. مالون وهو ينهض ويشق طريقه إلى مؤخرة المنصة. بعد لحظة ظهر مرة أخرى برفقة رجل أسود عملاق، وكان الاثنان يحملان بينهما صندوقًا كبيرًا مربعًا. كان من الواضح أنّ الصندوق ثقيل الوزن، وقد تم حمله ببطء ووضعه أمام كرسي البروفسور. كان كل صوت قد خفت في الجمهور وكان الجميع منغمسين في المشهد أمامهم. رفع البروفسور (تشالنجر) الجزء العلوي من الصندوق؛ الذي شكل غطاءً منزلقًا. نظر إلى أسفل الصندوق ونقر بأصابعه عدة مرات، فسمع من مقعد الصحافة يقول، «تعال، إذن، يا جميل، يا جميل!» بصوت مغرٍ. بعد لحظة، وبصوت خدش وخشخشة، ظهر مخلوق فظيع ومثير للاشمئزاز من الأسفل ووقف على جانب الصندوق. حتى السقوط غير المتوقع لدوق دورهام في الأوركسترا، والذي حدث في هذه اللحظة، لم يستطع تشتيت انتباه الجمهور المتحجر. كان وجه المخلوق أشبه بأعنف وحش غارغول يمكن أن يتخيله خيال باني مجنون من العصور الوسطى. كان

خبيثًا، فظيعًا، وله عينان حمراوان صغيرتان لامعتان مثل نقطتي الفحم المشتعل. كان فمه الطويل الوحشي، الذي كان مفتوحًا جزئيًا، مليئًا بصفين من أسنان تشبه أسماك القرش. كانتْ أكتافه محدبة، وكان حولها ما يبدو أنه شال رمادي باهت. كان شيطان طفولتنا شخصيًا. كان هناك اضطراب في الجمهور- صرخ أحدهم، وسقطت سيدتان في الصف الأمامي فاقدتا الوعي من مقاعدهما، وكانتْ هناك حركة عامة على المنصة لمتابعة رئيسهم إلى الأوركسترا. للحظة كان هناك خطر من الذعر العام. رفع البروفسور (تشالنجر) يديه لتهدئة الضجة، لكن الحركة أزعجتِ المخلوق بجانبه. فجأة انكشف شاله الغريب، وانتشر، ورفرف كزوج من الأجنحة الجلدية. أمسك صاحبه بساقيه، ولكن بعد فوات الأوان للإمساك به. قفز من المجثم وكان يدور ببطء حول قاعة كوين مع رفرفة جافة وجلدية لأجنحته التي يبلغ طولها عشرة أقدام، بينما كانتْ رائحة كريهة وخبيثة تملأ الغرفة. لقد أثارتْ صيحات الناس في القاعات؛ الذين أصابهم الفزع من اقتراب تلك العيون المتوهجة وذلك المنقار القاتل، المخلوق حتى بلغ حالة من الهياج. فطار بسرعة أكبر فأكبر، وراح يضرب الجدران والثريات في حالة من الهياج الأعمى من الفزع. صاح الأستاذ من المنصة وهو يرقص ويعصر يديه في ألم من الخوف: «النافذة! بحق السماء، أغلق تلك النافذة!». ولكن للأسف، كان تحذيره متأخرًا للغاية! وفي لحظة، وصل المخلوق، وهو يضرب ويصطدم بالحائط مثل فراشة ضخمة داخل مظلة غازية، إلى الفتحة، وضغط على جسمه البشع من خلالها، ثم اختفى. وسقط البروفسور (تشالنجر) على كرسيه ووجهه مدفون بين يديه، بينما أطلق الحضور تنهيدة طويلة عميقة من الراحة عندما أدركوا أنّ الحادث قد انتهى.

إذن- أوه! كيف يصف المرء ما حدث حينئذ- عندما اتحدتِ الحماسة الكاملة للأغلبية وردود الفعل الكاملة للأقلية لتكوين موجة واحدة عظيمة من الحماس، انطلقتْ من

مؤخرة القاعة، واكتسبتْ قوة هائلة كلما جاءتْ، واكتسحتِ الأوركسترا، وغمرتِ المنصة، وحملتِ الأبطال الأربعة على قمتها؟- (أحسنت يا ماك!)- لو كان الجمهور قد فعل أقل من العدل، لكان قد عوض ذلك عن كل شيء. فقد وقف الجميع على أقدامهم. وكان الجميع يتحركون، ويصيحون، ويلوحون بأيديهم. وكان حشد كثيف من الرجال المبتهجين يحيط بالمسافرين الأربعة. وصاح مائة صوت: «اصعدوا! اصعدوا!». وفي لحظة، قفز أربعة أشخاص فوق الحشد. وحاولوا بلا جدوى أن يتحرروا. وقد احتُجزوا في أماكنهم الرفيعة المرموقة. وكان من الصعب أن نخذلهم لو أردنا ذلك؛ لأنّ الحشد كان كثيفًا للغاية من حولهم. «شارع ريجنت! شارع ريجنت!» سمعتُ أصواتهم. كان هناك دوامة في الحشد المزدحم، وتدفق تيار بطيء يحمل الأربعة على أكتافهم نحو الباب. كان المشهد في الشارع غير عادي. كان هناك حشد لا يقل عن مائة ألف شخص ينتظرون. امتد الحشد المزدحم من الجانب الآخر لفندق لانغهام إلى أكسفورد سيركس. استقبل هدير التصفيق المغامرين الأربعة عندما ظهروا عاليًا فوق رؤوس الناس، تحت المصابيح الكهربائية الساطعة خارج القاعة. «موكب! موكب!» كان الصراخ عاليًا. وفي حشد كثيف من الناس، حجبوا الشوارع من جانب إلى آخر، انطلق الحشد، متخذًا طريق ريجنت ستريت، وبال مول، وشارع سانت جيمس، وبيكاديللي. وتعطلتْ حركة المرور في وسط لندن بالكامل، ووردتْ أنباء عن وقوع العديد من الاصطدامات بين المتظاهرين من جهة والشرطة وسائقي سيارات الأجرة من جهة أخرى. وأخيرًا، لم يتم إطلاق سراح المسافرين الأربعة عند مدخل غرف اللورد (جون روكستون) في ألباني إلا بعد منتصف الليل، وأنشد الحشد المتحمس أغنية «إنهم رفاق طيبون مرحون» في جوقة، واختتم برنامجه بأغنية «حفظ الله الملك». وهكذا انتهتْ إحدى أكثر الأمسيات تميزًا التي شهدتها لندن منذ فترة طويلة».

لقد تحدثتُ حتى الآن مع صديقي (ماكدونا)، ويمكن اعتبار ذلك وصفًا دقيقًا إلى حد ما، وإن كان مزخرفًا، للوقائع. أما فيما يتعلق بالحادث الرئيسي، فقد كان مفاجأة محيرة للجمهور، ولكن ليس لنا، ولا أحتاج إلى القول. سيتذكر القارئ كيف التقيتُ باللورد (جون روكستون) في نفس المناسبة عندما ذهب، مرتديًا قميصه الواقي، لإحضار «كتكوت الشيطان» كما أسماه، البروفسور (تشالنجر). لقد لمّحتُ أيضًا إلى المتاعب التي سببتها لنا أمتعة البروفسور عندما غادرنا الهضبة، ولو وصفتُ رحلتنا، لقلتُ الكثير من القلق الذي كان علينا أن نغريه بسمكة فاسدة شهية رفيقنا القذر. إذا لم أتحدث كثيرًا عن هذا من قبل، فبالطبع كانتْ رغبة البروفسور الجادة هي ألا يُسمح بتسرب أي شائعة محتملة عن الحجة التي لا يمكن دحضها والتي قدمناها حتى تأتي اللحظة التي يتم فيها دحض أعدائه.

كلمة واحدة عن مصير الزاحف المجنح اللندني. لا يمكن أن يقال أي شيء مؤكد حول هذه النقطة. هناك دليل من امرأتين خائفتين على أنّ الطائر كان واقفًا على سطح قاعة كوين وظل هناك مثل تمثال شيطاني لعدة ساعات. في اليوم التالي، ظهر في الصحف المسائية أنّ الجندي (مايلز)، من حرس كولدستريم، أثناء تأدية واجبه خارج مارلبورو هاوس، قد ترك منصبه دون إذن، وبالتالي تمتْ محاكمته عسكريًا. لم تقبل المحكمة رواية الجندي (مايلز)؛ التي تفيد بأنّه ألقى بندقيته وهرب إلى المول لأنّه عندما نظر إلى أعلى رأى فجأة الشيطان بينه وبين القمر، ومع ذلك قد يكون لها تأثير مباشر على النقطة المعنية. الدليل الوحيد الآخر الذي يمكنني تقديمه هو من سجل سفينة إس إس فريزلاند، وهي سفينة هولندية أمريكية، والتي تؤكد أنّه في الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي، كانتْ ستارت بوينت في ذلك الوقت على بعد عشرة أميال من جانبهم الأيمن، مر بهم شيء بين عنزة طائرة وخفاش وحشي، كان يتجه بسرعة هائلة جنوبًا وغربًا. إذا كانتْ غريزة العودة

إلى الوطن قد قادته إلى الطريق الصحيح، فلا شك أنّ آخر زاحف أوروبي وجد نهايته في مكان ما في المناطق القاحلة من المحيط الأطلسي.

وجلاديس- أوه، يا جلاديس!- جلاديس البحيرة الغامضة؛ التي سيعاد تسميتها الآن بالمركزية؛ لأنّها لن تنال الخلود من خلالي أبدًا. ألم أكن أرى دائمًا بعض الألياف الصلبة في طبيعتها؟ ألم أكن أشعر، حتى في الوقت الذي كنتُ فخورًا فيه بإطاعة أمرها، أنّ الحب الفقير هو الذي قد يدفع الحبيب إلى الموت أو إلى خطر الموت؟ ألم أكن أرى، في أصدق أفكاري، التي تتكرر دائمًا وتتجاهلها دائمًا، ما وراء جمال الوجه، وأتبين، عند النظر إلى الروح، الظلال المزدوجة للأنانية والتقلب القاتمة خلفها؟ هل كانتْ تحب البطولة والروعة من أجل نبلها، أم أنّها كانتْ تحب المجد الذي قد ينعكس عليها دون جهد أو تضحية؟ أم أنّ هذه الأفكار هي الحكمة الباطلة التي تأتي بعد الحدث؟ لقد كانتْ صدمة حياتي. لقد حوّلتني للحظة إلى شخص ساخر. ولكن، بينما أكتب هذه الكلمات، مرتْ أسبوع بالفعل، وأجرينا مقابلتنا المهمة مع اللورد (جون روكستون)، وربما كانتِ الأمور أسوأ.

دعوني أرويها بكلمات قليلة. لم تصلني رسالة أو برقية في ساوثهامبتون، ووصلتْ إلى الفيلا الصغيرة في ستريثام حوالي الساعة العاشرة من تلك الليلة في حمى من الذعر. هل كانتْ ميتة أم حية؟ أين ذهبت كل أحلامي الليلية عن الأذرع المفتوحة، والوجه المبتسم، وكلمات الثناء على الرجل الذي خاطر بحياته لإرضاء نزوتها؟ لقد نزلتُ بالفعل من القمم العالية ووقفتُ على الأرض بقدمي ثابتتين. ومع ذلك، قد ترفعني بعض الأسباب الجيدة إلى السحاب مرة أخرى. اندفعتُ إلى أسفل ممر الحديقة، وطرقتُ الباب، وسمعتُ صوت (جلاديس) بالداخل، ودفعتِ الخادمة التي تحدق بي، ودخلتْ غرفة الجلوس. كانتْ جالسة على أريكة منخفضة تحت المصباح القياسي المظلل بجوار البيانو. وفي ثلاث

خطوات كنتُ عبر الغرفة وأمسك بكلتا يديها في يدي.

«جلاديس!» صرختُ، «جلاديس!».

رفعتْ رأسها بدهشة. لقد تغيرتْ بطريقة خفية. كان تعبير عينيها، ونظرتها الحادة إلى الأعلى، وشفتيها، جديدًا بالنسبة لي. سحبتْ يديها.

«ماذا تقصد؟» قالتْ.

«جلاديس!» صرختُ. «ما الأمر؟ أنت جلاديس، أليس كذلك- جلاديس هانجرتون الصغيرة؟».

«لا»، قالتْ، «أنا جلاديس بوتس. دعني أقدمك إلى زوجي».

ما مدى عبثية الحياة! وجدتُ نفسي أنحني ميكانيكيًا وأصافح رجلًا صغيرًا ذا شعر أحمر كان ملتفًا في الكرسي العميق الذي كان مقدسًا لاستخدامي الخاص ذات يوم. ابتسمنا أمام بعضنا البعض.

«سمح لنا أبي بالبقاء هنا. نحن نجهز منزلنا»، قالتْ (جلاديس).

«أوه، نعم»، قلتُ.

«لم تتلق خطابي في بارا إذن؟».

«لا، لم أتلق خطابًا».

«يا للأسف! كان من الممكن أن يوضح ذلك كل شيء».

«إنّه واضح تمامًا»، قلتُ.

«لقد أخبرتُ ويليام بكل شيء عنك»، قالتْ. «ليس لدينا أسرار. أنا آسفة جدًا بشأن ذلك. لكن الأمر لم يكن ليكون عميقًا جدًا، أليس كذلك؟ لو كان بإمكانك الذهاب إلى الطرف الآخر من العالم وتركتني هنا وحدي. أنت لست غاضبًا، أليس كذلك؟».

«لا، لا، على الإطلاق. أعتقد أنني سأذهب».

«خذ بعض المرطبات»، قال الرجل الصغير، وأضاف بطريقة سرية، «الأمر دائمًا على هذا النحو، أليس كذلك؟ ولا بُد أنّه كذلك ما لم تكن لديك تعدد الزوجات، فقط العكس؛ أنت تفهم». ضحك مثل الأحمق، بينما اتجهتُ نحو الباب.

لقد انتهيتُ، عندما فاجأني اندفاع خيالي مفاجئ، وعدتُ إلى منافسي الناجح، الذي نظر بتوتر إلى الدفع الكهربائي.

«هل ستجيب على سؤال؟» سألتُ.

«حسنًا، في حدود المعقول»، قال.

«كيف فعلت ذلك؟ هل بحثتَ عن كنز مخفي، أو اكتشفتَ عمودًا، أو قضيتَ وقتًا في رحلة بحرية مع قرصان، أو سافرتَ عبر القناة، أو ماذا؟ أين سحر الرومانسية؟ كيف حصلتَ عليها؟».

حدق فيّ بتعبير يائس على وجهه الصغير الخالي من المشاعر، الطيب، المتسخ.

«ألا تعتقد أنّ الأمر شخصي للغاية؟» قال.

«حسنًا، سؤال واحد فقط»، صرختُ. «من أنت؟ ما هي مهنتك؟».

«أنا كاتب لدى محامٍ»، قال. «الرجل الثاني في مكتب جونسون وميريفيل، ٤١

تشانسري لين».

«تصبحون على خير!» قلتُ، واختفيتُ، مثل كل الأبطال المحبطين والمحطمي القلوب، في الظلام، والحزن والغضب والضحك يغليان في داخلي مثل قدر يغلي.

مشهد صغير آخر، وقد انتهيتُ. تناولنا العشاء جميعًا الليلة الماضية لدى اللورد (جون روكستون)، وجلسنا معًا بعد ذلك ودخنا في رفقة طيبة وتحدثنا عن مغامراتنا. كان من الغريب في ظل هذه البيئة المتغيرة أن أرى الوجوه والشخصيات القديمة المعروفة. كان هناك (تشالنجر)، بابتسامته المتعالية، وجفونه المتدلية، وعينيه المتعصبتين، ولحيته العدوانية، وصدره الضخم المتورم والمتورم وهو يفرض القانون على (سمرلي). وكان هناك (سمرلي) أيضًا، بشاربه الرقيق ولحيته الرمادية، ووجهه المتعب بارزًا في نقاش متحمس وهو يستفسر عن جميع مقترحات (تشالنجر). وأخيرًا، كان هناك مضيفنا، بوجهه الخشن الذي يشبه وجه النسر، وعينيه الباردتين الزرقاوين الجليديتين مع وميض دائم من الشيطانية والفكاهة في أعماقهما. هذه هي آخر صورة لهم احتفظتُ بها.

بعد العشاء، في حرمه الخاص- غرفة الإشراق الوردي والجوائز التي لا تعد ولا تحصى- كان لدى اللورد (جون روكستون) ما يقوله لنا. أحضر من خزانة صندوق سيجار قديم، ووضعه أمامه على الطاولة.

«هناك شيء واحد»، قال، «ربما كان عليّ أن أتحدث عنه قبل هذا، لكنني أردتُ أن أعرف بوضوح أكبر أين كنت. لا فائدة من إثارة الآمال وإحباطها مرة أخرى. لكن الحقائق، وليس الآمال، هي التي تحكمنا الآن. ربما تتذكر ذلك اليوم الذي وجدنا فيه مستعمرة الديناصورات الطائرة في المستنقع- ماذا؟ حسنًا، شيء ما لفتَ انتباهي. ربما هرب منك، لذا سأخبرك. كانتْ فتحة بركانية مليئة بالطين الأزرق». أومأ الأستاذان

برأسيهما.

«حسنًا، الآن، في العالم كله، لم يكن لدي سوى مكان واحد كان فتحة بركانية مليئة بالطين الأزرق. كان ذلك منجم دي بيرز العظيم للماس في كيمبرلي- ماذا؟ لذا ترى، لقد زرعت الماس في رأسي. لقد جهزت جهازًا لإبعاد تلك الوحوش النتنة، وقضيت يومًا سعيدًا هناك مع بطاطس. هذا ما حصلتُ عليه».

فتح صندوق السيجار الخاص به، ثم أمالها وسكب على الطاولة حوالي عشرين أو ثلاثين حجرًا خشنًا، تتراوح أحجامها بين حجم حبات الفاصولياء إلى حجم حبات الكستناء.

أخرج علبة حبوب من جيبه، وأخرج منها ماسة لامعة جميلة، واحدة من أجمل الأحجار التي رأيتها على الإطلاق.

«هذه هي النتيجة»، قال. «لقد حدد سعر المجموعة بما لا يقل عن مائتي ألف جنيه إسترليني. بالطبع إنّها حصص عادلة بيننا. لن أسمع أي شيء آخر. حسنًا، تشالنجر، ماذا ستفعل بخمسين ألف جنيه إسترليني؟».

«إذا كنتَ حقًا مصرًا على وجهة نظرك الكريمة»، قال البروفسور، «فسأقوم بتأسيس متحف خاص، وهو ما كان أحد أحلامي منذ فترة طويلة.«

«وأنت يا سمرلي؟».

«سأتقاعد عن التدريس، وبالتالي أجد الوقت لتصنيفي النهائي للحفريات الطباشيرية».

«سأستخدم نقودي»، قال اللورد (جون روكستون)، «في إعداد رحلة استكشافية

جيدة التكوين وإلقاء نظرة أخرى على الهضبة القديمة العزيزة. أما أنت، أيها الشاب، فستنفق نقودك بالطبع في الزواج».

«ليس الآن»، قلتُ بابتسامة حزينة. «أعتقد أنّه إذا كنتَ تريدني، فإنني أفضل الذهاب معك».

لم يقل اللورد (روكستون) شيئًا، لكن يدًا بنية اللون امتدتْ إليّ عبر الطاولة.